كتاب

عِلمِ الأَدَبِ

الجزء الثاني

في

علم الخطابة

تأليف

الاب لويس شيخو اليسوعي

IHS

طبعة ثالثة مصحَّحة مكمَّلة

في مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت

سنة ١٩٢٦

حقوق طبعهِ محفوظة للمطبعة

توطئة

للطبعة الثالثة من علم الادب

الحمد لله الذي جعل اللسان ترجماناً عن خفايا الجنان. وضمَّ بنطقهِ نَشر المجتمع البشري حتى اقاصي البلدان . ووكل اليهِ اثبات الحقّ وازهاق الباطل بقوَّة البرهان

وبعد فنقول هذه طبعة جديدة للقسم الثاني من كتابنا علم الادب الذي خصصناهُ باصول صناعةٍ قلَّما خاض في اتجاهها كتبة العرب نريد بها علم الخطابة . ولسنا نقصد بذلك انَّهم جهلوا هذا الفنّ الجليل مع ما نرى في تآليفهم من آثارهِ الطيبة التي دفعت ببعضهم الى القول بان العرب اخطب الأُمم . كلَّا ولكنهم قد تبعوا في ذلك فطرتهم الصالحة وذوقهم السليم اكثر منهم القوانين الوضعية التي هي خلاصة درس الادباء ونتيجة مراقبتهم لأئمَّة الخطباء. ولا شكّ انهم لو عرفوها لأتوا من فنونها بالعجائب مع ما عُرفوا بهِ من ثقوب الاذهان وذلاقة اللسان والبلاغة في الكلام

وقد كنَّا سابقاً نشرنا لاوَّل مرَّة اصول فنّ الخطابة فراج

الكتاب رواجاً لم يكن في الحسبان حتى نفد طبعهُ منذ عدّة سنين والاشغال لم تسمح لنا باعادة النظر في مضامينهِ لإصلاحها وتحسين ابوابها . حتى استعنّا بالله سنة ١٩١٣ واجهدنا النفس في هذا العمل لخير المدارس التي كانت تلحُّ علينا تترى بانجازهِ فتمّ بحولهِ تعالى منقَّحاً مع عدَّة زيادات على الطبعة الاولى

وها نحن مطالَبون بتكرار تلك الطبعة ثالثةً لنفود الطبعة الثانية . فلم نتأخر ولنا الأَمل انّ الطلبة يتلقّوها بالاستحسان ويتّخذونها قاعدةً لاتقان فنّ الخطابة الذي اصبح اليوم بعد تأليف المجالس النيابيّة والشورويّة من اكبر الوسائل لتوطيد الواجبات والحقوق وللدفاع عن حياض الآداب العمومية وحاجات الوطن العزيز

وفي الختام نكرّر شكرنا لكلّ من ساعدنا في هذا العمل إمّا بمشورتهِ وإمّا باصلاحات ما وجدهُ فيهِ من الخلل

كتاب

علم الادب

في

علمَي الخطابة والشعر

قال الرئيس ابن سينا : انَّ الحكماء قد ادخلوا الخطابة والشعر في اقسام المنطق لأنَّ المقصود من المنطق ان يوصل الى التصديق. فان أوقع التصديقَ يقيناً فهو البرهان (والبحث عنهُ في القياس والجدل وآداب البحث) . وان أَوقع ظناً او محمولاً على التصديق فهو الخطابة . امَّا الشعر فلا يوقع تصديقاً لكنهُ لإفادة التخييل الجاري مجرى التصديق ومن حيث انهُ يؤثّر في النفس بسطاً او قبضاً عُدَّ في الموصل الى التصديق

﴿ فوائد ﴾ فائدة أُولى . حدَّ ابن سينا التصديق في كتابهِ الشفاء بقولهِ : التصديق إذعان لقَبُول الشيء على ما قيل فيهِ. وحدَّ التَّخييل : إذعان للتعجُّب والالتذاذ بنفس القول المُخيِّل . وزاد انَّ هذا التخييل تفعلهُ صورة الكلام. اما المُخيِّل فقد عرَّفهُ قائلًا انهُ الكلام الذي تذعن

لهُ النفس فتنبسط عن امرٍ او تنقبض عن امر من غير رويَّة وفكر واختيار وبالجملة تنفعل منهُ انفعالًا نفسانيًا غير فكريّ ٍ سواء كان القول مُصدَّقاً بهِ او غير مُصَدَّقٍ بهِ

فائدة ثانية . قال ابن سينا في الفرق بين الشعر والخطابة : انَّ الشعر يقال للتعجُّب وحدَهُ . او يقال للاغراض المدنيَّة اي في احد اجناس الامور الثلثة اعني التثبيتيّة (في المدح او الذمّ) والمشوريَّة (في النفع او الضرّ) والمشاجريَّة (في العدل او الجور) . وتشترك الخطابة والشعر في هذهِ الاغراض . لكنَّ الخطابة تستعمل التصديق والشعر يستعمل التخييل

فائدة ثالثة . قول ابن سينا انَّ الخطابة توقع التصديق ظنًّا فلأنَّها كثيرًا ما تتعرَّض لترجيح احد امرين على حسب مقتضى الاحوال كتقديم الحرب على السلم او السلم على الحرب الى غير ذلك من فنون الكلام كما سترى . غير انَّها في مواطن كثيرة توقع التصديق يقيناً لكنها تراعي حسن الكلام وتمتاز بذلك عن المنطق

القسم الاوّل

في علم الخطابة

مقدمة

في حقيقة الخطابة وتقسيمها ومرتبتها

س ما هي الخطابة ؟

ج الخطابة في اللغة كالخطاب وهي الكلام النفسي الموجَّه بهِ نحو الغير للإفهام (١ . وفي اصطلاح الحكماء هي صناعة تتكلَّف الاقناع الممكن في كل مقولة من المقولات (٢

س ما معنى قولك انَّ الخطابة صناعة ؟

ج اي انَّها مجموع قوانين متعلّقة بكيفية العمل فترشد الانسان الى طرائق الإقناع وتتولّى ترغيب الجمهور وحملهم على المُراد منهم

س لماذا قلت انَّ الخطابة تتكلّف الإقناع الممكن ؟

١) كليّات ابي البقاء ٢) تلخيص خطابة ارسطو

To: www.al-mostafa.com

ج لأنّها تتحرّى في كل مسألة ما يفيد الاقناع وان لم تتمكَّن دائماً من ادراك غايتها لأَسباب

(فائدة) . انَّ شأن الخطابة كشأن باقي الصناعات التي تُعدُّ النفس لعمل خاصّ بموجب قوانين محدودة وإن لم تبلغ تلك الصناعات غايتها في بعض الاحيان لأَسباب . كالطب الذي غايتهُ الشفاء لانَّ اصولهُ ترشد الى معالجة الامراض فيبرئها ما لم تعترض دون فعلها العوارض

س ما المقصود من قولك « في كل مقولة من المقولات » ؟

ج المقصود منهُ انَّ الخطابة لا تختصّ كباقي الصناعات بمقولة من المقولات العشر وبجنس خاصّ لكنَّها تشمل كلّ المقولات وكل الاجناس فتتكلَّف الاقناع فيها جميعًا

(فائدة) . المقولات العشر هي الاقوال التي تعرّف الشيْ في ذاتهِ او احوالهِ وهي جوهر الشيْ وكميتهُ وكيفيتهُ ونسبتهُ الى غيرهِ وفعلهُ وانفعالهُ وزمانهُ ومكانهُ وهيئتهُ ووضعهُ . فالخطابة تعمُّها كلها بخلاف بقيَّة الصناعات التي تختصّ بواحد منها كالطبّ الذي ينظر في كيفيَّة بدن الانسان لمعالجتهِ وكالخطّ الذي ينظر في رسم الحروف وهيئتها وهلمّ جرًّا

(فائدة اخرى) . من تعريف الخطابة يتَّضح لك الفرق بينها وبين الفصاحة والبلاغة فان الفصاحة والبلاغة تمكنان الانسان من تركيب المفردات وحسن التعبير ليبرز ما يكنُّهُ الفؤَاد من المعاني والعواطف . امَّا الخطابة فتزيد على تلك القوَّة قوَّةً أُخرى بان تلقنَهُ طرق الاقناع وتمكّنهُ من استمالة الخواطر وتوجيهها الى امر من الامور فلا غنى لها عن قوانين تدرك بها هذه الغاية

س ما هو موضوع الخطابة ؟

ج ليس للخطابة كما روى ابن رشد نقلاً عن ارسطو (١ موضوعٌ خاصّ تبحث عنهُ بمعزلٍ عن غيرهِ فانّها لا تحيم عن النظر في كل العلوم والفنون ولا شيءٌ حقيراً كان او جليلاً معقولاً او محسوساً الّا يدخل تحت حكمها ويخضع لسلطان لسانها . ومن ثمّ يترتّب على الخطيب ان يكون لهُ إلمام بكل صنف من المعارف بل ينبغي لهُ ان يوسع ايضاً كل يوم نطاق مداركهِ

(شرح وايضاح) . كلّ قضيَّة او مسألة يمكن الحكم فيها تكون موضوعاً للخطابة سواء كانت تلك المسائل « عامَّة مطلقة » كتفضيل الشدَّة على اللين او اللين على الشدَّة في السياسة اجمالاً . او تكون «خاصَّة مقيّدة» بزمان او مكان او اشخاص كتفضيل الشدَّة في واقعة خاصَّة او ظروفٍ مقرّرة ومع شخص معلوم . وسواء كانت ايضاً « نظريَّة » كحبّ الوطن عموماً وسبب حدوث الفِتَن او «عمليَّة» كاتخاذ الوسائل لردّ كيد عدوٍ انتهك حرمة الاوطان او لاستدراك مضارّ الفتن المتوقَّعة . وتكون ايضاً تلك المسائل « جوهريَّةً اساسيَّة » عليها يدور محور الخطابة « او «عَرَضيَّة ثانويَّة » تتعلَّق بالاولى لا يُبحث فيها الَّا لاثبات القضيَّة الاوليَّة كالكلام في الحرب والسَلْم او في ظروف كليهما والوسائل لبلوغها . فالخطابة تشمل كلّ ذلك دون استثناء

١) راجع كتابهُ تعريب خطابة ارسطو (اطلب مقالات علم الادب الطبعة الثانية ج ٢ ص ٣–٨)

س ما هي غاية الخطابة ؟

ج غاية الخطابة ان تلتمس اقناع السامع في اي امرٍ كان (١

(فائدة) . هذا في موضوع الخطابة وغايتها على حسب معناها الاصليّ . امّا اذا اعتبرتَها في معناها الثانوي من حيث هي صناعة او مجموع قوانين فانّها تساعد الدارس على اكتساب قوّة الكلام وحسن الخطاب فموضوعها درس الاساليب الحريّة بالاقناع وغايتها الحصول على القوّة التي تمكّن منهُ

س ما هو الإقناع ؟

ج الإقناع حَمْل السامع على التسليم بصحّة مقال او على العمل بموجب امرٍ او تركهِ

س كم نوعاً الاقناع ؟

ج الاقناع نوعان منطقيّ وخطابي . فالمنطقي غايتهُ اذعان العقل لنتيجة مبنيّة على مقدّمات ثبتت لهُ صحّتها . كقولك انَّ العالم مُحدَث لأنَّ العالم مركّب وكلُّ مركّب مُحدَث امّا الخطابي فانّهُ يتوخّى اذعان العقل لصحّة المقول بأقيسةٍ مركّبة من المشهورات او المظنونات مع تحريك عواطف القلب اعجاباً بهِ واستمالة الارادة اليهِ حبّاً بهِ (١ كتعريفك للعِلم ومقامهِ وفوائدهِ وحضّ السامعين على تحصيلهِ

---

١) كتاب المنفعة لعبدالله بن الفضل الانطاكي

س. ما شرف الخطابة ؟

ج شرفها انّهـا تكمّل الذات البشريّة فتؤيّد صاحبها بالسلطة على تنفيذ غاياتهِ في عقول الجمهور فيدفعهم الى تحقيقها. قال ابن سينا في الشفاء: انَّ الخطيب يرشد السامع الى ما يحتاج اليـهِ من امور دينهِ ودنياهُ ويقيم لهُ مراسيمَ لتقويم عيشهِ والاستمداد الى معادهِ

س ما هي فوائد الخطابة ؟

ج فوائد الخطابة أكثر من ان تُحصى لأنّها تعرّف صاحبها طرق استعطاف الخواطر وتمكنهُ من مقاليد القلوب. بنبراسها تستضيء موارد الدليل وتتّضح مصادر البرهان لانفاذ كل امر جليل وادراك كل غاية نافعة. فضلًا عن انَّ قوانينهـا توقف الطالب على شُعَب السهو والمزلّة فيقوى عـلى دحض اقاويل المناظر وتزييف سفسطة المكابر

س ما اصل الخطابة ؟

ج اصلها النظر والاختبار وذلك انَّ بعض الناس حصلوا طبعاً على ملكة البلاغة فاقتدروا بها على حمل غيرهم الى مـا ارادوا منهم. فلحظ الامرَ غيرُهم ممَّن لم ينالوا ملكتهم وجعلوا

١) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي

يبحثون عن الطرق التي ادَّت بأولئك الخطباء بالغريزة الى انارة الاذهان واستعطاف القلوب فدوَّنوا نتيجة أبحاثهم وسمَّوها حتى جاء ارسطو الحكيم فضمَّ شارد هذا الفنّ وجمع شتاتهُ في كتاب ضمَّنهُ قواعد هذه الصناعة وسمَّاهُ الخطابة وهو الكتاب الذي عرَّبهُ بِشر بن متَّى في القرن العاشر للمسيح ولخَّصهُ ابن رشد واخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرهما كثيرين

س ما الطريقة لتحصيل الخطابة ؟

ج يُحصل عليها اوَّلًا بقوى النفس الغريزيَّة او الطبع وذلك هو الاساس. ثانياً بمعرفة الاصول التي وضعها الحكماء. ثالثاً بمطالعة تآليف البلغاء ومصاقيع الخطباء . رابعاً بالارتياض والاحتذاء بمشاهير ارباب الخطابة (راجع الجزء الاوَّل في اركان علم الادب ص ١٣)

س الى كم تُقسم قوانين الخطابة ؟

ج الى فصلين : اصولها وفنونها

الفصل الاول

في

اصول علم الخطابة

س كم هي اصول علم الخطابة

ج ثلاثة : الاوّل الايجـاد . الثاني التنسيق . الثالث التعبير

قال ابن المعتزّ والشيبانيّ : انَّ البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظةُ القلب في اعماق الفكر وتتأمل لوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب ومـا حضر (وهو الايجاد) . ثمَّ يعود القلب على ما أُعمل بهِ الفكر فيُحكم سياق المعاني والادلَّة ويُحسن تنضيدها (وهو التنسيق) . ثم يُبديهِ بالفاظ وشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها (وهو التعبير) . قال بعض الحكماء : العلوم الادبيَّة مطالعها من ثلاثة اوجه : قلب مفكّر . وبيان مصوّر . ولسان معبّر

الاصل الاول

الايجاد

س ما هو الايجاد ؟

ج الايجاد او الاختراع عبارة عن إعمال الفكر في استنباط الوسائل الحقيقة باقناع السامع واستمالة خاطرهِ وتحريك عواطفهِ

س على كم بحث مدار الايجاد ؟

ج على ثلاثة ابحاث : وضع الادلّة . ومراعاة الآداب الخطابية . ومعرفة الاهواء

وذلك انَّ غاية الخطيب في كلامهِ اوّلًا انارة الاذهان وحملُها على الإذعان وهو امرٌ لا يتمُّ الّا بالادلّة . ثانياً استعطاف الخواطر وذلك ممَّا يترتَّب على مُداراة الاخلاق ورِعية الآداب ومراقبة الاحوال من زمان ومكان واشخاص . ثالثاً استمالة ارادة السامعين الى ما يُطلب منهم بإثارة عواطفهم . وهو يقوم بمعرفة الاهواء وطُرُق تهييجها او تسكينها

الباب الاوّل

في الادلة

س ما هو الدليل ؟

ج الدليل في اللغة المرشد . وفي اصطلاح الحكماء هو

الذي يلزَمُ من العلم بهِ علمٌ بشيءٍ آخر (١ . اي ما يُتوصّل بهِ الى بيان صحَّة الشيءِ ايجابًا او نفياً . كما لو علمتَ بانّ كلَّ فضيلة محبوبةٌ لزم من ذلك كون العدل محبوباً لدخول العدل في سلك الفضائل .

س كم نوعاً الدليل ؟

ج الدليل امَّا الزامي او قَطْعي وامَّا ظنّي . فالالزامي هو الموجب للتصديق اليقيني ويُدعى برهاناً . كقول ابن العبري مثبتاً استحالة وجود إلهين :

لو كان إلهان لأمكن انَّ واحدًا يريد ان تصير البريَّة والآخر لم يشأ ذلك او كلاهما يتَّفق في الارادة جميعًا او تكمل فقط ارادةُ احدهما خصوصاً ولا تكمل ارادة الآخر . والقول الاوَّل مُحال اذ يكون في ارادتها تضادٌ فينفي الواحد ما اثبت الآخر . والثاني ايضاً مُحال لأنَّ ارادة الواحد مقيَّدةٌ بارادة الآخر . والثالث باطل ايضاً لأنَّ الذي بطلت ارادتهُ ليس هو إلهًا . وامَّا الآخر فيكون هو وحدهُ الإله وليس إلهًا سواهُ

وامَّا الدليل الظنّيّ فهو ما كان محمولًا على الظنّ والترجيح فقط ويغلب عليه اسم الحجَّة . كقول العرب : المُقرّ بالجريرة مُستحقٌّ للغفيرة

فهذا الدليل ظنّيٌّ لأنَّ الاقرار بالذنب كثيرًا ما يصحبهُ الأسف على العجز عن سوء العمل دون قصدٍ على اتّقائهِ واقرارٌ كهذا لا يستحقّ غفيرةً . ومثلهُ قول ارسطو للاسكندر :

انَّ الناس اذا قدروا ان يقولوا قدروا ان يفعلوا فاحترس من ان يقولوا تسلم من ان يفعلوا

١) اطلب تعريفات الجرجاني

ففي هذا القول حجّتان محمولتان على الامور الظنيَّة الجارية غالباً : الاولى انَّ القادر على القول ربَّما كان عاجزاً عن الفعل . والثانية ان السلامة من اقوال الناس لا تُنجي دائماً من افعالهم

(فائدة) . اعلم انَّ الخطيب لا يمكنهُ دائماً اثبات مقالهِ بالبراهين القطعيّة وان فعل لا يعرضها بالطريقة المنطقيَّة المجردة لكنهُ يزين تلك الادلة بمحاسن الكلام الذي يأخذ بمجامع القلوب . وكثيراً ما يتوخّى الحجج الشبيهة بالقطعيَّة لاسيما في الادبيَّات والامور القضائيَّة والمشاجرات

س أنّى تُؤْخذ أدلَّة الخطابة ؟

ج تُؤْخذ من التأمّل في موضوع البحث ومن النظر في احواله . فتسهيلًا لاستخراج هذه الادلّة قد وضعوا جدولًا لما يمكن استعمالهُ منها واطلقوا عليه اسم المواضع

(فائدة) . قال ابن سينا : انَّ الحجج في الجدل والخطابة تُكتسب من المواضع . فمن طلب الاقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل من الموجود بل لنقصان في الاستعداد

س ما هي المواضع (١ ؟

ج المواضع ضروبٌ من الادلّة العامّة التي يمكن الخطيب استعمالها في كل مقام لاثبات قوله . مثالهُ موضع التحديد فانّهُ موضعٌ خطابي يحتاج اليهِ الخطيب في تعريف كل امر يريد اثباتهُ . وكذا يُقال عن الظروف وبقية المواضع كما سيأتي

١) هذه اللفظة قد نقلها العرب عن اليونان (τοπικά) يريدون بها مصادر الادلة

س كم قسماً المواضع ؟

ج المواضع قسمان : ذاتيَّة وعرضيَّة . فالذاتية تستفاد من نفس الموضوع والعرضية من مصادر خارجة عنهُ . فمثال المواضع الذاتيَّة ان تحضّ على طلب العلم لشرفهِ وفوائدهِ فتنعتهُ بحياة القلوب ومصباح الأَبصار وتثبت انهُ دليل الرشاد والطريق الى المعاد وتشبههُ بكنزٍ لا ينفد وبسراج لا يُطفأ وحلّة لا تَبلى الى غير ذلك من الاوصاف التي تعرّف العلم في ذاتهِ او غايتهِ او منافعهِ

ومثال المواضع العرضيَّة انّ ترغّب في العلم بامثال الامم القديمة واعتبارها للمعارف وان تشهد باقاويل بعض الحكماء او الكتب المنزلة التي عظَّمت العلم وخذلت الجهل

س كم عملاً للمواضع في الخطابة ؟

ج للمواضع عملان : الاوّل وهو الاصليّ إثباتُ الخطيب لمقاله بالبرهان . والثاني توسيع المعاني بحسن البيان

البحث الاوَّل

في المواضع الجدليَّة الذاتيَّة

س كم هي المواضع الجدليَّة الذاتيَّة ؟

ج ثمانية وتُقسم الى ثلاثة اقسام فمنها ما يبين الموضوع في نفسه وهي : الحدّ . والتجزئة . ومنها ما يبيّنه في متعلّقاته وهي : العلّة والمعلول . والمقدّمات والتوالي . والظروف .

ومنها ما يبيّنهُ بعَرْضه على سواه وذلك في المقـابلة والمشابهة (اطلب الجزء الاوَّل ص ١٠٣—١١٨)

١ الحدّ

س ما هو الحدّ ؟

ج الحدّ في اللغة المنع . وفي الاصطـلاح هو قول دالّ على ماهيَّة الشيْ (١ . وقيل في تحديدهِ انهُ القول الجامع المانع اي تعريف الشيْ بما يحيط بمعنـاهُ ويميزهُ عن كل مـا سواه كقولك في تحديد الله عزَّ وجلّ انهُ الكائن القائم بذاتهِ (اطلب الجزء الاوَّل ص ١٠٤)

س كم نوعاً الحدّ ؟

ج الحدّ نوعان حقيقي ورسمي

س ما هو الحدّ الحقيقي ؟

ج الحدّ الحقيقي ويُدعى ايضاً المنطقي هو عبـارة عن تعريف الشيْ بجنسهِ وفصله القريبَين (٢ كقولك في الانسان انهُ « حيوان ناطق » . فالحيوان جنسٌ ينطوي تحتهُ الانسان والبهيمة . والناطق فصل يميّز نوع الانسان عن نوع البهيمة . والجنس والفصل قريبان اذ ليس بينهما والانسان جنس وفصلٌ آخران كما لو قلت انَّ الانسان جسمٌ حي لانَّ

١) تحديدات ابن سينا
٢) تعريفات الجرجاني وكشَّاف التهانوي

الجسم يتناول جنس الحيوان وجنس الجماد . والحي يتناول فصل الحيوان وفصل النبات

(فائدة) . ان هذا التعريف الحقيقي اكثر استعمالـهِ في المنطق وقلّما يُستعمل في الخطابة

س ما هو الحدّ الرسمي

ج الحدّ الرسميّ هو تعريف الشيء بأوصافٍ تميزهُ عمّا سواه . ولذلك يدعونهُ ايضاً بالقول الشارح كقول بعض القدماء في تعريف الانسان :

ليس لله تعالى خلق احسن من الانسان . فان الله تعالى ابدعهُ في احسن تقويم وهو اعتدالهُ وتسوية اعضائهِ . لانهُ خلق كل شيء منكبّاً على وجههِ وخلق الانسان سويّاً . ولهُ لسان ذلق ينطق بهِ ويد واصابع يقبض بها . فهو اعدل الحيوان مزاجاً واكملهُ فمالًا والطفهُ حسّاً وأنفذهُ رأياً . مؤدّب بالامر مهذّب بالتمييز . فهو كالملك المسلّط القاهر لسائر الخليقة والآمر لها . وذلك بما وهبهُ الله من العقل الذي بهِ يتميّز عن كل الحيوان البهيميّ . فان الله كوّنهُ حيّاً عالمًا قادرًا متكلّماً سميعاً بصيرًا مدبّرًا حكيماً وهذه صفات الربّ جلّ وعلا . فالانسان هو بالحقيقة ملك العالم ولذلك سماه قوم من الاقدمين العالم الاصغر

س ما هي اساليب الحدّ الرسمي ؟

ج اساليبهُ متعدّدة . فيُعرَّف المحدود اوّلًا بفاعيلهِ ومعاولاتهِ كقول احد الأُدباء في حدّ العقل :

العقل وزير يرشد وظهير يُسعد . من اطاعهُ نجّاهُ ومن عصاهُ ارداهُ . ان انكسر صاحبهُ جبرهُ وان انصرع انعشهُ . وان ذلّ اعزّهُ وان خاف امّنهُ . وان حزن افرحهُ وان تكلّم صدقهُ . وان اقام بين ظهراني قوم اغتبطوا بهِ وان غاب عنهم اسفوا عليهِ . وان بسط يدهُ قالوا : جوّاد . وان قبضها قالوا : مقتصد

وثانياً بتعداد اقسامهِ وبيان انواعهِ كقول الحكيم في تعريف الاخوان :

الاخوان ثلاثة : أخٌ يُخلص لك ودَّهُ . ويبذل لك رفدهُ . ويستفرغ في مُهِمّك جُهْدَهُ . واخٌ ذو نيَّة يَقتصر بك على حُسْن نيَّتهِ دون رفدهِ ومعونتهِ . واخٌ يتملَّق لك بلسانهِ ويتشاغل عنك بشأنهِ ويُوسعك من كذبهِ وأيمانهِ

وكقول الحسن بن عبدالله في تعريف الشاهين بوصف اقسام جسمه :

الشاهين طائر من الجوارح اجودهُ اسود الظهر غائر العينين حادّ النظر قصير الظهر طويل القوادم لطيف الذنب دقيقهُ بسيط الكفّ

وثالثاً بالكشف عن خواصّ الشيء او تعريف ظروفهِ كقول ابن عمرو بن الشهيد في البعوضة :

البعوضة مالكة لا حسَّ لها سواها . تحقرها عين من رآها . تمشي الى الملك بندبها . وتضرب في بحبوحة داره بطبلها . تؤذيهِ بإقبالها . وتعرّفهُ باراقة دمهِ ما لها . فتُعجز كفَّهُ وترغم انفهُ وتضرّج خدَّهُ تفري لحمهُ . زَمجرُتها تسليمُها . ورمحها خرطومها . تُذلّل صعبك ان كنت ذا قوَّة وعزمٍ . وتسفك دمك ان كنت ذا حلقةٍ وعسكرٍ ضخم . تنقض العزائم وهي منقوضة . وتُعجز القويَّ وهي بعوضة . ليرينا الله عجائب قدرته . وضعفنا عن ضعف خليقتهِ

وكقول الآخر في تعريف الصداقة :

انَّ الصداقة أولاها السلامُ ومن بَعْدِ السلام طعامٌ ثمَّ ترحيبُ
وبعد ذاك كلامٌ في ملاطفةٍ وضَحكُ ثَغْرٍ واحسانٌ ونقريبُ

ورابعاً بالسَّلب والايجاب وذلك ان تنفي عن المحدود ما لا يوافقهُ وتثبت بعد هذا النفي حقيقتهُ كقول ابن الورديّ :

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً انّما من يتّقي الله البطلْ

وكقول الآخر :

وليس اخوك الدائمُ العهدِ بالذي يذمُّك ان ولّى ويُرضيك مُقبلا
ولكن اخوك النائي ما دمتَ آمناً وصاحبُك الأدنى اذا الامرُ أعضلا .

وخامساً بالتشابيه والامثال والاستعارات كقول ابن العربيّ في تحديد الكتاب :

الكتاب بستانٌ يُحمَل في ردنٍ وروضة تُنقَل في حِجرٍ ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء هو مسامرٌ مساعد ومحدّث مطاوع ونديم صديق .

كتابي فيهِ بستاني وراحي ومنهُ سميرُ نفسي والنديمُ
يُسالمني وكلُّ الناس حربٌ ويُسليني اذا عرَت الهمومُ
ويُحيي لي تصفُّحُ صفحتيهِ كرامَ الناس ان فُقِدَ الكريمُ
اذا اعوجّت عليَّ طريق امري فلي فيهِ طريق مستقيمُ

اطلب ايضاً تعريف الدنيا بالتشابيه لاحد الادباء في مجاني الادب (ج ٢ ص ١٨) وراجع الجزء الاوّل من علم الادب (ص ١٠٤)

س ما هي مواطن الاستدلال بالحدّ ؟

ج يُستدَلُّ بالحدّ كلّما احتاج الخطيب الى اثبات قضيّة انكرها الخَصم او الى ايضاح حقيقية اشكلت على السامعين او الى تقرير امر في اذهانهم بتعريف خواصهِ وبيان صفاتهِ . وذلك باحدى الطرق المذكورة سابقاً

(تنبيه) من شأن الخطيب اذا اراد تعريف الشيء ان يختار من اوصافهِ ما يلائم غرضهُ ويوافق مقتضى الحال . فان اراد مثلًا ان ينكّب سامعيهِ عن حرب مشئومة وصف الحربَ بآفاتها وبما تجلبهُ من الشرور على الاوطان والاهلين . وبالعكس اذا اراد ان يسوقهم اليها عرّفها بما يرغّبهم

في مباشرتها كقولهِ بانها مدرسة الشجاعة ومظهرة التفاني والسبيل الوحيد الى قهر العدوّ والدفاع عن حوزة الوطن ... الخ

ولك شواهد حسنة على ذلك في باب المناظرات في الجزءين الخامس (ص ٩١) والسادس (ص ٦٣) من مجاني الادب وفي الفنّ الثالث من فنون الانشاء من الجزء الاوَّل من علم الادب (ص ٢٤٠) فهناك عدَّة امثال في تعريف امور متباينة بحسناتها وسيّئاتها كالسيف والقلم . والغربة والاقامة . والبرّ والبحر (اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٠)

٢ التجزئة

س ما التجزئة ؟

ج التجزئة تقسيم احد الكلّيات الى اجزائهِ . ويُحَدّ الكلّي ما جمع في حكمهِ اجزاء شتَّى (١ كالاجسام مثلًا تُقسم الى جماد ونبات وحيوان . وكالحياة تقسم الى طفوليَّة وشبيبة وكهولة وشيخوخة وكقول بعضهم :

العلوم اربعة : الفقه للاديان . والطبّ للابدان . والنجوم للازمان . والبلاغة للّسان

(راجع في الجزء الاوَّل (ص ١٠٦) ما قيل عن البيان بالتجزئة

س كيف يُقنع الخطيب بالتجزئة ؟

ج يُقنع اوَّلًا بان يثبت للكلّي ما قرَّرهُ لاجزائهِ كقول ابي العتاهية وهو يثبت انَّ الموت يعُمّ البشر ولا يردّ غاراتهِ احدٌ :

ما يدفع الموت ارجاءٌ ولا حرَسُ ما يغلبُ الموت لا جنٌّ ولا انَسُ

(١ اطلب رسالة الحدّ لابن سينا وتعريفات الجرجاني

ما ان دعا الموتُ املاكًا ولا سوقًا   إلّا تناهم اليهِ الصرعُ والخَلَسُ
للموت ما تَلِدُ الاقوامُ كلهمُ   وللبلى كلُّ ما بنوا وما غرسوا

ثانياً بان ينفي عن الكلّي ما نفاهُ عن الاجزاء كما لو اراد ان ينفي السعادة عموماً في الدنيا قسم مجموع الاشياء التي تفتن قلوب البشر اي المال والجاه واللذّات فنفى وجود السعادة في كل منها واستنتج انَّ لا سعادة في الدنيا البتَّة

ومثلهُ قول القديس بولس اذ انكر وجود شيءٍ من امور العالم يستطيع ان يفصل الرّجل البارّ عن محبَّة الله (رومية ٨: ٣٥):

من يفصلنا عن محبة الله أشدَّة ام ضيق ام جوع ام عُرْي ام خَطَر ام اضطهاد ام سيف . . . فاني لواثق بانهُ لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوَّات ولا اشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علوّ ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله

ثالثاً بان يقرّر لواحد او اكثر ما انكرهُ لبقيَّة اجزاء الكلّ.

مثالهُ ان تثبت لزيد جناية القتل بعد ان نفيتها عن غيرهِ من المتَّهمين بها

رابعاً بان يقرّر لاجزاء الكلّ ما نفاهُ عن واحد او اكثر

كما لو بيَّنت انَّ خطيئة آدم شملت كل نسلهِ مطلقاً الّا البتول العذراء

وكقول سليمان النبيّ في سفر الجامعة انَّ كل شيءٍ باطل ما خلا خدمة الله فعدَّد كل اصناف الملذَّات وبيَّن بطلانها مستثنياً خدمة الله فقال:

باطل الاباطيل كل شيءٍ باطل . . . اتّقِ الله واحفظ وصاياه فان هذا هو الانسان كلّه

ومثلهُ قول لبيد:

آلا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ   وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٧)

(افادة) . ربما اعتاص على الخطيب ان يستوفي كل اقسام الجزئي فيكفيهِ وقتئذٍ ذكر اهمّ الاجزاء التي عليها يُقاس الباقي منها

(افادة اخرى) اعلم انَّ الخطيب كثيرًا ما يقصد من التجزئة توسيع المعاني وحسن البيان والزيادة في الايضاح

٣ الجنس والنوع

س ما هو الجنس وما النوع ؟

ج الجنس كلّي يدلُّ على كثرة مختلفين بالانواع. والنوع كلّي يدلُّ على كثرة مختلفين بالاشخاص (١ . مثالهُ الحيّ فانَّهُ جنسٌ يدل على ثلاثة انواع اي النبات والحيوان والانسان . ويطلق عليها بمعنى واحد من حيث مبدأ حياتها . اما الانواع الثلاثة فانَّ بعضها يختلف عن بعض بحقيقتهِ وانَّما يدخل تحت حكم كل منها افراد وضروب متعددة مشتركة بحقائقها . فانَّ اشكال النبات مثلًا على كثرتها لا تختلف في الماهية فالاشجار والبقول والمزروعات كلها اجسام حيَّة نامية . وكذا ضروب البهائم من مواشي وسباع واسماك وطيور كلّها اجسام حيَّة نامية ذات حسٍ وحركة لكنها تختلف نوعاً عن النبات بحسّها . ومثالهُ قل عن الانسان الذي يُطلق على اشخاص متعددين لكن ماهيتهم واحدة فكل منهم جسم حيّ نامٍ ذو حسّ وحركة ناطق

(فائدة) هذا التعريف للجنس والنوع جاء في اصطلاح الفلاسفة الّا انَّ الخطباء يطلقون اسم الجنس على الامر العام سواء كان جنساً عند الفلاسفة او نوعاً فيقولون مثلًا ان الحرّ والعبد نوعان يشتركان في جنس

---

١) تعريفات الجرجاني

الانسانيَّة . وانَّ العدل والقناعة والمروءة تنطوي تحت جنس الفضيلة . مثال ذلك قول الخوارزمي يصف المحسنين اجمالًا كالجنس العام ثم ينتقل الى صنائع ابي نصر الميكالي شاكرًا لهُ نعمهُ كالنوع الخاص :

المحسن الى الناس كلهم حبيبٌ . ومن القلوب كلّها قريبٌ . يمدحونهُ وان لم يكن يحسن اليهم . ويشكرونهُ وان لم يفضل عليهم . كما ان المسيءُ في النفوس صغير . وان كثر مالًا وحالًا . وقبيح وان حسُن زينًا وجمالًا . على هذا أُسّست البنية . وعليهِ وُضعت الفطرة . وفيهِ اتَّفقت الخاصَّة والعامّة . . . والشيخ على سبيل الكرام نَهَج . وعلى منوالهم نسج . فصنائعهُ في قوالب الحمد والشكر . وعلى طريق الاجر والذخر . بلغني ما صنعهُ الشيخ مع فلان فما استكثرتهُ قياسًا على قدرهِ العظيم . وبرِّهِ الجسيم

س كم طريقة للاستدلال بالجنس والنوع في الخطابة ؟

ج لذلك طريقتان :

الاولى ان تُطلق حكمًا على الجنس ثمَّ تثبتهُ للنوع كما لو اردت ان تبين انَّ القناعة محمودة فأثبتْ كون الفضيلة محمودة لان الفضيلة جنس يشمل نوع القناعة . ومثلهُ قول ابن خلدون يصف فوائد العلوم العقليَّة اجمالًا ثم علم المنطق خصوصاً

ان العلوم العقليَّة كثيرة الفوائد بها يقف الانسان على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ويقتنص المطالب المجهولة ويستخرج المباحث الشريفة . ومن أجلّ هذه العلوم واجدرها بالدراية علم المنطق وهو يعصم عن الخطإِ ويبيّن الصحيح من الفاسد في الحدود المعرِّفة للماهيَّات والحجج المفيدة للتصديقات . وهو اول العلوم الحكمية وفاتحتها وسُمي المعلّم الاول

الثانية ان تنفي عن النوع ما تنفيهِ عن الجنس كقول ابي العتاهية وقد بيَّن كدورة العيش مجملًا ثمَّ مفصلًا :

ما رأيتُ العيش يصفو لأحدْ دون كدّ وعناء ونكدْ

ان للموت لسهماً قاتلًا ليس يَفدي احدًا منهُ احدْ
قد أرى ان لستُ في الدنيا ولو بَقِيَتْ لي دائمًا طول الامدْ
اني منهـا غدًا مرتحـلٌ او أراني راحلًا من بعد غدْ

س في اي قسم من الخطبة يُذكر الجنس والنوع ؟

ج قال ابن سينا : جملة ما يقال في ذلك ان الخطباء قد اعتادوا ان يأتوا في صدر خطبهم بنظر عام في مقصدهم تأسيساً لما يأتون في خطابهم. لان كل خطاب لا بُدَّ لهُ من فَرْش يكون لهُ بمنزلة الاساس من البنيان كرثاء الاندلس لابن البقاء الرندي (المجاني الخامس ص٢٤٥—٢٥٧) فانهُ باشر بذكر بلايا الدهر ونكباتهِ ثم انتقل الى وصف الخطب الذي حلَّ بالاندلس :

لكلّ شيء اذا ما تمَّ نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش انسانُ . . .
وللحوادث سلوانٌ يسهّلها وما لِما حلَّ بالاسلامِ سلوانُ . . .

ومثلهُ قول ابن اذينة يغري ملك الحيرة على قتل بني غسان (المجاني السادس ص ٣٩) فانهُ بيَّن عموماً وجوب انتهاز الفرص ثم انتقل الى تحريض الملك على قتل الاسرى الذين دفعتهم الحرب الى يدهِ

(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٦)

(فائدة) اعلم انَّ ما قلناه آنفاً عن الجنس والنوع يصح قولهُ ايضاً في النوع وافراده كما لو حاولت ان تنفي دوام السعادة عن انسان خاصّ فانفِها عن الجنس البشري عموماً تنفِها بالفعل عن ذاك الانسان . ومن ثم يجوز القول انَّ طريقة الاستدلال بالجنس والنوع مرجعها الى الاستدلال بالعامّ والخاصّ او الكلّي والجزئي . الَّا انك في التجزئة تبتدي باثبات الحكم للجزئي ثم تثبتهُ للكلّي كقولك زيد وعمرو وابراهيم . . . الخ

ماتوا فالكل يموتون . امَّا الاستدلال بالجنس والنوع فعلى خلاف ذلك يُقرر الحكم للكلّي فيستنتج وجوبهُ على الجزئي . وهذه الطريقة كثيرة الاستعمال في الخطابة

ولك على ذلك شاهد جليل في رسالة القديس بولس الى العبرانيين (الفصل ١١) فانهُ بعد قولهِ انَّ الابرار يحيون بالايمان وان الانسان دون الايمان لا يستطيع ان يرضي الله تتبَّع سلسلة الاباء والانبياء فردًا فردًا واثبت فيهم حياة الايمان والحظوة بها لدى الله

(فائدة اخرى) وهناك طريقة اخرى في استعمال الجنس والنوع او بالحري العامّ والخاصّ . وهي ان تبدأ بذكر الخاص واثبات الحكم عليهِ ثم تتوسع في الكلام فتثبت الحكم نفسهُ للعام. مثال ذلك انَّك مدحت شاعرًا لبلاغتهِ وحسن وقع كلامهِ في النفوس وباقي مزاياه الشعريَّة فاذا توسَّعت في الكلام ومدحت الشعر عموماً انتقلت من الخاصّ الى العامّ . وكذلك اذا شكرت الباريْ تعالى على منة خصوصيَّة نلتها من مراحمهِ ثم ارتفعت وشكرتهُ على جودهِ الغير المتناهي انتقلت من الخاص الى العام . على ان هذه الطريقة لا تُعدّ كطريقة استدلال اي كوسيلة لاقامة البرهان على صحَّة امر انما هي اسلوب للتوسيع وضرب من التصرف في نظم الكلام يجديهِ حسناً مفيدًا لبلوغ المرام

٤ العلَّة والمعلول

س ما العلَّة والمعلول ؟

ج العلَّة ما يحتاج اليهِ الشيْ في وجودهِ . والمعلول ما صدر عن العلَّة كالشعاع بالنسبة الى الشمس فانهُ المعلول وهي العلَّة

س كم نوعاً العلّة ؟

ج العلّة على اربعة انواع : ١ً العلّة الفاعليَّة وهي المؤثّرة في المعلول الموجدة لهُ كالبنَّاء بالنسبة الى الدار . ٢ً العلّة الغائيَّة وهي ما كان لاجلها المعلول كسُكنى الدار هي الغاية من تشييدها ٣ً العلّة المادّيّة وهي ما تألّفت منهُ اجزاء الشيء كالحجارة والخشب في بناء الدار . ٤ً العلّة الصوريّة وهي ما قامت بهِ ماهيَّة الشيء كصورة الدار المميزة لها عن سواها من المساكن كالقصر والخان والكوخ والخيمة

(اطلب الجزء الاول من علم الادب ص ١٠٧—١١٠)

س هل لبيان العلل موقعٌ في الخطابة ؟

ج نعم لبيان العلل وقعٌ عظيم في الخطابة لانَّ الاقناع يتوقّف عليها في الغالب . والسامع لا يرضى بقول الخطيب ما لم يسند مقالهُ الى العلل المؤيّدة لدعواهُ

س اورد مثلاً عن كل علّة من هذه العلل ؟

ج ١ً العلة الفاعليَّة تجد امثلة عنها غاية في الحسن في مزامير داود الاربعة (١٠٣—١٠٦) حيث عدَّد النبي عجائب الله في الطبيعة وتتبع صنائعهُ نحو شعبه اسرائيل مستنتجاً من ذلك وجوب عبادة الانسان لخالقهِ وشكر اسرائيل لربّهِ

ومن ذلك قول الشيخ زكريّا بن عديّ يبيّن فيهِ انَّ القوّة الشهوانية

هي علّة اعمال الانسان فتسوقهُ الى الخير او الشرّ على مقتضى تهذيبها

ان العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذّاتهم وعفّة بعضهم وفجور بعضهم هو اختلاف احوال القوة الشهوانية . فانها اذا كانت مهذّبة مؤدّبة كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسهِ . واذا كانت مُهملة مالكة لصاحبها كان فاجراً شرّيراً . واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفّة كرتبتهِ في التأدب . ولهذا وجب على الانسان ان يقهر قوتهُ الشهوانية ويهذّبها حتى تصير منقادة لهُ ويكون هو مالكها فيستعملها بالتأدب ويكفّها عمّا لا حاجة بهِ اليهِ من الشهوات الرديئة والملذّات الفاحشة

٢ً العلّة الغائيّة . قال الشيخ جمال الدين الافغاني مبيناً وجوب العدول عن مذهب الدهريين لما يقصدونهُ من الغايات السيئة :

هؤلاء جحدة الألوهية — في أيّ امة وبأيّ لون ظهروا — كانوا يسعون ولا يزالون يسعون لقلع اساس قصر السعادة الانسانيّة . اعاصير افكارهم تُدكدك هذا البناء الرفيع وتلقي بهذا النوع الضعيف الى عَرَاء الشقاء وتهبط بهِ من عرش المدنية الانسانية الى ارض الوحشية الحيوانيّة . . . ذهبوا الى انهُ لا حياة للانسان بعد هذه الحياة وانهُ لا يختلف عن النباتات الارضية تنبت في الربيع مثلًا وتيبس في الصيف ثم تعود تراباً والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظهُ من الشهوات البهيمية . وبهذا الراي الفاسد اطلقوا النفوس من قيد التأثُّم ودفعوها الى انواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرضٍ ويسَّروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع في كل رذيلة واعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري واعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعرُّف اسرار الطبيعة

٣ً العلّة الصوريّة . مثالها قول الشيخ يحيي بن عديّ حيث اثبت انَّ ما يمتاز بهِ الانسان عن سواه انما هو عقلهُ وقوتهُ الناطقة ليستنتج من ذلك انهُ يُقضى على المرء الاهتمام بهِ ومراعاته

هذه القوة الناطقة التي بها يتميز الانسان عن جميع الحيوان وهي التي يكون بها الفكر والذكر والتمييز والفهم والتي بها شُرف الانسان وعظمت همتهُ فيُعجب بنفسهِ . والتي بها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح وبها يمكنهُ ان يهذّب قوّتيهِ

الباقيتين اعني الشهوانية والغضبية ويضبطها ويكفّها . وبها يفتكر في عواقب الامر فيبادر الى استدراكها من اوائلها . فمن اجل ذلك وجب ان يُعمل الانسان فكرهُ ويهذّب عقلهُ ويميّز اخلاقهُ ويختار منها ما كان مستحسناً جميلًا وينكر ما كان مستنكرًا قبيحاً ويحمل نفسهُ على التشبُّه بالاخيار ويتجنَّب كل التجنُّب عادات الاشرار . فانَّهُ اذا فعل ذلك صار بالانسانيَّة متحققًا وللرئاسة الذاتيَّة مستحقًا

٤ً العلَّة المادّيَّة . وصف القزوينيّ جسم الانسان وتركيبهُ العجيب فاستنتج من ذلك الوجوب على البشر ان يعرفوا خالقهم ويشكروا صنيعهُ اليهم :

ان في بنية الانسان واختلاف اعضائهِ وتركيبها من العجائب ما تحيّر فيهِ عقول الاوَّلين والآخرين وقصَر عن ادراكها فهمُ الخلق اجمعين . فلكثرة ما فيها من العجائب قد قيل : ان مَن عرف نفسهُ فقد عرف ربّهُ . ومعناهُ انَّ من عرف ما في هذه البنية العجيبة والهيئة البديعة من اتقان صنعتها مع صِغر حجمها والجمع بين الاشياء المتضادَّة كروح سماويّ وبدن عُنصريّ وتأليف بين حارّ وبارد وياس . وكيف تتحرَّك من مبدأ واحد نحو غاية واحدة وكيف جُعلت الاعصاب والرباطات تنتهي من بعض العظام الى بعض لتربطها وتشدَّها . وجُعل الشرايينُ والأوردة جداولَ تحمل الغذاء الى سائر الاعضاء وتدفع الروح الحيَواني مع الدم الذيَ هو مادَّة غذائهِ كالزيت للمصباح الى سائر البدن . ثم كيف ينبسط الغشاء والجلد على سطح الاعضاء ويحويها كاللفائف ويصير لها حافظاً بحفظ جواهرها واشكالها عمَّا يطرأُ عليها . علِمَ الانسان بذلك انَّ لها خالقًا قادرًا عليها حكيماً وتنبَّه في ذاتهِ من آثار قدرة الله تعالى ولِطائف حكمتهِ فيعرف انعامهُ ويدعوهُ ذلك الى الشكر والثناء عليهِ

وان شئت مثلًا يجمع العلل الاربع تجده في الفصل السادس من نبوَّة باروك وفيهِ يبين النبي بطلان عبادة الاوثان بتفنُّن عجيب ليبعد بني اسرائيل عن الشِرْك . فأنكر عليها الأُلوهيَّة من حيث مادَّتها التي تتركب منها الاصنام ومن حيث صنَعَتها الذين نحتوها وصوَّروها ومن حيث خواصّها الباطلة التي ليست على شيءٍ من كمالات اللاهوت كالضعف والعتاقة

والجمود والصَّمَم ومن حيث غايات مصطنعيها اي الطمع والربح الخسيس من عبدَتها . الى ان ختم كلامهُ بقولهِ :

فاذ قد علمتم انّها ليست بآلهة فلا تخافوها فانها لا تلعن الملوك ولا تبارکهم ولا تبدي آياتٍ من الامم ولا في السماء ولا تنير كالشمس ولا تضيء كالقمر . الوحوش خيرٌ منها . . . وبالجملة فلا يتبيَّن لنا بوجه من الوجوه انها آلهة فلا تخافوها

س كيف يتمُّ الاستدلال بالمعلول ?

ج مرَّ بك انّ احدى الطرق المعهودة لتعريف الشيء ذكرُ مفاعيله لانَّ جواهر الامور خفيَّة وانَّما تظهر بمعلولاتها . فان اردت ان تثبت حكماً لامرٍ ما او تنفيهُ عنهُ فعدِّد مفاعيلهُ الحسنة او السيئة التي يُستدلّ منها على صلاح علّتها او فسادها اذ لا شيءَ في المعلولات الّا وهو في عللها ثم أَبْنِ حكمك على مقتضى ذلك لترغيب الجمهور فيها او لردّهِ عنها. كقول ابي الحليم ابن الحِدّيثي يحضُّ الناس على الصوم بذكر مفاعيلهِ المشكورة :

الصوم مفتاح السعادة ، الصوم مصباح العبادة ، الصوم مقداح الزَّهادة ، الصوم يُطهّر النفس . الصوم يزكّي الحسّ . الصوم يُظهر القُدس . الصوم يبعد الشرّ . الصوم ينفي الكبْر . الصوم يحسّن الذكر . الصوم يطفئُ شهوات الجسد . الصوم يُحلّل من الحقد العُقَد . الصوم يدحض الشرّ ويميت الحسَد . الصوم يعلي الرتبة في ملكوت السماء . . . الصوم نور التُّقى وعمار الزهادة . بالصوم تبلُغ النفس الإرادة . الصوم يشحذ اللبّ ويثبت العلم . الصوم يزكّي القلب ويطهّر الجسم . الصوم يصفّي الذهن ويزيد الفهم

وكذلك ارميا النبي (ف ٦٢) سعى بردِّ الشعب عن المهاجرة الى مصر بتعداد ما سيلقاهم هناك من اصناف الرزايا :

To: www.al-mostafa.com

هكذا قال ربُّ الجنود إله اسرائيل إنْ ثَبَّتُّم وجوهكم لتذهبوا الى مصر وذهبتم لتتغرَّبوا هناك فالسيف الذي تخافون منهُ يدرككم هناك في ارض مصر والجوع الذي تخشون منهُ يتعقّبكم هناك في مصر وهناك تموتون . وجميع الناس الذين ثبَّتوا وجوهم لينطلقوا الى مصر ويتغرّبوا هناك يموتون بالسيف والجوع والوباء ولا يبقى لهم شريد ولا مُفلت من الشرّ الذي أجلبهُ عليهم . . . فلا تنطلقوا الى مصر واعلموا يقيناً اني قد انذرتكم اليوم

(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٧)

٥ المقدّمات والتَّوالي

س ما هي المقدَّمات والتوالي ؟

ج المقدمات ما سبق المقصود والتوالي مـا عقبهُ ولحق بهِ . ولا بُدَّ لكليهما من علاقة لازمة مع المقصود

س ما الفرق بين المقدَّمات والتوالي وبين العلَّة والمعلول ؟

ج الفرق بينها انَّ علاقة العلة والمعـلول مع المقصود علاقة طبيعية واجبة. امَّا المقدَّمات والتوالي فانَّها تلزم المقصود لزوماً ادبياً صادرًا في الغالب عن اصطلاحات البشر وسُنَنهم المألوفة واخلاقهم المتغلّبة عليهم. ومن ثمَّ تكون العللُ مقدّماتٍ والمعلولاتُ توَالِيَ ولا تُعكس . مثالهُ التمييز في الانسان الذي يتبع سنّ الطفوليَّة فبينهما علاقة اللاحق بالسابق ليست علاقة المعلول بالعلَّة . ومثلهُ ما يرافق المهاجرة من ربح او خسران من نصيب صالح او حظّ مشئوم

س كيف يكون الاستدلال بالمقدَّمات والتوالي ؟

ج لمَّا كانت علاقة المقدَّمات بالتوالي علاقـةً لازمةً

امكنك اثبات المقصود بتعداد ما سبقهُ من المقدَّمات وما لحقهُ من التوالي فتُبيّن ما بينهُ وبينهما من الروابط . فان اردت مثلًا ان توجب السرقة على انسان امكنك ان تثبت ذلك بما تقدَّم العمل من استخفاء السارق وتجسُّسهِ المسروق ومن سوابق المتّهَم ومن اغتنائهِ بعد فقر وغير ذلك ممَّا يتقدَّم او يتلو جناية السرقة

ومن الامثلة الحسنة على ذلك خطبة بولس الرسول امام فيلكس الوالي يبرئ نفسهُ من تهمة اليهود بانتهاكهِ لحرمة هيكل اورشليم نافياً عنهُ بالسوابق واللواحق شكواهم عليهِ بتدنيس قداسة الهيكل (اعمال الرسل ف ٢٤) :

اجاب بولس بعد ان اومأ اليهِ (فيلكس) الوالي ان يتكلَّم : « بما اني اعلم انَّك قاضٍ لهذه الامَّة (اي اليهود) منذ سنين كثيرةً فبطيب خاطر أُجيب عن نفسي . انهُ يُمكنك ان تعلَم أن ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً منذ صعدتُ الى اورشليم للعبادة . ولم يجدوني في الهيكل أُفاوض احدًا ولا أُهيّج الجمع لا في المجامع ولا في المدينة . ولا يستطيعون ان يبرهنوا على ما يشكونني بهِ الآن . ولكنَّني اقرُّ لك أنّي بحسب الطريقة التي يسمُّونها شيعةً أَعبُد إله آبائي مؤمنًا بكل ما كُتِب في الناموس والانبياء . ومؤَمّلًا من الله ما ينتظرونهُ هم ايضاً انَّها سوف تكون قيامةٌ للاموات الابرار منهم والأَثمة . ولهذا أُدرّب نفسي ليكون لي دائمًا ضميرٌ لا عثار بهِ إمام الله والناس . وبعد سنين كثيرة جئتُ لاصنع صدقات لأُمَّتي وأُقدّم قرابين . فعلى هذا وجدني قومٌ من اليهود من آسية متطهرًا في الهيكل لا مع جمعٍ ولا في فتنةٍ . وكان يجب عليهم ان يحضروا لديك ويشكوا ان كان لهم عليَّ شيءٌ . او ليقُل هؤلاء ماذا وجدوا فيَّ من اثمٍ وأنا قائمٌ أمام المحفِل . سوى هذا القول وحدهُ الذي صِحتُ بهِ لمَّا وقفتُ بهم « إنّي على قيامة الاموات أُحاكَمُ منكم اليوم »

(تنبيه) كثيرًا ما يقيم الخطباء حججهم بالمقدَّمات والتوالي ويدمجونها بالعلل والمعلولات لاتّفاق البابين بالعلاقة مع القضيَّة

٦ الظروف

س ما هي الظروف ؟

ج هي العوارض الطارئة على الامر المقصود فتكيّفهُ بكيفيَّتها وتخرجهُ عن هيأتهِ ونوعهِ وان لم تكن من جوهرهِ وحقيقتهِ . مثال ذلك حادثُ قتلٍ فانهُ لم يتمّ الَّا في زمن ومكان محصورَين وبهيئة معلومة ولغاية محدودة وعن اشخاص معروفين . فالزمن والمكان والهيئة والغاية وصفات الاشخاص كلها ظروف خارجة عن الامر لا تمسُّ جوهرهُ لانها تتغير والقتل يبقى قتلًا . لكنها تغيّر صورتهُ وتخرجهُ من نوع الى نوع فيكون القتل امَّا تعدّياً وهو مذموم وامّا ردًّا لكيد ظالم وهو مشكور . وان صدر من زيد الفاضل فيكون شهامةً وان اقترفهُ عمرو الشرير فهو جريمة وهلمَّ جرًّا

(فائدة) اعلم ان الظروف من اوسع مصادر البرهان في الخطابة منها يستعير الخطيب ما يتصرف بهِ في وجوه الكلام وبها يرقّق التحيُّل لبلوغ غرضهِ من اثبات قضيَّة او نفيها ومن مغالطة خصم وتصغير جناية وتعظيم منكر

س ما هي اخصّ الظروف ؟

ج الظروف تعود الى ثلاثة ابواب :

اوَّلًا الاشخاص الذين لهم علاقة بالامر

ثانياً الاحوال المتعلِّقة بذات العمل

ثالثاً عوارض الزمان والمكان اللذين فيهما حدث الامر

وهذه الظروف محصورة في بيت لاحد الشعراء :

مَنْ وما اين بماذا كم لما كيف متى تأتي بها مستفهما

فان (مَنْ) تدلّ على الاشخاص كالفاعل والشاهد والاعوان وما يتعلّق بجنسهم وصفاتهم وخصالهم من صورة وزيّ وسنّ وآداب . و(ما) يُراد بها الفعل او القضيّة التي عليها بُني الكلام . و (اين) تدل على مكان الصنيع أَفي خلوةٍ او علناً أَفي دارٍ او في ساحة . و(بماذا) تدل على الوسائل التي استعان بها الفاعل لانفاذ مقصوده كالعُدَد والاسلحة والمشورة والاغراء على العمل . و (كَمْ) وُضعت لتعريف كميّة الشيء وتعدّدهِ . و(لِمَ) يراد بها الغاية والدواعي الى العمل . و (كيف) تبين نوع العمل وسياقهُ وهيئتهُ و (متى) تدل على زمان العمل من نهار او ليل او يوم عيد الخ . وقد جمع قسماً كبيراً من هذه الظروف يحيي بن معاذ في وصف العابد المُخلص التعبد لربّهِ :

صاحبُ الحبّ حزينٌ قلبهُ دائمُ الغصّة مهمومٌ دَنِفْ
همّهُ في الله لا في غيرهِ ذاهبُ العقل وبالله كَلِفْ
اشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنهُ اصفر الوجنة والطَّرْفُ ذَرِفْ
دائمُ التّذكار من حبّ الذي حبّهُ غايةُ غايات الشرَفْ
فاذا أمعن في الحبّ لهُ وعَلاهُ الشوقُ من داءٍ كُشِفْ
باشرَ المحرابَ يشكو بثّهُ وامام الله مولاهُ وقفْ
قائماً قدّامهُ منتصباً لَمِحاً يتلو بآيات الصحُفْ
راكعاً طوراً وطوراً ساجداً باكياً والدمع في الارض يكِفْ
ورد الحقّ على القلب الذي فيه حبّ الله حقّاً فعرفْ

ومثلهُ لابي الحليم يذكر ظروف ميلاد يوحنا المعمدان فيستنتج منها عظم شأن المولود :

فبينما زكرياء مكهنٌ في رتبة خدمتهِ. يوم عيد الغفران امام الله على عادتهِ. وآن لهُ وضع البخور على المباخر. وقد تجلبب من ملابس الكهنوت بالحلل الفواخر. ظهر لهُ ملاك الربّ مجلَّلًا بالنور. قائمًا بالمنظر البهي على يمين مذبح البخور. فأذهل رويَةَ زكرياء رُواؤه. وانزعجت لرؤية شخصهِ المخوف فكرتهُ وآراؤهُ. واشتمل الخوف على قلبهِ وتغشّاه. ووهت لهيبة منظرهِ الملكي مُنّتهُ وقواه. رأى المذبح القدسيَّ مملوءًا بوميض برقهِ. وهو مقمّص بالنور من قدمهِ الى فَرْقهِ. يلمح رونق الملكوت على شخصهِ الوضي. وطلاوة مجد اللاهوت تلمع من وجههِ المضي. قد ضمَّ الوقار على هيئتهِ. وقدحت الانوار من هيبتهِ. غشيَتْهُ المخاوف من منظرهِ العجيب. تراعدت فرائصهُ من روعة شخصهِ المهيب. قال في نفسهِ: مَنْ عساهُ ان يكون هذا. وانّى تهجّم على المذبح القدسي ولماذا. وكيف اقدم على دوس هذه الاعتاب. ولم يخشَ وصمة اللوم وعار العتاب. فلما رآهُ واقفًا على قدم الحيرة. قد تلاطمت بهِ امواج الجزَع والغيرة. قال لهُ: لا تخشَ يا زكريّاً ولا تخف. فانّي مُهدٍ اليك سنيَّ البشائر وألطاف التحف. وذاك انَّ مسموع دعائك وصلاتك. قُدِّم الى الله على اعضاد برّك وصلاتك. فانَّ الربَّ بوَّأك من رتب الاختصاص منزلةً زُلْفى. وخصَّك من لطائف الآلاء بالسهم الأوفر والنصيب الاوفى. وستلد لك زوجتك اليشبع ابنًا. يكون عظيمًا امام الرب ويدعى بالإيعاز الالهي يوحنّا

س كيف تكون المحاجّة بالمقدّمات والتوالي والظروف ؟

ج ان اتّخذتَها لبيان قضيّتك فبيِّن لزومها للمقصود وعلاقتها بهِ. وعلى عكس ذلك ان شئت ابطال حجّة المناظر فامّا ان تنكر وقوعها او تنفي علاقتها بالامر المقصود او تقابلها بظروف أخرى مُخالفة لها مزيّفة لدعوى المناظر

(تنبيه) انَّ الخطيب في كثير من كلامهِ لا يقصد من تعداد الظروف وايراد سوابق الامر ولواحقهِ سوى تبيان قضيّتهِ وتبجينها في ذهن السامعين دون ان يتخذ منها برهانًا لاثبات الحكم او نفيهِ

٧ المقابلة

س ما هي المقابلة ؟

ج المقابلة في اصطلاح الحكماء هي امتناع وجود شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة . ويدعونها ايضاً التقابل (١ كالجهل والعلم . والبرّ والعقوق . والزهد والطمع . فانها صفات تتنافى في موضوع واحد من جهة واحدة . فان كان زيد مثلًا برّاً بابيه فيُنكَر عقوقهُ لهُ وان كان يجهل علم النجوم فليس هو عالماً بالفلكيَّات الخ

س هل للمقابلة عمل في الاقناع ؟

ج عَمَلُها رحبُ الفناء لانّ الشيء اذا ما عُرِض على نقيضهِ ازداد جلاءً وبياناً قال الشاعر :

ضدَّانِ لمَّا استجمعا حَسُنا والضدُّ يُظهر حُسْنَهُ الضدُّ

(فائدة) انَّ المقابلة تأتي لحسن البيان وتوسيع المعاني ومن هذا الوجه هي احدى محسّنات الكلام ومرجعها الى علم الانشاء . . وتكون ايضاً لاقامة الحجَّة واتخاذ الدليل وهو المبحوث عنهُ هنا خصوصاً

س على كم وجه يكون الاحتجاج بالمقابلة ؟

ج على ثلاثة اوجه :

اوَّلًا بان تثبت احد المتقابلَيْن فتنفي الآخر كقول علي بن ابي طالب يُبطل زعم قريش في جهلهِ لامور الحرب :

---

١) كشف اصطلاحات الفنون

قالت قريش: انَّ ابن ابي طالب شُجاع ولكن لا علم لهُ بالحرب. لله ابوهم وهل منهم احدٌ اشدّ لها مراساً واطول تجربةً مني لقد مارستُها وانا ابنُ عشرين وها انا ذا قد نيَّفتُ على الستّين

ثانياً بان تنفي احد المتقابلَيْن فيثبت الآخر . كقول الشاعر ينفي الحكمة عن المرء الملازم لهواه :

وكيف تريد ان تُدعى حكيماً وانت لكلّ ما تهوى تَبُوعُ ؟

(تنبيه) ويشترط في هذا الباب ان يكون المتقابلان متنافيَين لا توسُّط بينهما والّا كان البرهان فاسدًا فلا يصحّ مثلًا قولك : لم يَقتل زيد اباهُ اذن كان برًّا بهِ

ثالثاً بان تستنتج من متقابلَين نتيجتين متباينتَين . مثالهُ مقابلة الطرطوشي بين عدل السلطان وجورهِ (مجاني الادب ٢ ص ١٠٣ عدد ١٤٦) فبيَّن ان عدلهُ اصل كل خير لرعيَّتهِ ثم استنتج انَّ جورهُ وهو عكس العدل مصدر كل شرّ لدولتهِ

٨ التشابه

س ما هو التشابه ؟

ج هو عرضُ امرٍ على آخر ليُتَّخذ منهُ دليل على المقصود. فان قلت مثلًا انَّ حياة الانسان كسحابة استدللتَ بذلك على فنائها وزوالها . ومنهُ قولك : كيف لا تموت انت وقد مات الانبياء والسلاطين ؟

س كيف تكون المحاجَّة بالتشابه

ج بان تستنتج صحَّة امرٍ او فسادهُ من صحَّة او فساد امرٍ آخر يشبههُ . وذلك يكون على ثلاثة اوجه :

الاوَّل ان تعرض المقصود على ما هو اكبر او اكثر فتستدلّ بهِ على صحَّة ما هو اصغر او اقلّ كقول ابي عبيدة يدعو اهل الشام الى فتح مدينتهم العرب :

لا يغرَّنكم عظم مدينتكم. وتشييد بنيانكم. وكثرة زادكم. وهول اجسامكم. فاننا نزلنا بلادًا اخصب من بلادكم. وفتحنا امصارًا ممصَّرة. ومدائن احرز من مدينتكم. وخرج علينا اعلاج موفورة اقواتهم. مدرَّعون مترَّسون لا يقرُّ لوجههم قرار. فصَلد نجمُهم. وذهب امامنا ريحُهم. ورددناهم على الاعقاب لا يلوي آخرهم على اولهم

فمؤداهُ انهُ لم يثبت امامنا من كان اقوى منكم فلا بُدَّ ان ينالكم العجز وانتم أقصر باعاً

ومنهُ قول الرب لتلاميذهِ بعد غسل ارجلهم (يوحنَّا ف ١٣) :

انتم تدعونني معلماً وربًّا وحسنًا تقولون لاني كذلك. فان كنت انا الربّ والمعلّم قد غسلتُ ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض. . . الحقَّ الحقَّ اقول لكم : ليس عبدٌ اعظم من سيده ولا رسولٌ اعظم من مرسلهِ

وكقولهِ تعالى للعبد الذي رحمهُ في الكثير فلم يرحم رفيقهُ في القليل (متّى ف ١٨) :

ايّها العبد الشرّير كلُّ ما كان لي عليك تركتُهُ لك لانك سألتني افما كان ينبغي لك ان ترحم رفيقك كما رحمتك انا ؟

الثاني ان تستدلّ على صحَّة امر اعظم بعد ان اثبتَّ صحَّتهُ في ما هو ادقّ واصغر . كقول الغزَّالي يثبت انهُ لا عجب من قصور الانسان عن ادراك كمالاتهِ تعالى اذ لا يدرك الحقائق الطبيعيَّة نفسها وهي اقرب منهُ :

انت لا تعرف ايَّاك ولم تدرِ من انت ولا كيف الوصولْ
اين منك الروحُ في جوهرها هل تراها او ترى كيف تجولْ

أنت أَكلَ الخبز لا تعرفهُ كيف يجري فيك ام كيف يحولْ
فاذا كانت طوايــاك التي بين جنبَيك بها انت جَهُولْ
كيف تدري مَن على العَرْش استوى لا تَقُل كيف استوى كيف الوصولْ

اطلب الباقي في مجاني الادب (ج ٤ ع ٤) . ومثــلهُ قول الرب لمن يبالغ بالاهتمام في امور دنياهُ (لوقا ف ١٢) :

تأمَّلوا الزنابق كيف تنمو . انّها لا تعزل ولا تنسجُ وانا اقول لكم انَّ سليمان في كل مجدهِ لم يلبس كواحدةٍ منها . فاذا كان العشبُ الذي يوجد اليوم في الحقل وفي غدٍ يُطرح في التنُّور يلبسهُ اللّٰه هكذا فكم بالاحرى يلبسكم يا قليلي الايمان ؟

الثالث ان يعرض المقصود على ما يشبههُ بالمساواة . كقول علي ابن ابي طالب في معاملة القريب كمعاملة الانسان لنفسه :

إجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك . فأَحبِب لغيرك ما تحبّ لنفسك واكره لهُ ما تكرهُ لها . ولا تَظلُم . وأَحسن كما تُحبّ ان يُحسَن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك . وارضَ من الناس ما ترضاهُ لهم من نفسك . ولا تقل لهم ما لا تحبّ ان يقال لك

وكقول اسماعيل المقري في من يطمع برحمــة اللّٰه دون توبة وهو لا يطلب الرزق بغير سَعي :

تقولُ مع العصيان ربّيَ غافرٌ صدقتَ ولكن غافرُ المشيَّةِ
وربُّك رزاقٌ كما هو غافرٌ فَلِمْ لَمْ تُصدّقْ فيهما بالسويَّةِ ؟
فكيف ترجّي العفوَ من غير توبةٍ ولستَ ترجّي الرزقَ الّا بحيلةِ ؟

(فائدة اولى) انَّ التشابيه التي مرَّ فيهــا الكلام في الجزء الاوَّل (ص ٥٨—٦٩) وان كانت الغاية منها حُسن البيان الّا انهــا تأتي ايضاً للاقناع وكثيرًا ما يستدلّ بها الخطباء لاغراضهم . كقول الشاعر مشبِّهاً سرعة زول الدنيا بالحلم :

ألا إنَّما الدنيا كاحلام نائمٍ وما خيرُ عيشٍ لا يكون بدائمٍ ؟
تأمّل اذا ما نلتَ بالامس لذَّةً فافنيتَها هل انت الّا كحالمٍ ؟

وكقول الحسن بن عبد الله في مصاحبة الملوك :

ان الملك كالجبل الشامخ فيهِ الثمار والانهار والوحش والسباع والاخطار. فالوصول اليهِ صعب لصعوبتهِ والمقام فيهِ خطر كثير المعاطب وخيم العواقب

(فائدة ثانية) وكذلك ضربُ الامثال (الجزء الاوَّل ١٧٨) لاسيما الامثال عن السنة الحيوانات وغيرها (الجزء الاوَّل ٢٠٩—٢٢٣) فانَّها تأتي ايضاً للاقناع وان كانت من فنون الانشاء واساليب الكتابة . ومن حسن الشواهد في هذا الباب قول عبد الملك بن مروان وكان حجَّ في بعض الاعوام وامر للناس بالعطاء فابى اهلُ المدينة قبول ما اعطى مستقلّين عطاءهُ فرقي المنبر وخطبهم وقال في اثناء ما قال :

يا معشر قريش مَثَلُنا ومثلكم ما قيل : انَّ اخوين خرجا في الجاهليَّة مسافرَين فنزلا في ظلّ شجرة تحت صفًا . فلما دنا الرَّواح خرجت اليهما من تحت الصفا حيَّة تحمل دينارًا فالقتهُ اليهما فقالا : ان هذا لمن كنز . فاقاما عليها ثلاثة ايّام كل يوم تخرج اليهما بدينار فقال احدهما لصاحبهِ : الى متى ننتظر هذه الحيَّة ألا نقتلها فنحفر هذا الكنز فنأخذهُ . فنهاهُ اخوهُ وقال لهُ : ما تدري لعلَّك تعطب ولا تدرك المال . فابى عليهِ ثمَّ اخذ فاسًا معهُ ورصد الحيَّة حتى خرجت فضربها ضربةً جرحت رأسها ولم يقتلها فثارت الحية فقتلتهُ ورجعت الى وكرها . فقام اخوهُ فدفنهُ حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوبًا رأسها ليس معها شيءٌ فقال لها : يا هذه اني حقًّا ما رضيتُ ما اصابكِ ولقد نهيتُ اخي عن ذلك فهل لك ان نجعل الله بيننا لا تضرّيني ولا اضرَّك وترجعين الى ما كنت عليهِ ؟ . قالت الحيَّة : لا . قال : ولِمَ ذلك ؟ . قالت : اني لأعلم ان نفسك لا تطيب لي ابدًا وانت ترى قبر اخيك ونفسي لا تطيب لك ابدًا وانا اذكر هذه الشجَّة . (وانشدهم شعر النابغة في ذلك وختامهُ) :

فقالت ارى قبرًا تراهُ مقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسيَ فاغرهْ

فيا معشر قريش وليكم عُمَر بن الخطَّاب كان فظًّا غليظًا مضيّقًا عليكم فسمعتم لهُ وأطعتم . ثم وَلِيكم عثمان فكان سهلًا لينًا كريمًا فعدوتم عليهِ فقتلتموهُ . وبعثنا اليكم مسلمًا يوم الحرَّة فقتلتموهُ . فنحن نعلم يا معشر قريش انكم لا تحبُّوننا ابدًا وانتم تذكرون يوم الحرَّة ونحن لا نحبكم ابدًا ونحن نذكر مقتل عثمان (للمسعودي)

فهذا المثل قد ضُرب على صورة أُخرى في الجزء الاوَّل (ص ٢١٤) وانَّما كررناهُ هنا على هذه الصورة ليرى طالب الخطابة كيف تُتَّخذ الامثال لنيل المقصود في الاحتجاج . ومثلهُ المَثل الذي ضربهُ ناتان للنبي داود بعد خطيئتهِ (فيهِ ص ٢١٩) فمهَّد بهِ السبيل لتونيبه على اثمهِ وحضِّهِ على التوبة

البحث الثاني

في المواضع الجدليَّة العرضيَّة

س ما هي المواضع الجدليَّة العرضيَّة ؟

ج هي مصادر للادلَّة خارجة عن الموضوع يحتجُّ بها الخطيب لاثبات قضيَّتهِ

س أنَّى تستفاد هذه الادلَّة ؟

ج من التقاليد

س ما هو التقليد ؟

ج هو عبارة عن اتّباع الانسان غيرهُ فيما يقول او يفعل معتقدًا للحقّيَّة فيهِ من غير نظر الى دليل (١

فقولهُ « فيما يقول او يفعل » لأَنَّ التقليد على وجهين : الاوَّل الاخذ باقوال الغير وكالاستشهاد بمثل سائر او قول بعض الكتبة . والثاني الاقتداء بافعالهم كاستشهادك بعمل جميل اتاهُ احد الابطال . امَّا قولهُ « من غير نظر الى دليل » فيراد بهِ انَّ المتَّبع للتقليد باستشهادهِ لكلام

١) شرح الحسامي وتعريفات الجرجاني . قالا : انَّما دُعي التقليد بذلك كأن المتَّبع يجعل قول الغير او فعلهُ قلادة في عنقهِ

غيرهِ او يذكرهُ اعمالهم يستغني عن اثبات صحّة هذا القول لعظم رتبة قائله او لحسن ذلك الفعل ومقام فاعلهِ

س كم صنفاً التقاليد بالنسبة الى اصلها ؟

ج هي امَّا الهيَّة وامَّا بشريَّة

س ما التقاليد الالهيَّة ؟

ج هي الكتب المنزلة والاسفار الموحاة التي يرجع اليها الخطيب لقيام حجّتهِ

س كيف يُستدَلّ بالتقاليد الالهيَّة ؟

ج الاستدلالُ بها ان تأتي بآيات الوحي الموافقة لقضيَّتك. فان كلام الله من اقوى اسباب الاقناع اذ هو صادر عن منبع الصدق ومصدر الحقّ الذي لا يَغشّ ولا يُغشّ. فعلى هذا المنوال اعلن القديس بولس في اوَّل رسالتهِ الى العبرانيين لاهوت السيد المسيح « ضياء مجد ابيهِ وصورة جوهرهِ » وكذا اثبت بعض الاقدمين مجيءُ المخلّص مستنداً الى نبوَّة يعقوب لابنهِ يهوذا في سفر التكوين (٤٩ : ١٠) :

وقال الله تبارك وتعالى على لسان موسى في التوراة في السفر الاوَّل الذي هو سفر الخليقة ان يعقوب المعروف باسرائيل الله لمَّا قربت وفاتهُ دعا اولاده كلَّهم فباركهم واخبرهم بما هو مزمع ان يكون في آخر الازمان واودعهم هذا السرّ. ولم يزل يبارك واحداً فواحداً حتى انتهى الى يهوذا الذي من نسلهِ وُلدت المغبوطة مريم امّ المسيح مخلّص العالم فقال: « يهوذا لك تخضع اخوتك. يدك على اكتاف اعدائك. يسجد لك بنو ابيك. شبلُ ليثٍ يهوذا. من فريسةٍ صعدتَ يا بنيّ. جثا

وربض كاسد وكابؤة مَن يُنهضهُ . لا يزول القضيب من يهوذا والمدبّر من فخذهِ حتى يجيء الملك واياهُ تنتظر الشعوب »

فانظر اعزّك الله في هذا الكلام نظراً روحانياً مستقصياً بين العدل والانصاف وتفهّمْهُ فان من لم يفهمهُ لم ينتفع بهِ . هل تليق هذه النبوّة من ذلك الشيخ المبارك اسرائيل الله وصفيّه الّا على المسيح مخلّص العالم لانهُ هو الخارج من يهوذا بانسانيتهِ ولهُ خضع بنو اسرائيل لمّا دخلوا في دعوته وصارت يد الروم التي هي يده على اكتاف مَن عاداهُ من بني اسرائيل وجحدوا ربوبيته وكفروا بهِ . فقتلهم الروم ومزّقوهم كلّ ممزّق فلا تقوم لهم قائمة ولا يزالون اذلّاء الى الانقضاء وزوال الدنيا . وهو الذي بُعث من بين الاموات حيًا بعد ثلاثة ايّام من صلبهِ . وهو الذي سجد لهُ بنو اسرائيل حيث رأوا الاعاجيب والآيات التي اظهرها بين ايديهم . وهو شبل الليث لانهُ ابن الله القوي العزيز الجبّار لم تزل النبوّة تترادف في بني اسرائيل حتى جاء المسيح رجاء البشر الذي انبأت عنهُ النبوات كلها التي كانت تهتف بالدلالة على مجيئه واياه كانت تنتظر الشعوب ولهُ كانت تترجّى الامم . وكما انهُ لا معنى لمجيء الرسل بعد طلوع الملك عليهم كذلك لا معنى للانبياء بعد ظهور الاله المسيح الذي هو بالحقيقة ملكٌ كما سبقت الانبياء وسمّتهُ ملكاً

س ما هي التقاليد البشريّة ؟

ج هي ما رجع فيها الخطيب تأييداً لمقصودهِ الى سُنن المشترعين واقاويل الائمّة المشاهير واحاديث المشايخ وحِكَم الفلاسفة ومألوف عوائد الامم . كقول المسعودي وقد تحرّى وصف حب الوطن فأورد كثيراً من النصوص تأييداً لرأيهِ :

ان من علامة الرشد ان تكون النفس الى مولدها مشتاقة . والى مسقط الرأس توّاقة . وقد ذكرت العلماء انّ من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينَهُ الى اخوانهِ . وشوقَهُ الى اوطانهِ . وبكاءهُ على ما مضى من زمانهِ . قال ابن الزُّبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم اقنعَ منهم باوطانهم . وقال بعض حكماء العرب : عمّر الله البلدان بحب الاوطان . وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة ابويك لان غذاءك منهما وغذاءهما منها . وقال آخرون : اولى البلدان بلد رضعتَ ماءهُ وطَعِمت غذاءهُ .

وقال آخر : ميلُك الى موضع مولدك من كرم مَحتَدِك . وقال بقراط : يُداوى كل عليل بعقاقير ارضه لان الطبيعة تتطلَّع بهوائها وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انفع ادويتها . وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضه كما تثوب الجنَّة ببلّ القطر . وللنفوس حنين الى الاوطان وان لم يطب ماؤُها وهواؤُها ولذا يقول بعض الاعراب يصف وطنهُ :

وكنَّا أَلِفْناها ولم تكُ مألفًا … وقد يؤلَفُ الشيءُ الذي ليسَ بالحَسَنْ
كما تؤلف الارضُ التي لم يَطِب بها … هواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وطنْ

س ما هي طريقة السُّنن والشرائع في الخطابة ؟

ج اعلم انَّ السُّنن امَّا ان تكون مؤيّدةً لمقصود الخطيب او مُباينة لهُ . فان كانت تؤيّد مقالهُ فليبيّن ما في الشريعة من الحكمة والسَّداد ويصف سموَّ عقل مَن سنَّها وما ينجم من حُسن العُقبى بحفظها واتمامها . وامَّا اذا كانت مخالفة لمقصودهِ فليعرضها على معيار غيرها من السُّنن وليفسِّرها تفسيرًا يطابق مقصودهُ . او ان اقتضى الامر فليبيّن بطلان الشريعة ومخالفتها لشرائع اخرى سبقت او لتقاليد اممٍ عريقة في الحكمة او لسُنن ارفع منها طورا طبعها الله في قلب البشر

(فائدة) ومن هذا الباب الامثال السائرة فانَّها خلاصة حكمة الشعوب وربَّما التجأ اليها الخطيب لايضاح قضيتهِ فيُقنع السامعَ بها او يردّ بعض حُجج خصمهِ على طريقة قريبة . ولذلك لم يأنف السيد المسيح في الانجيل من الاستشهاد بها كمثل الشوك والعوسج (متى ٧ : ١٦) اللذين لا يُجنى منهما عنب او تين . وفي يوحنا (١٣ : ١٦) مثل العبد الذي ليس هو اعظم من سيدهِ . وفي لوقا (٤ : ٢٣) مثل الطبيب المعالج لغيره دون نفسهِ

س ما هي لواحق المواضع الجدليَّة العرضيَّة ؟

ج اعلم ان الخطيب ربَّما التجأ لترويج المادة التي تعمَّد بيانها الى الوثائق والشروط والصكوك والاسناد وهذا كثير في الدعاوي . فيترتَّب على الخطيب ان يكون لهُ إلمام بمعرفة الدستور الشرعيّ واهمّ قوانينهِ صيانةً للحقوق ودفعاً للالتباس والتحيُّل

البحث الثالث

في عمل المواضع الجدلية

س ما هو عمل المواضع الجدلية ؟

ج للمواضع الجدليَّة عَمَل لا يُحصَر فانهُ لولاها لطاش سَهم الخطيب وحصل في امرٍ مُعضل وخاض بحرَ موضوعهِ على غير هداية

س كم هي شروط استعمال المواضع الجدلية ؟

ج ثلاثة :

الاوَّل ان يُحسِن الخطيب اختيارها فيتوخَّى أحراها باظهار المادَّة

الثاني ان يقوم الاختصارُ في بسطها مقام الإكثار متحاشياً في ايرادها الشرح المملّ متفنّناً في عَرْضها

الثالث ان يوردها على مقتضى حقيّتها ولا ينسب اليها من الصحَّة ما ليس حقيقاً بها . كما لو اراد تزكية مُتَّهَم فيقول : لا ريب ان هذا الرجل ليس بمذنب . اويقول : من الجائز انهُ غير مذنب . او يقول: لم تثبت الجناية على هذا الرجل . امَّا النتيجة فلا تختلف في هذه المواقع كلها وهي : انهُ لا يُقتضى الحكم على المجرم

س ما هي احقُّ البراهين الجدلية بالاقناع ؟

ج هي ما كان منها مع صحتها اكشف للمادَّة واقرب الى أفهام الجمهور واحسن وقعاً في النفوس . وعليهِ يلزم العدول عن الادلّة العويصة المستوجبة بياناً علمياً لا يتناولهُ عقول القوم بسهولة ما لم يكن السامعون من ذوي الخواطر الثاقبة او ممَّن يُغنيهم التلويح عن التصريح

الباب الثاني

في الاداب

لما كانت غاية الخطيب ارضاء السامعين لم يكفهِ ان يظهر في ترويج مقصودهِ ما عندهُ من الحجج والادلَّة بل يترتَّب عليهِ بعد انكشاف الرَغوة عن الصريح وتأييد قضيَّتهِ بالبراهين المأخوذة من المواضع الجدليَّة ان يتوخى القلوب ويستعطفها اليهِ . وهذا امر قريب المُتناول داني الملتمس اذا ما راعى الخطيب الآداب الموضيَّة التي بها تنقاد لهُ العقول

البحث الاوّل

في حقيقة آداب الخطابة واقسامها

س ما هي آداب الخطابة ؟

ج هي عبارة عن صفاتٍ واخلاقٍ حسنة يتحرّاها الخطيب فيستدني بها قلوب السامعين ويستميلها الى ما يقول

س كم نوعاً آداب الخطابة ؟

ج هذه الآداب على نوعين : فامّا انها تُعتبَر في نفس الخطيب وامّا في نفس السامع

البحث الثاني

في آداب الخطيب

س كم هي آداب الخطيب ؟

ج ثلاثة : سداد الرأي وصِدق اللهجة والتودُّد

س ماذا يراد بسداد الراي ؟

ج السداد أَصالةُ العقل وعلمهُ التامّ بالقضيّة وتمييزه لوجوه الامور ومعضلات المشاكل بحيث يثق السامع بقول الخطيب وينقاد الى كلامهِ . قال الشاعر :

متى ما تقُد بالباطل الحقَّ يأبَهُ وان قُدتَ بالحقّ الرواسيَ تَنقدِ

س ما هو صدق اللهجة ؟

ج هي صفةٌ يتَّصف بها الخطيب في كلامهِ ليثبت لدى السامعين خلوص نيَّتهِ واستقامة عملهِ وحرصهُ على الحقيقة فيزيد ميلهم الى رأيهِ وركونهم الى تصديقهِ قال ابو العتاهية :

والقولُ ابلغهُ ما كان اصدقَهُ والصدق في موقفٍ مستسهلٍ عالِ

س ما هو التودُّد ؟

ج قال الجرجاني : هو طلب مودَّة الاكفاء بما يوجب ذلك . وموجبات المودَّة كثيرة : منها الوقار والتصوُّن ومنها الوفاء والامانة . ومنها النزاهةُ فيبيّن الخطيب في مقالهِ انهُ خالٍ من الاغراض لا يسعى الّا لخير الجمهور . قال مرَّار بن سعيد :

اذا شئتَ يوماً ان تسودَ عشيرةً فبالحلم سُدْ لا بالتسرُّع والشتمِ

س باي طريقة يثبت الخطيب سداد رأيهِ ؟

ج يثبتهُ اولًا بايراد قضيَّتهِ على صورة جليَّة قريبة المنال . ثانياً بتمكينها في ذهن السامع بالبيِّنات اللامعة والشواهد الساطعة . وثالثًا باستدراك اعتراضات الخصم وتفنيدها . كقول عليّ من خطبة اراد ان يثبت فيها غرور الدنيا فقال :

ايُّها الناس انَّ الدنيا تغرُّ المؤمّل لها والمُخلد اليها ولا تنفّس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها . وايمُ الله ما كان قومٌ قطّ في غضِّ نعمة من عيش فزال

عنهم الّا بذنوبٍ اجترحوها لأنّ الله ليس بظلّام العبيد. ولو ان الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزَعوا الى ربّهم بصدقٍ من نيّاتهم وَوَلَهٍ من قلوبهم لَرُدّ عليهم كلّ شارد وأُصلح لهم كل فاسد. واني لأخشى عليكم ان تكونوا في فترةٍ. وقد كانت امور مضت ملتم فيها ميلةً كنتم فيها عندي غير محمودين. ولئن رُدّ عليكم امركم انكم لَسُعداء...

س كيف يتقرَّب الخطيب من عقول السامعين بصدق لهجتهِ ؟

ج الوسيلة لذلك بان يظهر في اثناء خطابهِ ما انطبع عليهِ من الصلاح وسلامة النيَّة وحسن الطويّة فيردّ الناس عن السيئات ويدعو الى المحاسن والامور الشريفة ويحيد عمَّا يوقع السامع في الشكّ عن استقامتهِ. قال الشاعر:

الباطلُ الدهرَ يُلفَى لا ضياء لهُ والحقُّ أبلجُ فيهِ النورُ يأتلقُ

والمثل في ذلك قول الخوارزمي من كتاب الى احد اولادهِ ينصحهُ:

تأخّر كتابي عنك يا ولدي لاني كرهتُ ان اكاتبك عن فكرٍ متشعّب، وقلب متقلّب، واردت أن أُخلي خاطري لجوابك، وان اقضي بذلك حقّ كتابك، فمن صيانة صاحب الكتاب، ان لا يتجاوز لهُ في الجواب، على انّ مضمون كلامي غير مبتذل، ومدخل برّي عندك ليس بمستعمل، ولا لَوْم على الفقير، اذا حمل ما عندهُ من اليسير الى المياسير، وقد بذل جهدهُ، واتى اقصى ما عندهُ

س كيف يمكن الخطيب ان يتحبَّب الى سامعيهِ ؟

ج يتحبَّب اليهم بان يبيّن لهم انَّ قصارى بغيتهِ مصالحهم وانَّهُ يؤثر امرهم على شؤونهِ الخاصَّة ويسعى في ترويج اغراضهم وانّهم اذا اجابوا الى ملتمسهِ نالوا المنافع الجمَّة كقول سمعان المكابيّ يبعث همم بني اسرائيل بعد موت اخوتهِ :

قد علمتم ما فعلتُ انا واخوتي واهلُ بيت ابي من اجل السُّنَن والاقداس وما لقينا من الحروب والشدائد وقد كان في ذلك هلاكُ اخوتي جميعاً لاجل اسرائيل وبقيتُ انا وحدي . والآن فحاشَ لي أن أضنّ بنفسي في كل موقع ضيّق فانّي لست خيراً من اخوتي بل أنتقم لأُمّتي وللأَقداس ولنسائنا ولأولادنا لأنَّ الامم قد اجتمعت لتدميرنا بغضاً

فلا عجب أنْ اجابهُ بنو اسرائيل بصوت عظيم :

« انت قائدٌ لنا مكان يهوذا ويوناتان اخيك فحاربْ حربنا ومهما قلتَ لنا فانّا نفعلهُ »

البحث الثالث

في آداب السامعين واخلاق الجمهور

(مقدّمة) قالوا انَّ لكل مقامٍ مقالًا فلا يُخاطَب اشرافُ النـــاس واوساطهم وسوقتهم خطاباً واحدًا فاولئك يفهمون من الاشارة وهؤلاء يحتاجون الى بسط الكلام وتحريك العواطف فعلى الخطيب أن يعطي كلًّا حقّهُ من الفهم والذكاء ويوفيهُ نصيبهُ من النباهة وسعــة الادب . وكذلك لاطوار الاعمار اخلاق شتى وآداب مختلفة من ولــد فتيّ السنّ مترعرع وشابٍّ في مقتبل العمر وكهل تامّ القوّة وشيخ وقور مهيب فينبغي على الخطيب بان يتفنَّن في كلامهِ مع كل صنف من السامعــين على مقدار مبلغهم من الفهم واستعدادهم لقبول ما يريد بذرهُ في عقولهم لئلّا يُجري كما قيل شعاعَ بلاغتهِ في غير مجراهُ وينظم جوهرَ كلامه في غير مسلكه

س صِفْ اخلاق الانسان على اختلاف اطوار العمر ؟

ج وصفها الامــام صالح بن ابي شريف الاندلسيّ في الابيات التالية فقال :

ابنُ عشر من السنين غلامُ فَرِهٌ غِرٌّ ثغرُهُ بسَّامُ
طائشٌ غافلٌ سريع حِراكٍ دأْبُهُ الغيظ والرضى والخصامُ
وابن عشرين للصبا والتصابي ليس يثنيهِ عن هواهُ ملامُ
حُبّبَ القَصفُ والشرابُ اليهِ وصنوفُ اللذّاتِ وهي حرامُ
يتمنّى لهُ ويطلب مجدًا فهو مقدامٌ في الوغى وهُمامُ
والثلاثون قوّة وشبابٌ وهُيامٌ ولوعةٌ وغرامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا فكمالٌ وشدّةٌ وتمامُ
وابن خمسين مرَّ عنهُ صباهُ فيراهُ كأنّهُ احلامُ
فلهُ الفضل والفخارُ وشاحٌ وسكونٌ وهيبةٌ واحترامُ
وابن ستين صيّرتهُ الليالي هدفاً للمنون وهي سهامُ
وابن سبعين لا تسَلنيَ عنهُ فابنُ سبعين ما عليهِ كلامُ
لا يبالي على اخترام الليالي وهو عنها لاهٍ بهِ استصامُ
خَرِقٌ ساهمٌ حريصٌ على الما ل كثير الإهتار وَغدٌ عَبامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا بلغ الغاية التي لا تُرامُ
وابن تسعين عاش ما قد كفاهُ واعترَتهُ وساوسٌ وسقامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا فهو حيٌ كميّتٍ والسلامُ (*

* ولبهاء الدين العامليّ مقالة في اختلاف لذّات الخلق :
انظر الى الصبي في اوّل حركتهِ وتمييزهِ فانّهُ يظهر فيهِ غريزةٌ بها يستلذّ اللعب حتى يكون ذلك عندهُ ألذّ من سائر الاشياء . ثم يظهر فيهِ بعد ذلك استلذاذُ اللهو ولبس الثياب الملوّنة وركوب الدواب الفارهة فيستخفّ معهُ اللعب بل يستهجنهُ . ثم يظهر فيهِ بعد ذلك لذّة الزينة والمنزل والخدم فيحتقر ما سواها لها . ثم يظهر فيه بعد ذلك لذة الجاه والرئاسة والتكاثر من المال والتفاخر بالاعوان والأتباع والأولاد وهذا آخر لذّات الدنيا

وقد قال الموسويُّ في طباع الشيب :

س ما هي الطباع الغالبة على الجمهور بحسب قدرهم ومراتبهم ؟

ج قد تغلب على (الاعيان الاحرار) أُبهة السلطة وهيبة الامر واباء الطبع وعلوّ الهمَّة وتمام المروءة . على انهُ يظهر فيهم خُيلاء وعظمة وتفاخر يحبُّون الإطراء ويأبون قبول التأديب ولا ينقادون الى النصح

وطُبع (الاغنياء) اللهمَّ من كان منهم حديثَ عهدٍ بغنًى على التيه والصَلَف تُبطرهم الكرامة ويطغيهم المال ويشغلهم الحذَر والحرص . يتعاظمون على الفقير ويتطاولون على من هو دونهم . يتكلَّفون طباع السادة ولا يقتصدون في الملاذّ

امَّا (العلماء) ففيهم كرم الاخلاق وصحَّة الأَعراض وقلَّة المطامع في المال يرتاحون الى السمعة الحسنة ويحبُّون التوقير والتعظيم رُبَّما داخلَهم العُجب في اوَّل اكتنازهم للعلوم فغلَّب عليهم السلاطة والهذَر

وكذلك طباعٌ لكل طبقة من طبقات الناس على

اعلم ان الشيب يُمدح في أمورٍ ويُذَمُّ في غيرها فيُمدح بأن فيهِ الجلالة والوقار والتجارب والحنكة وانهُ يصرف عن الفواحش ويصدُّ عن القبائح ويعظ من نزل بهِ فيقلّل في الهوى طماحهُ وفي الغيّ جماحهُ . وللشيوخ صحَّة الرواية وكثرة التجارب فهم اشجار الوقار ومناجع الاخبار . ويُذمُّ الشيبُ بانَّهُ رائد الموت ونذيرهُ وانَّهُ يوهن القوَّة ويضعف المنَّة ويُطمع في صاحبهِ وربما شكا منهُ لنزولهِ في غير زمانهِ ووفوده قبل إبَّانه وما اشبه ذلك من الخلال المَعيبة

اختلاف مِهَنِهِم وصناعاتهم واديانهم واوطانهم لا بدّ للخطيب من مراعاتها

الباب الثالث

في الاهواء

(توطئة) غاية الخطيب ان يقنع السامع ويحملهُ بالبرهان على عمل حسن يأتيهِ او فعلٍ ذميم يأباهُ على حسب ما تقتضيهِ الحال . ولمَّا كان الانسان مركّباً من روح وجسم لا يكفي الخطيب ان يوجّه كلامهُ الى قوى السامع العقليَّة لكن يجب عليهِ ايضاً ان يثير فيهِ قوى نفسهِ الحِسّيَّة المشتركة بين النفس والجسد كالمخيّلة والاميال الغريزيَّة التي تدفع الانسان الى طلب ما يرغبهُ او النفور عمَّا يرهبهُ . ولا حاجة الى ذكر المخيّلة وما يناسبها اذ مرَّ ذلك في الجزء الاوَّل من علم الادب لاسيا في البديع . امَّا الاميال الغريزيَّة وهي الاهواء فخصصنا هذا الباب بتعريفها ثم بكيفيَّة تحريكها في نفس السامع

البحث الاوَّل

في حقيقة الاهواء واقسامها

س ما هو الهوى ؟

ج الهوى في اللغة مُطلق الشهوة محمودةً او مذمومة(١) . وفي الاصطلاح هو عبارة عن شهوة النفس اي ميلها الى ما

(١) مصطلحات الفنون للتهانوي

يلائمها من الخير الحسّي او إعراضها عن الشر المحسوس . وقد حدَّها ارسطو في كتاب الخطابة بقولهِ : انَّ الاهواء انفعالات في النفس تُثير فيها حزناً او لذَّةً بحيث انَّ حكمها في الشيء الواحد يختلف عمَّا كان (١

(فائدة) ليست نفس الانسان الناطقة منفصلةً عن نفسه الحيوانيَّة . فبمجرَّد إدراك العقل للخير او الشرّ المحسوسَين تهيج في الانسان نفسهُ الحيوانيَّة التي تستهوي النفسَ الناطقة . لكنَّ لهذه النفس الناطقة الحكمُ الأعلى فإمَّا تكبح ميل النفس الحيوانيَّة واما تنقاد اليهِ طوعاً فتتأثر منهُ وتندفع اليهِ مع النفس الحيوانيَّة . وهو المراد من تحريك الاهواء .

س ما هي العلّة المثيرة للاهواء ؟

ج علّتُها قوَّةٌ في النفس تدفعها الى طلب المرغوب ودفع المرهوب

س كم قسماً تُقسم الاهواء ؟

ج تُقسَم الى قسمين فهي امَّا اهواء شهوانيَّة تدفع الانسان الى طلب الخير المرغوب وامَّا اهواء غضبيَّة تنفّرهُ عن الشرّ المرهوب . فمرجع الاولى الى الحبّ والثانية الى البغض . ومن الحبّ والبغض تتولد بقيَّة الانفعالات

س ما هي اهواء النفس الشهوانيَّة ؟

١) تعريب خطابة ارسطو لابن رشد

9101

ج هي المحبَّة وضدُّها البغض . والرغبة وضدُّها النفور . والفرح وضدُّهُ الحزن

س ما هي اهواء النفس الغضبيَّة ؟

ج هي الرجاء وضدُّهُ القنوط . والشجاعة وضدُّها الجبن . والغضب وضدُّهُ الحِلم

س كيف يستطيع الخطيب ان يحرّك عواطف الجمهور ؟

ج ينال ذلك : اوَّلًا بأن يتعمَّق في درس موضوعهِ فتتشرَّبهُ مخيلتهُ ويتأثَّر بهِ شعورهُ . وبتأثُّر مخيَّلتهِ وشعورهِ يتمكَّن من التأثير في الغير . ثانياً بأن يبرز ادلَّتهُ على صورة حسِّيَّة فيصف ما ينتج عن الامر من الخير والشرّ وصفاً يفعل في مخيّلة السامع ويبعث ارادتهُ الساكنة فتتولّد من ذلك العواطف الدافعة الى مباشرة العمل او الكفّ عنهُ

البحث الثاني

في اهواء النفس الشهوانية

في المحبة والبغض

س ما هي المحبة ؟

ج هي حركة في النفس تميل بها الى كل محبوب ناطقاً كان كالصَّديق او غير ناطق كالوطن لما فيهما من الصلاح

فتطلب لهما الخير وترغب في الاصطناع اليهما وتعميم فضلهما

س كم هي شروط المحبة ؟

ج ثلاثة : الاوّل الارتياح الى خير المحبوب . الثاني السعي اليهِ فعلاً . الثالث خلوص المودَّة من شين المنفعة الخاصَّة والاغراض الشخصيَّة

س كيف تحرَّك المحبة في القلوب ؟

ج بطرق مختلفة اخصُّها ما يأتي :

اوَّلاً بان يبيّن الخطيب ما ازدان بهِ المحبوب من المحاسن كالمزايا الفريدة والاخلاق الكريمة التي تأنس اليها القلوب كقول المتنبي في سيف الدولة :

ضاقَ الزمان ووجهُ الأَرضِ عن ملك ... ملءِ الزَّمانِ وملءِ السَّهلِ والجبَلِ
ليتَ المدائح تستوفي مناقبهُ ... فما كُلَيبٌ واهل الأَعصرِ الأُولِ؟
خذ ما تراهُ ودع شيئاً سمعتَ بهِ ... في طلعة البدر ما يُغنيك عن زُحلِ
تُمسي الامانيُّ صرعى دون مبلغهِ ... فما يقول لشيءٍ: ليت ذلك لي

ثانياً بان يذكر جميل فضلهِ وحسن معروفهِ وسابغ نعمهِ كقول ابي تمام في المعتضد بالله :

الى قُطُبِ الدنيا الذي لو بفضلهِ ... مدحتُ بني الدنيا كفَتْهم فضائلُهْ
مَنِ البأسُ والمعروف والجودُ والتُقى ... عيالٌ عليهِ رزقهنَّ شمائلهْ
هو البحر من ايّ النواحي اتيتهُ ... فلجّتهُ المعروفُ والجودُ ساحلهْ
تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لو انَّهُ ... ثناها لقبضٍ لم تُطِعْهُ اناملهْ
ولو لم يكن في كفّهِ غير نفسهِ ... لجادَ بها فليتّقِ اللهَ سائلهْ

وكقول الآخر يحبّب الموت للبشر لما فيه من الخير :

جزى اللهُ عنَّا الموتَ خيرًا فانَّهُ ابرُّ بنا من كلّ بَرٍّ وأرأَفُ
يعجّل تخليص النفوس من الأذى ويُدني من الدارِ التي هي أشرفُ

ثالثاً بان يصف صفاء ودّ المحبوب وخلوص حبّهِ فيعاملهُ السامع بالمثل كقول ابن الزَّندقة الطرطوشي في برّ الوالدين :

لو كان يدري الابنُ ايَّة غصَّة يتجرَّع الأبوانِ عند فراقهِ
امٌّ تهيج بوجدِهِ حيرانةً وابٌ يسحُّ الدمعُ من آماقهِ
يتجرَّعان لبَينِهِ غُصص الردى ويبوح ما كتماه من اشواقهِ
لرثى لامّ سُلَّ من احشائها وبكى لشيخٍ هامَ في آفاقهِ
ولَبدَّل الخُلقَ الابيَّ بعطفهِ وجزاهما بالعذبِ من اخلاقهِ

وكقول بعضهم في التواصل :

ان المحبَّ لا يزال يرعى لكم عهدًا ، ويحفظ لكم ولاء ووِدًّا ، ويحنُّ إلى تلك اللذَّات والصفات المانوسة ، التي لا يسكن القلب الَّا اليها ولها ابدًا يتشوَّف ويتشوق ، وعليها سرمدًا يتلهَّف ويتحرَّق ، حتى يعيد الزمان العطف كِرواءهُ المكرر ، ويصفو بذلك شراب وصلهِ المكوَّر ، وليس ذلك بترويق اللسان وصوغه بل قد خالط اللحم والدم والمولى بذلك ادرى واخبر ، وانَّ عهد الوداد بحاله لم يتغيَّر ، وصفو الحب ما عهدتم وحاشا ان يتكدَّر

س ما هو البغض ؟

ج البغض ضدّ الحب وهو حركة في النفس تحملها على معاداة المسيء واضمار الشرّ لهُ والتحامل عليهِ . وهو يتناول ايضاً الناطق كالعدوّ والظالم وغيرَ الناطق كالبخل والعار

س ما هي الدواعي المثيرة للبغض في القلوب : ؟

ج هي الثلاثة المخالفة لدواعي الحب وهي

اوَّلًا بيان ما طُبِع عليهِ العدوّ من المعايب كسوء الاخلاق والدناءَة كقول الفرزدق في قوم :

لا بارك الله في قومٍ ولا شربوا إِلّا أُجاجًا اتونا من سجِستانا
مُنافقين استحلّوا كلَّ فاحشةٍ كانوا على غير تقوى الله اعوانا
أَلم يكن مؤمنٌ فيهم فينذرَهم عذابَ قومٍ أَتوا لله عصيانا

وكقول ابن عمران مقبّحاً للدنيا :

افٍّ لدنيا قد شُغِفْنا بها جهلًا وعقلًا للهوى متَّبِعْ
فتّانةٌ تخدعُ طلّابها فلا تكن ممَّن بها ينخدِعْ
اضغاثُ احلامٍ إِذا حصلَتْ او كوميضِ البرقِ مهما لمع

ثانياً صفة اعمال المُبغض المستقبحة ومظالمِهِ كقول ابي اذينة يذكر سوابق بني غسّان ويحرّض الاسود بن عمرو على الانتقام منهم :

هم جرَّدوا السيف فاجعلهم بهِ جُزرًا هم اوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
واذكر بنجاهمُ مثوى ابي كربٍ فيهم وحبسَ عديٍّ عندهم حُقُبا
وسيف جدّك لمَّا ان اضرَّ بهم جاءوا بهِ لك في أَسلابهم سلبا
لا عفوَ عن مثلهم في مثل ما طلبوا فإِن يكن ذاك كان الهُلْكَ والعطبا

ثالثاً ذكر ما جُبل الخصم عليهِ من البغض واحتقان الحقد كقول ابي العتاهية في صديقٍ اسمهُ صالح تغيَّر عليهِ :

اراني صالحٌ بغضا فاظهرت لهُ بغضا
ولا واللهِ لا ينقضُ م إِلَّا زدتُــهُ نقضا
وإِلّا زدتــهُ مقتًا وإِلّا زدتــهُ رفضا
أَلا يا مُفسد الودّ وقد كان لهُ محضا
تَغضَّبتَ من الريح فما اطلب ان ترضى
لئن كان لهُ المالُ م المصفَّى انَّ لي عِرضا

الرغبة والنفور

س ما هي الرغبة ؟

ج الرغبة حركة في النفس تحملها على طلب الخير المأمول

س كم صنفاً المرغوبات ؟

ج صنفان : منها محسوسة كلذّات الحواس ومنها معقولة كلذّة الفضيلة والعلم

س باي الوسائل يثير الخطيب الرغبة في النفوس

ج اوّلاً بذكر حاجة السامعين الى ذلك الخير الذي يريد الترغيب فيهِ . ثانياً ببيان فوائدهِ وقرب منالهِ. واخيراً بتعظيم الخير المنويّ وتزيينهِ في عيون السامعين حتَّى كأنهُ يريهم اياه رأي العين مثالهُ ما ورد في سفر الاحبار عن لسانهِ تعالى يرغّب شعبهُ في حفظ وصاياه :

ان جريتم على رسومي وحفظتم وصاياي وعملتم بها انزلتُ غيوثكم في اوانها واخرجتِ الارض غلالها وشجرُ الحقل يُخرج ثمرهُ . والدياس يتّصل بالقطاف والقطاف يتصل بالزرع وتأكلون طعامكم شبعاً وتُقيمون آمنين في ارضكم . وأُلقي السلام في الارض فترقدون وليس مزعجٌ وأُزيل الوحوش الضائرة من الارض وسيفٌ لا يمرُّ في ارضكم . وتطاردون اعداءكم فيسقطون امامكم بالسيف . فتطرد الخمسة منكم مئةً والمئة منكم تطرد ربوة وتسقط اعداؤكم امامكم بالسيف . وأُقبل عليكم وانميكم واكثّركم وأُثبت عهدي لكم . وتأكلون القديم المعتّق وتخرجون القديم من امام الجديد . واجعل مسكني فيما بينكم ولا اخذلكم .

واسير فيما بينكم واكون لكم الهًا وانتم تكونون لي شعباً . انا الرب الهكم الذي أخرجكم من ارض المصريّين لئلّا تكونوا عبيدًا لهم وكسرَ اغلال نيركم وجعلكم تسيرون منتصبين

وكثيراً ما يفضّل الخطيب طريق المقابلة بين المنافع الناتجة عن حصول الامر المرغوب فيهِ والمضارّ اللاحقة باهمالهِ او بتفضيل بعض المرغوبات على غيرها كالمرغوبات المعقولة على المحسوسة كما قالت ميسون بنت الجندل لمعاوية الخليفة زوجها وكان نقلها من البادية الى دمشق فرغّبها في الاقامة عندهُ :

لَبيتٌ تخفقُ الارواحُ فيهِ   احبُّ اليَّ من قصرٍ مُنيفِ
ولُبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني   احبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ
واكل كُسَيرةٍ في كِسْرِ بيتي   احبُّ اليَّ من اكل الرغيفِ
واصواتُ الرياح بكل فجٍ   احبُّ اليَّ من نقر الدفوفِ
وكلبٌ ينبحُ الطرَّاقَ دوني   احبُّ اليَّ من قطٍ أَلوفِ
وبَكرٌ يتبعُ الاذعان صعبٌ   احبُّ اليَّ من بغلٍ زفوفِ
وخرقٌ من بني عمّي نحيفٌ   احبُّ اليَّ من عِلجٍ عنيفِ

س ما هو النفور ؟

ج هو عدول الانسان عن شرّ يضرُّهُ والسعي في الفرار منهُ (١ . ويفرق عن البغض بكونهِ أرعى للمصلحة الذاتيّة واحرص منهُ على نفي الضرر المتوقع

س كيف يثار النفور ؟

ج بعكس ما تُثار بهِ الرغبة اي بان يصوّر الخطيب

١) الشفاء لابن سينا

To: www.al-mostafa.com

لعقول الجمهور وجوه المضارّ الحاصلة عمّا اراد التنفير عنهُ كقولهِ تعالى لشعب اسرائيل وقد اراد ان يصرفهم عن العصيان :

وان لم تسمعوا لي ولم تعملوا بجميع هذه الوصايا. ونبذتم رسومي وعافت انفسكم احكامي فلم تعملوا بجميع وصاياي ونقضتم عهدي . فانا اصنع بكم هذا أُسلّط عليكم رعباً وسلًّا وحمّى تفني العينين وتتلف النفس . وتزرعون زرعكم باطلًا فيأكله اعداؤكم . واجعل وجهي ضدكم فتنهزمون من وجوه اعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتفرّون ولا طالب لكم . ثم ان لم تطيعوني بعد هذا زدتكم تأديباً على خطاياكم سبعة اضعاف . فأحطم تشامخ عزمكم واجعل سماءكم كالحديد وارضكم كالنحاس . وتفرغ قواكم عبثاً ولا تخرج ارضكم إتاءها وشجرُ الارض لا يخرج ثمرهُ . واطلقت عليكم وحش الصحراء فتثكلكم وتهلك بهائمكم وتقلّلكم فتوحش طرقكم . وان لم تتأدّبوا بهذه وجريتم معي بالخلاف . جريتُ انا ايضاً معكم بالخلاف وضربتكم سبعة اضعافٍ على خطاياكم فاجلب عليكم سيفاً منتقماً نقمة العهد فتتجمعون الى مدنكم وابعث الوباء فيما بينكم وتُسلَمون الى ايدي العدو . . . وادكُّ مشارفكم وأُحطّم تماثيل شموسكم وأُلقي جثثكم على جثث اوثانكم وتكرهكم نفسي . واجعل مدنكم قفرًا ومقادسكم موحشة ولا اشتمّ رائحة رضًى منكم . واترك الارض بلقعاً فيذهل اعداؤكم الذين يسكنونها . وأُبدّدكم فيما بين الامم وأُجرّد وراءكم سيفاً فتصير ارضكم خراباً

او بتبيين سوء مخبر المرغوب عنهُ ودغل باطنهِ كقول سعيد ابن صامت في صديق مماذقٍ :

أَلا ربَّ من تدعو صديقاً ولو ترى مقالتَهُ بالغيب ساءك ما يفري
مقالتُهُ كالشهد ما كان شاهدًا وبالغيب مأثورٌ على ثغرة النحرِ
يسرّك باديه وتحتَ اديمهِ نميمةُ غشٍّ تبتري عَقَبَ الظَّهرِ
تُبين لك العينان ما هو كاتمٌ من الغلّ والبغضاء والنظر الشَّزْرِ
فرِشْني بخيرٍ طالما قد فرَيْتني وخيرُ الموالي من يريش ولا يَبري

الفرح والحزن

س ما هو الفرح ؟

ج الفرح لذّة في القلب لنيل المشتهى (١

س كم وسيلة لتحريك شاعرة الفرح في القلوب ؟

ج لذلك وسيلتان خصوصاً :

الاولى صفة الفرح الناشئ عن اصابة الخير المقصود

والثانية الاسترسال في ذكر النعمة المستماحة وجميل عُقباها وطيب جناها بعد طويل انتظارها او اليأس من الحصول عليها كقول شاعر عصري يحيّي الدستور :

أَكرمْ بعصرٍ حبانا بالمساواةِ وخصَّنا بالتهاني والمسرّاتِ
عصرٌ بهِ الحرّ مأمون ومحترَمٌ وكان يُرمَى بانواع الضلالاتِ
عصرٌ بهِ المدلُ وافانا باسرتهِ والظلم ولّى باصحاب الدناءاتِ
عصرٌ بهِ قد تآخينا فليس ترى بعد الاخاء طريقاً للعداواتِ
عصرٌ بهِ قد امنّاً كل غائلةٍ من عصبة الشرّ ابناء السفاهاتِ
اللهُ اكبرُ هذا العزُّ فاشكروا خير الدعاء الى ربّ السماواتِ

وكقول ابي الحليم يحضُّ النصارى على الفرح في صبيحة عيد القيامة :

ايها المؤمنون ان يومكم هذا اشرف الايام قدرًا ، واعظم الاعياد خطرًا . . . بكر اعياد المسيح في الدار الآخرة ، والمبتّر بالنعيم الابدي واللذّات الفاخرة ، يوم قرّر في القلوب تحقيق القيامة ، واشعرنا بالخلود السرمدي في دار الاقامة . . . هذا اليوم الذي فيهِ تجدّدت الجبلة البشريّة ، وقامت الاجساد مع السيد المسيح قيامة

١) تعريفات الجرجاني

سرّية ، اليوم اعتدلت ازمان الفضائل ، وزال عن الاذهان برد شتاء الرذائل ، ازهرت اغصان القلوب ، انتثرت اوراق الخطايا والذنوب ، غاض معين الضلال ، فاض ماء الحياة الابدية من صخرة السعادة والإقبال ، اليوم تبسَّمت ثغور الأسرار ، اشرقت شموس الإيقان على صدور الابرار ، نُشِرت على رؤُوس المؤمنين أعلام الخلاص ، بُشِّر الجنس الآدميُّ بغفران الخطايا والاختصاص ، . . . انشقَّت عن درَّة الحياة صدفة الإنجيل ، ثبتت قيامة الاجساد باصحّ برهان واصدق دليل

س ما هو الحزن ؟

ج قال الجرجاني : هو عبارة عمَّا يَحصل في القلب لوقوع مكروهٍ او فوات محبوب في الماضي

س كيف يُثير الخطيب الحزن في النفوس ؟

ج من اقوى مُثيرات الحزن بسط الكلام في هول الخطب وعظم المحنة . ثم وصف مزايا المفقود وتبيين جَدارتهِ بالجزع والاسف . مع ايراد الخطيب اشدّ الالفاظ سطوةً على القلب في وصف ما تركت المصيبة في قلبهِ من الأَسى والكآبة فان دموع الخطيب تدعو الى التأَسّي بهِ وقد قيل :

اذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ مَن بَكى ممَّن تباكى

س اذكر شاهدًا في هذا الباب ؟

ج لك مثال حسن في رثاء داود لشاول ويوناتان :

الظبيُ يا اسرائيل مجدَّلٌ على روابيك . كيف تصرَّعت الجبابرة . لا تخبروا في جتَّ ولا تبشّروا في أَسواق أَشقلون لئلَّا تفرح بنات الفلسطينيين وتطربُ بنات القُلف . يا جبال الجلبوع لا يكن فيكنَّ ندًى ولا مطرٌ ولا حقول تقادمٍ لانَّهُ هناك طُرِحَ مجنُّ الجبابرة مجنُّ شاول كأنهُ لم يُمسح بدهن . عن دم القتلى وعن شحم

الجبابرة قوس يونان لم تنكص الى الوراء وسيف شاؤُل لم يرتدّ خائبًا . شاول ويوناتان محبوبان شهيّان في حياتها وفي مماتها لم يفترقا . اسرع من النسور واشدّ من الاسود . يا بنات اسرائيل ابكين على شاول الذي كان يكسوكنَّ القرمز ترفًا ويرصّع لباسكنَّ بحلي الذهب . كيف تصرّعت الجبابرة في وسط الحرب . يوناتان مجدَّل على روابيك . قد ضاق ذرعي عليك يا اخي يوناتان لقد كنتَ شهيًّا اليَّ جدًّا وكان حبّك عندي اولى من حبّ النساء وقد احببْتك حبَّ امٍّ لابنها . كيف تصرَّعت الجبابرة وبادت آلات الحرب

وقال الباجي ابو الوليد يرثي ابنهُ محمدًا :

أمحمد ان كنتُ بعدك صابرًا صبرَ السليمِ لِما بهِ لا يسلمُ
فلقد علمتُ بانني بك لاحقٌ من بعد ظنّي انني متقدّمُ
لله ذكرٌ لا يزالُ بخاطري متصرّف في صبرهِ متحكمُ
فاذا نظرتُ فشخصهُ متخيّلٌ واذا اصختُ فصوتهُ متوهَّمُ
وبكلّ ارضٍ لي من اجلك لوعةٌ وبكلّ قبرٍ وقفةٌ وتلوّمُ
فاذا دعوتُ سواك حاد عن اسمهِ ودعاهُ يأسفُ مِقوَلٌ بك مغرمُ
حكمُ الردى ومناهجٌ قد سنَّها لأولي النهى والحزن قبلُ متمّمُ

البحث الثالث

في اهواء النفس الغضبية

الرجاء والقنوط

س ما هو الرجاء ؟

ج الرجاء في اللغة الأَمل وفي الاصطلاح تعلُّق القلب في حصول محبوب في المستقبل (١

س ماذا يدعو الى الرجاء في القلوب ؟

---

١) كليات ابي البقاء والتعريفات

ج ينشأ الرجاء في القلوب بطريقتين :

الاولى ان يصف المتكلم عظم الخير المبتغى كي يصرف النفوس الى طلبهِ

الثانية ان يبيّن ان الامر المقصود ليس هو بعيد المتناوَل عزيز المطلب وانما هو بخلاف ذلك سهل الملتمس لما في اليد من الوسائل لإدراكهِ كما هي الجنود والاقوات الموفورة والعُدَد وسمو الهمّة والثقة بحول الله وضعف العدوّ الى غير ذلك كما روى المسعودي والطبري عن عليّ بن ابي طالب يوم صفين وهو يحض الانصار على معاوية واصحابهِ ويرغّبهم في مقاتلتهم :

يا معشر الانصار عمُّوا الاصوات وأكملوا اللأمة واستشعروا الخشية وقلقلوا السيوف في الاجفان قبل السلّة والحَظُوا الشزر واطعنوا الهبر ونافحوا بالظُبى وصِلوا السيوفَ بالخطى والنبال بالرماح. إن هؤلاء لن يزالوا عن موقفهم دون طعن يخرج منهُ النسيم وضرب يفلق الهام ويُطيح العظام وتسقط منهُ المعاصم والاكفّ حتى تُشدخ جباههم بعمد الحديد وتنتثر لممهم على الصدور والاذقان. اين اهل الصبر وطلّاب الأجر. طيبوا عن انفسكم نفساً فانكم بعين الله تعالى ومع ابن ابي طالب. عاودوا الكرّ واستقبحوا الفرّ فانهُ عار في الاعقاب ونار يوم الحساب. ودونكم هذا السواد الاعظم والرواق المطنّب فاضربوا بثَبَجهِ فان الشيطان راكب صميدهُ مفترش ذراعيهِ قد قدّم للوثبة يدًا واخّر للنكوص رجلًا فصبرًا جميلًا حتى ينجلي وجه الحقّ وانتم الأعلَون والله معكم ولن يتركم اعمالكم

وكما جاء في سفر تثنية الاشتراع حيث يبيّن لشعب اسرائيل ان شريعة الله ليست بعسرة الخطّة ولا وعرة المسلك قال :

ان هذه الوصيّة التي انا آمرك بها اليوم ليست فوق طاقتك ولا بعيدة منك. لا هي في السماء فتقول: مَن يصعد لنا الى السماء فيتناولها ويُسمعنا ايّاها فنعمل بها. ولا هي في عِبر البحر فتقول: من يقطع لنا هذا البحر فيتناولها ويسمعنا اياها فنعمل

بها . بل الكلمة قريبة منك جدًّا في فيك وفي قلبك لتعمل بها . انظر اني قد جعلت اليوم بين يديك الحياة والخير والموت والشرّ . بما اني آمرك ان تحبَّ الرب الهك في الارض التي انت فيها صائر لتملكها . وان زاغ قلبك ولم تسمع وملتَ وسجدتَ لآلهة اخرى وعبدتها فقد انبأتكم اليوم انكم تهلكون هلاكًا ولا تطول مدتكم في الارض التي انتم عابرون الاردنَ لتدخلوها وتتملكوها . وقد اشهدتُ عليكم اليوم السماء والارض بأني قد جعلتُ بين ايديكم الحياة والموت والبركة واللعنة فاختر الحياة لتحيا انت وذرّيتك

س ما هو القنوط ؟

ج هو عبارة عن لوعة القلب لقطع الأمل عن حصول المرغوب

س متى وكيف يحرك الخطيب القنوط ؟

ج للخطيب أن يثير القنوط في الجمهور اذا اراد ان يصرفهم عن امرٍ يريدونهُ وذلك بان يصفهُ لهم معجز الدرك تحول دون مرغوبهم مخاطر ومشاقّ لا يقتحمها الّا الغبيُّ الجاهل الباحث عن حتفهِ بظلفهِ كما فعل عنترة يوم بارز ابا يقظان بن بسطام الشيباني فقال يتهدّدهُ ويبشّرهُ بموت قريب ان طلب مقاتلتهُ :

يا ابا اليقظان اغواك الطمعْ	سوف تلقى فارسًا لا يندفعْ
زُرتني تطلب مني غفلةً	زورة الذئب على الشاة رَتعْ
يا ابا اليقظان كم صيدٍ نجا	خاليَ البالِ وصيّادٍ وقعْ
ان تكن تشكو لاوجاع الهوى	فانا اشفيك من هذا الوجعْ
بحسامٍ كلّما جرّدتهُ	في يميني كيفما مال قطعْ
وانا الاسودُ والعبدُ الذي	يقصد الخيل اذا النقعُ ارتفعْ
نسبتي سيفي ورمحي وهما	يؤنساني كلّما اشتدّ الفزعْ

يا بني شيبان عمّي ظالمٌ وعليكم ظلمهُ اليوم رَجعْ
ساقَ بِسطاماً الى مصرعهِ عالقاً منهُ باذيال الطمعْ
وانا اقصدهُ في ارضكم وأُجازيهِ على ما قد صنع

الشجاعة والجبن

س ما هي الشجاعة ؟

ج هي هيئة حاصلة للقوّة الغضبيّة بها يُقدم الانسان على ما يجبُ الإقدام عليهِ مع التعرُّض للمكاره الحائلة دون المرغوب

قال يحيي ابن عدي والقزويني : ومن اخص سمات الشجاعة الاقدام على الامور التي يحتاج الانسان ان يعرّض نفسهُ لها لدفع المكاره والآلام الواصلة اليهِ مع ثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت وهو بالأشراف والملوك أليق بل لا يستحقون المُلك مع عدم هذه الخلّة . والشجاعة متوسطة بين الجبن والتهوُّر فيكون كما قال معاوية :

شجاعٌ اذا ما امكنتنيَ فرصةٌ وان لم تكن لي فرصةٌ فجبانُ

س ما هي بواعث الشجاعة ؟

ج يبعث الخطيب على الشجاعة بان يرغّب السامعين في حصول المحبوب اللهمَّ اذا كان شريفاً جليلاً ويشهّيهِ الى القلوب فيبعثها الى طلبهِ كما قال ابن عمار يُغري اهل بلنسية على ابي بكر بن عبد العزيز وبنيه :

بشّرْ بلنسيةً وكانت جنّةً أَن قد تدلّت في سواء النارِ
جارُوا بني عبد العزيز فانهم جرّوا اليكم اسوأَ الاقدارِ

ثوروا بهم متأوّلين وقلّدوا مَلِكاً يقوم على العدوّ بثارِ
جاء الوزير بها يكشّفُ ذيلَها عن سوأةٍ سوأى وعارٍ عارِ
نكثَ اليمينَ وحاد عن سَنَن العلى وقضى على الإقبال بالادبارِ
آوى لينصرَ من نأى المثوى بهِ ودهاهُ خذلانٌ من الانصارِ
ما كنتمُ الّا كأُمّة صالح فرُميتمُ من طاهرٍ بقُدارِ
هلّا وخصّكم بأشأم طائرٍ ورمى دياركمُ بألأم جارِ
بَرَّ اليمينَ ولم يمرّض نفسهُ ونفوسكم لمصارع الفجّارِ
لا بدَّ من مسح الجبين فانما لطمتهُ غدرًا غيرُ ذات سوارِ

(راجع ايضاً قصيدة صفي الدين الحليّ يحرّض سلطان ماردين على حضور حصار اربل في الصفحة ٥٩ من الجزء السادس من مجاني الادب)

(فائدة) انَّ الفرق بين الرجاء والشجاعة انَّ الرجاء لا يقتضي الاقدام على الامر بخلاف الشجاعة التي تهيجها المخاطر فتبعثها على مقاومة من يحول بين الشجاع ومرغوبهِ

ومن اقوى اسباب الشجاعة ذكر الأمداد العلويّة كما فعل يهوذا المكابي بجيشهِ وكانوا عند رؤيتهم عسكر ملك سوريَّة مقبلًا هتفوا: «كيف نطيق قتل مثل هذا الجمع القوي ونحن نفر يسير». فقال يهوذا:

ما اسهلَ ان يُدفع الكثيرون الى ايدي القليلين وسواءٌ عند اله السماء ان يخلّص بالكثيرين وبالقليلين. فانهُ ليس الظفر في الحرب بكثرة الجنود وانما القوة من السماء. اولئك يأتونا بجمعٍ من ذوي الشتائم والنفاق ليبيدونا نحن ونساءنا واولادنا ويسلبونا. وأما نحن فنحارب عن نفوسنا وسُنَنِنا. وهو يكسرهم امام وجوهنا فلا تخافوهم

وكقولهِ في موطن آخر:

«لا تخافوا كثرتهم ولا تخشوا بطشهم اذكروا كيف نجا اباؤنا في بحر القلزم حين تتبَّعهم فرعون بجيشهِ فالان فلنصرخنَّ الى السماء لعلَّهُ يتذكَّر عهد آبائنا ويكسر هذا الجيش امامنا. اليوم فلتعلم كل الامم ان لاسرائيل فاديًا ومخلصاً»

س ما هو الجبن

ج الجبن او الخوف هيئة حاصلة للقوّة الغضبيّة بها يُحجم عن مباشرة امر لِما يتوهَّم بهِ من الاهوال

س كيف يتمكن الخطيب من القاء الخوف في القلوب ؟

ج بثلاث وسائل :

الاولى ان يُنذر الجمهور بخَطب عظيم وطامّة كبيرة كانتشاب حرب ووقوع مجاعة وحلول أَجَل وسوء مطّلعِ يومَ الدين وغير ذلك من المهاول التي تلقي الذُّعر في القلوب كقول الزمخشري في التحذير من الدنيا :

خفَّ الزاد ، وجفَّ المزاد ، وطال السيل ، وحار الدليل ، وما يُدريك على مَ تقدم ، أَتثبت ام تزلُّ بك القدم ، يا جمودَ العين ، كأَنك بغراب البين ، اين ادمعك الذوائب ، وقد شابت منك الذَّوائب ، تمشّش أُمُّ الرَّدى وتبيض ، حيث تطلع الشمرات البيض ، ولم يبق الَّا الحَمْل على الآلة الحدباء ، والطرح تحت الرمل والحصباء

وكقول زهير في التحذير من الحرب :

وما الحربُ الَّا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متَى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتَضْرَ اذا ضرَّيتموها فتضرَمِ
فتعرككمُ عَرْكَ الرحى بثفالها وتَلقح كِشافًا ثمَّ تَنتُج فتُتئِمِ
فتُنتِج لكم غلمان أَشأَم كلهم كأحمرِ عادٍ ثمَّ ترضع فتَفطمِ
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغلُّ لاهلها قرًى بالعراق من قفيزٍ ودرهمِ

الثانية ان يتوعد السامعين بقرب حلول المكروه او سرعة

فوات المحبوب فان الشرّ المتوقع حلواهُ اشدّ عملًا في القلوب

كما قال ابو العتاهية :

أنلهو وايَّامنا تذهبُ ونلعبُ والموتُ لا يلعبُ
عجبتُ لذي لعبٍ قد لها عجبتُ وما ليَ لا أعجبُ
أيلهو ويلعب مَن نفسهُ تموت ومنزلهُ يخربُ
نرى كلّ ما ساءنا دائماً على كل ما سرّنا يغلبُ
نرى الخلق في طبقات البلى اذا ما همُ صعّدوا صوّبوا
نرى الليل يطلبنا والنها رَ لم ندرِ أيّهما أطلبُ
أحاطَ الجديدان جمعاً بنا فليس لنا عنهما مهربُ
وكلٌّ لهُ مدةٌ تنقضي وكلٌّ لهُ أثرٌ يُكتبُ
الى كم تُواقع نهيَ المشيب م يا ايها اللّاعبُ الاشيبُ
وما زلت تجري بك الحادثا تُ تسلمُ منهنَّ او تُنكَبُ
ستُعطي وتُسلَب حتى تكو ن نفسُكَ آخرَ ما يُسلَبُ

الثالثة ان يبيّن الشرّ خصيصاً بالسامع يترصَّدهُ دون غيرهِ فان النفوس تؤثر خيرها الخاصّ ولا تُرعَج لما عمَّ من الخطوب

كقول ابي الحليم ينذر الخاطئ بحلول الاجل والعقاب السريع :

ايها الخاطئ أيقظْ غفلةَ العقل من رقدة الاهمال ، وتنبَّه لايقاد الاضواء بدُهن صوالح الاعمال ، قبل ان تندرج الايام ، وتنقرض الاعوام ، وتقرّب مدة الآجال ، وتقصر الألسن عن الأجوبة والسؤال ، حيث يحصد كلُّ امرئٍ ما زرع ، ويجازى من الله على كل ما صنع ، ويُقدم على ما قدَّم ، ويتنهَّد الاثيم ويتندَّم ، يوم اضطراب الشيخ الكبير على ما اسلف ، وانتحاب الكهل الخطير على ما اتلف ، يوم يمتطي مخلّص الكلّ صهوةَ السحاب النوريّ ، ويدين لجلالهِ كل شَجِبٍ وبريّ ، يوم تصرّ اسنان الطالحين لمخوف هول النقم ، وتثلج افئدة الصالحين باشهى سنيّ النعم ، يوم نشوة المؤمنين ، يوم غشوة المجرمين ، يوم خاتمة الازمان ، يوم انقضاء الاوان ، يوم ليس لهُ ثانٍ ، فيا نضارة وجوه الابرار فيهِ اذا حلّوا عِراص الملكوت ، ويا خسارة متاجر الاشرار بما تعاينهُ من المخازي والبهوت ، ألا رحم الله امرءًا تجلبب نفائس ملابس الوليمة الآخرة ، وآثر الخيرات الآجلة بما عجّل في الحاضرة

الغضب والحلم

س ما هو الغضب ؟

ج هو حركة في النفس تتوجه الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفّي والانتقام بعد وقوعها (١

قال الغزّالي : انّ قوت هذه القوّة الغضبيّة وشهوتها الانتقام . وفيهِ لذّتها ولا تسكن الّا بهِ . ثم ان الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في اول الفطرة في التفريط والافراط والاعتدال. امّا التفريط فبفقد هذه القوّة او ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيهِ : لا حميّة لهُ . . . واما الإفراط فهو ان تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعتهِ ولا يبقى للمرء معها بصيرة . واما الاعتدال فهو ان تنبعث الحمية حيث يجب وتنطفئ حيث يحسن العلم (اه) . والكلام هنا على هذا الغضب المعتدل

س ماذا يهيج الغضب ؟

ج شيئان :

الاوّل ذكر الاهانة وتعظيم الأذى وتحريك كامن الحفائظ كما فعلت عفيرة بنت غفار (ويروى : عفّان) وكان بنو طسم انتهكوا حرمتها :

أيجملُ ان يُؤتَى الى فتياتكم وانتمُ رجالٌ فيكمُ عدد الرملِ
ايجمل تمشي في الدماء فتاتكُم صبيحةَ زُفَّت في العشاء الى بَعلِ
فان انتمُ لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساءً لا تغبُّ عن الكحل
ودونكمُ ثوب العروس فانّما خُلقتم لاثواب العروس وللغسلِ

(١ احياء علوم الدين للغزالي

فلو انّنا كنّا رجالًا وكنتمُ نساءً لكنّا لا نقرُّ على الذلِّ
فموتوا كرامًا او أَميتوا عدوَّكم وكونوا كنار شبَّ بالحطب الجزلِ
والّا فخلّوا الدارَ ثم تحمَّلوا الى بلد قفر وموتوا من الهزلِ
فلَلْموتُ خيرٌ من مقام على أَذى وَلَلْهزلُ خيرٌ من مقام على ثكلِ
فدبّوا اليهم بالصوارم والقنا وكل حسام محدَث العهد بالصقلِ
ولا تجزعوا الحرب قومي فانّما تقوم باقوام كرامٍ على رجلِ
فيهلك فيها كلُّ وغلٍ مواكلٍ ويسلمُ فيها ذو الجلادة والفضلِ

الثاني بيان ضرورة التشفي كقول الحلّي للسلطان الملك الصالح يحرضهُ على قوم عاثوا في اطراف بلادهِ من قصيدة قالها في يوم عيد النحر:

فيا ملكًا قد اطمع الخصمَ حلمهُ لكثرة ما يهفو فتعفو وتصفحُ
أَعِدْ غير مأمورٍ على الضدِّ كيدهُ وأَذكِ لهُ النار التي بات يقدحُ
فقد ايقن الاعداءُ انك راحمٌ فباهوا بافعال الخناء وسجّحوا
اذا ما فعلتَ الخيرَ ضوعف شرُّهم وكلُّ اناءٍ بالذي فيهِ ينضحُ
ولو تابعوا قولَ الالهِ وامرهُ لقالوا بانَّ الصلح أَللخلق اصلحُ
تَهَنَّ بعيد النحر وانحر بهِ المدى فجودك عيدٌ للورى ليسَ يبرحُ
وضحِّ بهم لا زلتَ تنحر مثلهم ومن دون مغناك المقائر تذبحُ

(راجع ايضاً في الجزء السادس من مجاني الادب العددين ٣٩ و٤٠)

ويلحق بتحريك الغضب المُنصف تحريك عظم الهمَّة وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الامور (١ قال ابو العتاهية:

ولم ار في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على الكمالِ

ومن محاسن الشواهد في ذلك قول اسماعيل المقَري يستنهض همَّة المتغافلين عن طلب ثواب الآخرة:

اترضى من العيش الرغيد وعيشةٍ مع الملاِ الأَعلى بعيش البهيمةِ
فيا دُرَّةً بين المزابل أُلقيَت وجوهرةً بيعت بأَبخس قيمةِ

١) تهذيب الاخلاق لابن عديّ

افانٍ بباقٍ تشتريهِ سفاهةً وسخطاً برضوانٍ وناراً بجنَّةٍ
فلو فعل الاعدا بنفسك بعض ما فعلتَ لمستَّهم لها بعضُ رحمةٍ

ويجوز ان تُلحق بالغضب اهواء اخرى يمتزج فيها الغضب بعواطف غيرها كالأَنفة وهي نبوُّ النفس عن الامور الدنيَّة والغضب عند الاحساس بالنقص. وكالحميَّة حدَّها في التعريفات: المحافظة على الحرَم والدين من التهمة . وكالغَيْرة وهي النخوة لتعدّي الحقوق (١ . وهذه العواطف تثار ببيان عظم النقص وضرورة اصلاحهِ وتغلُّب الخصم على الحقوق فيشمئزّ السامع عمَّا يسومهُ خسفاً ويشين عرضهُ فيردّد قول الحريريّ :

المنايا ولا الدنايا وخيرٌ من ركوب الخنا ركوبُ الجنازهْ

س اضرب مثلًا في تحريك عواطف النفور والحميَّة

ج لك في ذلك مثال حسن في خطبة لعليّ حمل فيها اهل الكوفة على معاوية واهل الشام فقال :

ايها الشاهدة ابدانهم الغائبة عقولهم المختلفة اهواؤهم المبتلي بهم امراؤهم . صاحبكم يطيع الله وانتم تعصونهُ وصاحب اهل الشام يعصي الله وهم يطيعونهُ . لوددتُ حقًّا ان معاوية صرفني بكم صرفَ الدينار بالدرهم فاخذ مني عشرة منكم واعطاني رجلًا منهم . يا اهل الكوفة مُنيتُ بثلاث واثنتين ، صمٌّ ذوو اسماع ، وبُكمٌ ذوو كلام ، وعميٌ ذوو ابصار ، لا احرارُ صدقٍ عند اللقاء ، ولا اخوان ثقة عند البلاء ، يا اشباه الابل غاب عنها رعاتها ، فكلَّما جُمعَتْ من جانب تفرَّقت من جانب آخر ، وحقًّا لكأني بكم إخال ان لو حَمس الوغى وحَمي الضراب انفرجتم عن ابنْ ابي

١) راجع في مقالات علم الادب (ج ٢ ص ٦٨) ما قالهُ زكرياَّ بن عدي في هذه الاهواء

طالب وخلّفتموهُ شريدًا طريدًا ، أما والذي نفسي بيده ليظهرنَّ هؤلاء القوم عليكم ليس لانهم اولى بالحقّ منكم ولكن لإسراعهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حقي . ولقد اصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها . واصبحتُ اخاف ظلم رعيّتي . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا واسمعتكم فلم تسمعوا . ودعوتكم سرًّا وجهارًا فلم تستجيبوا . ونصحتُ لكم فلم تقبلوا . أشهودٌ كغياب . وعبيدٌ كارباب . أتلو عليكم الحِكَم فتنفرون منها . وأعظكم بالموعظة البالغة فتنفرون عنها واحثّكم على جهاد اهل البغي فما آتي على آخر القول حتى اراكم متفرّقين ايادي سبأ ترجعون الى مجالسكم . وتتخادعون عن مواعظكم

وممَّا جاء في الحميَّة والأَنفة مع إثارة الغضب والبغض مــا ذكره المسعودي :

لمَّا قُتل عليّ كان في نفس معاوية من يوم صفّين على هاشم بن عتبة وولده إحَن فحُمل اليهِ مقيّدًا مغلولًا الى دمشق . فأُدخل الى معاوية وعنده عمرو بن العاصي فقال معاوية لعمرو : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول ابوهُ يوم صفّين :

انّي شريتُ النفسَ لمَّا اعتلَّا وأكثر اللَّومَ وما اقلَّا
أَعورُ يبغي اهلهُ محلَّا قد عالج الحياة حتى ملَّا
لا بد ان يَفُلَّ او يُفَلَّا اشلّهم بذي الكعوب شلَّا
لا خير عندي في كريمٍ ولّى

فقال عمرو متمثلًا :

لقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

دونك يا امير المؤمنين الضبّ والمضبّ فاشخَبْ اوداجهُ على اثباجهِ . ولا تردّه الى العراق ، فانهُ لا يصبر عن النفاق ، وهم اهل غدر وشقاق ، وحزب ابليس ليوم هيجاء وان لهُ هوًى سيردُّهُ ورأيًا سيطغيهِ وبطانةً ستقويهِ . وجزاء سيئةٍ سيئة مثلهــا

ولمَّا آثر معاوية الحلم واطلق سبيل عبدالله قال عمرو لمعاوية :

امرتُك امرًا حازمًا فعصيتَني وكان من التوفيق قتلُ ابن هاشمِ
أليسَ ابوهُ يا معاويةُ الذي أَعانَ علينا يوم حزّ الغلاصمِ

فلم يَنْثَنِ حتى جرت من دمائنا بصفّين امثالُ البحورِ الخضارمِ
وهذا ابنهُ والمرء يشبهُ شبجهُ وتُوشك ان تقرَع بهِ سنَّ نادمِ

وربّما اردفوا بهذا الباب المنافسة والحياء . قال زكريا بن عديّ (١ : المنافسة هي منازعة النفس الى التشبُّه بالغير فيما يراهُ المرء ويرغب فيهِ لنفسهِ والاجتهادُ في الترقّي الى درجةٍ اعلى من درجتهِ . وهذا الخلقُ محمود اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العاليه وفيما يكسب مجدًا وسؤددًا

س كيف تثار المنافسة ؟

ج بوصف محاسن الذين يُستحبُّ الاقتداء بهم وبيان العار الذي يلحَق بالحضور ان تأخروا في تقفّي آثارهم كقول علي يذكر الزهّاد ويحرّض قومهُ على التأسّي بهم :

لقد رأيتُ مَن تقدمكم فما ارى بينكم احدًا يشبههم . لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا . وقد باتوا سجّدًا وقيامًا يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم . اذا ذُكر الله هملت اعينهم حتى تبلّ جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفًا من العقاب ورجاء للثواب . فالزموا سَمْتَهم ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا

وقال ايضاً من خطبة يعرض مثل السيّد المسيح وزهد حياتهِ :

تأسّوا بالانبياء الاطهار واقتصّوا بآثارهم . انظروا الى عيسى ابن مريم فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامُهُ الجوع وسراجهُ بالليل القمر وظلالهُ في الشتاء مشارق الارض ومغاربها وفاكهتهُ ما تنبت الارض للبهائم . ولم تكن لهُ زوجة تفتنهُ ولا طمع يذلّهُ . دابّتهُ رجلاه وخادمهُ يداه

---

١) اطلب مقالات علم الادب (٢ : ٦٧)

امّا الحياء فعرّفهُ الجرجانيّ بقولهِ: هو انقباض النفس من شيءٍ وتركهُ حذراً من اللّوم فيهِ (١. وتحريكهُ في القلوب بان يصف الخطيب سماجة الامر الذي يقصد الردّ عنهُ مع بيان قبح الاحدوثة بفعلهِ. والحياء اعمل في قلوب الاشراف منـهُ في قلوب العامّة قال الشاعر:

اذا قلَّ ماء الوجه قلَّ حياؤُهُ ولا خير في وجهٍ اذا قلَّ ماؤُهُ
حياءك فاحفظهُ عليك فانّما يدلُّ على فعل الكريم حياؤُه
اذا حُرم المرء الحياء فانّهُ بكل قبيح كان منهُ بلاؤُه

والامثال كثيرة في ذلك منها: ما جاءَ في ديوان ابي العتاهية عـن عبدالله بن معن من جملة ابيات

ارى قومك ابطالاً وقد اصبحت بطّالا
فصُغْ ما كنتَ حلّيتَ به سيفك خلخالا
ومـا تصنع بالسيف اذا لم تكُ قتّالا

(راجع الصفحة ٣٣٤ و٣٣٥ من ديوانه)

ومن خطب عليّ التي رواها عنهُ الجاحظ بالاسناد قولهُ لاهل الكوفة وكانوا خذلوه في حروبهِ:

ايّها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم. كلامكم يوهي الصُّمَّ الصِلاب وفعلكم يُطمع فيكم عدوّكم. تقولون في المجالس: كيت وكيت. فاذا جاء القتال قلتم: حيدي حيادِ. ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم. اعاليل باضاليل. سألتموني التأخير هيهات دفاع ذي الدَّين الممطول لا يمنع الضيم الذليل ولا يُدرَك الحقّ الّا بالجدّ. ايّ دار بعد داركم تمنعون. ام مع ايّ إمـام بعدي تقاتلون. المغرور والله من غررتموهُ. ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيَب. فلا

١) تعريفات الجرجاني (ص ١٠٠)

اصدق قولكم ولا اطمع في نصركم فرَّق الله بيني وبينكم . واعقبني بكم من هو خير لي منكم . لوددت ان لي بكل عشرة منكم رجلًا من بني فراس بن غنم صَرفَ الدينار بالدرهم

وللحليّ من ابيات كتب بها الى صديق لهُ وعدهُ بالمساعدة في واقعة فاخلف :

وعدتَ جميلًا واخلفتَهُ وذلك بالحرِّ لا يجملُ
وقلتَ بانَّك لي ناصرٌ اذا قابلَ الجحفلَ الجحفَلُ
وكم قد نصرتُكَ في مَعركٍ تحطَّم فيهِ القنا الذُّبَّلُ
ولستُ امنُّ بفعلي عليكَ فأُعجَبُ بالقولِ ان اعجلُ
بذا يتفاوتُ قدرُ الرجالِ فيعلمُ ايهمَ الاكملُ
كما قالهُ الصقرُ في عزَّةٍ بهِ حين فاخرهُ البلبلُ
وقال : اراك جليسَ الملوك ومن فوقِ ايديهم تُحمَلُ
وانت كما علموا اخرسٌ وعن بعض ما قلتهُ تنكلُ
وأُحبَسُ مع انني ناطقٌ وقدريَ عندهمُ مُهملُ
فقال : صدقتَ ولكنهم بذاك دروا انيَ الافضلُ
لاني فعلتُ وما قلتُ قطُّ وانتَ تقولُ وما تفعلُ

س ما هو الحلم ؟

ج هو الطمأنينة عند سورة الغضب .قال يحيى بن عديّ في تهذيب الاخلاق (١ : هو ترك الانتقام عند شدَّة الغضب مع القدرة على ذلك . وهذا الحال محمود ما لم يؤدِّ الى ثَلْم جاهٍ او فساد سياسة . وهو بالملوك والرؤساء احسن لانهم اقدر على الانتقام من مبغضيهم

---

١) مقالات علم الادب (٢ : ٦٢)

س كيف يُخمد الخطيب سورة الغيظ ويدعو الى الحلم والمسامحة ؟

ج هذه ادعى الوسائل لحسم الغضب وكظم الغيظ (١ :

اوّلها الاقرار بالذنب لانهُ كما قيل : الاعترف يزول بهِ الاقتراف. والمعترف بالجريرة مستحقّ للغفيرة. وقال ابن حازم:

اذا ما امروءٌ من ذنبهِ جاءَ تائباً اليك فلم تغفر له فلك الذنبُ

وهذه طريقةٌ طالما استعملَها اهل الجنايات للاستغفار قال ابو نواس يعتذر الى الفضل الوزير من ذنب :

اَقِلْني قد ندمتُ منَ الذنوبِ وبالاقرار عدتُ عن الجحودِ
فاستدعي لعفوك عن قريبٍ كما استدعيتَ سخطكَ عن بعيدِ
فان عاقبتَني فبسوءِ فعلي ولم تظلم عقوبة مستفيدِ
وان تعفو فإحسانٌ جديدٌ سبقتَ بهِ الى شكرٍ جديدِ

ثانيها الإخبات والخنوع وذلك اذا كان الجاني دون المستعطَف رتبةً وقدرًا . او كان ذنبهُ عظيماً . فعليهِ ان يذلل نفسهُ ويستكين لذوي القدرة متَّضعًا . كما فُعل ابراهيم المهدي عند المأمون بعد عصيانهِ عليهِ فانشدهُ :

اذنبتُ ذنبًا عظيماً وانت للعفو اهلُ
فان عفوتَ فمنٌّ وان جزيتَ فعدلُ

ثالثها ذكر الحلم وفضل اكظم الغيظ على التشفّي والانتقام كما قيل : ان افضل الاعمال الحلم عند الغضب. وقال الشاعر :

١) ملخص عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي

واصفحْ اذا أذنب مرءٌ عسى　　تلقى اذا اذنبتَ من يصفحُ

رابعها وصف ما يجنيهِ الحليم من الشكر والثناء والاسم المخلَّد . قال البحتري :

اذا انت لم تضرب عن الحقد لم تفُزْ　　بشكر ولم تسعد بتقريظ مادحِ

خامسها حسن تبرّؤ الجاني من ذنبهِ . كما لو ذكر صفاء مودَّتهِ وحسن نيَّتهِ في صنيعهِ وانهُ لم يأتِ ما اتى الاسهواً ويُدمج كل ذلك في الاسف على غيظهِ للمعاتب مع ابداء الرغبة في الرجوع عمَّا ساءهُ . وذلك كما كتب ابو المظفَّر أُسامة ابن مرشد الى ابيهِ وكان مغتاظاً عليهِ :

وما اشكو تلوّنَ اهلِ ودّي　　ولو أَجدَتْ شكيَّتُهم شكوتُ
مللتُ عتابهم ويئستُ منهم　　فما ارجوهمُ فيمن رجوتُ
اذا ادمتْ قوارصُهم فؤَادي　　كظمتُ على اذاهمُ فانطويتُ
ورحتُ عليهم طلقَ المحيَّا　　كأني ما سمعتُ ولا رأيتُ
تجنّوا لي ذنوباً ما جنتْها　　يداي ولا امرتُ ولا نهيتُ
ولا واللهِ ما اضمرتُ غدرًا　　كما قد اظهروهُ ولا نويتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو　　صحيفةُ ما جنوهُ وما جنيتُ

سادسها انتهاز الفُرَص كيوم عيد ومجلس أُنس مع الاستعانة بمن يُشفَّعون . كما فعلت استير مع احشورش الملك وابيجائيل مع داود . ولابي العتاهية ابيات ارسلها لموسى الهادي يستعطفهُ وكان هذا الخليفة جلس للشعراء فلم يجسر ابو العتاهية ان يحضر ناديهُ :

أَلا شافعٌ عند الخليفة يشفعُ　　فيدفعُ عنَّا شرَّ ما نتوقَّعُ
واني على عظم الرجاء لخائف　　كأن على رأسي الاسنّة تُشرعُ

يروّعني موسى على غير عثرةٍ ومالي ارى موسى من العفو اوسعُ
وما آمنٌ يُمسي ويصبح آمناً بعفو امير المؤمنين يروَّعُ

فرضي عنهُ الهادي وأمر بدخولهِ واجازهُ

ومن قبيل الحلم الرحمة وهي: رقّة القلب على من حلَّ بهِ شي من المكاره

س كيف يتوسّل الخطيب الى تحريك الرحمة في القلوب ؟

ج بأن يبسط الكلام في ما لحق المصاب من البلايا والخطوب مع ذكر الظروف التي تريدها فجعةً وتأثيراً كمدَّتها وفظاعتها ولاسيما اذا كان المبتلَى من الاصحاب والانسباء او سيّد قومهِ . ومن جيد ما جاء في الاسترحام رسالة يحيى البرمكي الى هارون الرشيد بعد نكبتهِ وسجنهِ وقتل ابنهِ جعفر :

. . . من عبدٍ اسلمتهُ ذنوبهُ، واوبقتهُ عيوبهُ، وخذلهُ صديقهُ، ورفضهُ شقيقهُ، فراع بهِ الزمان، واناخ عليهِ الحدثان، فصار الى الضيق بعد السَّعة، وعالج البؤس بعد الدَّعة، وافترش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافتقد الهجوع فليلتهُ دهر، وساعتهُ شهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعاً يا امير المؤمنين حجب الله عني فقدك، لِما أُصبتُ بهِ من مدك، ولا لمصيبتي بالاهل والمال والوُلد، فانَّ ذلك كان بك وعاريةٌ في يدي منك ولا بأس ان تُستردَّ العواري . إمَّا المحنة بجعفر فبجرمهِ آخذتهُ وبجريرتهِ عاقبتهُ . . . فاذكر يا امير المؤمنين حُرمتي ونصيحتي وخدمتي، وارحم ضعفي وشيبتي، وهبْ لي رضًى عنك فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة، وقد رجوتُ ان يظهر عند الرضى وضوح عذري وصدق نيّتي وظاهر طاعتي

انظر الى الشيخ الكبيـ ـر فنفسهُ لك راجيهْ
اليوم قد سلب الزما نُ كرامتي وجمائيهْ
ورمى سواد مقاتلي فاصابَ حين رمانيهْ

يكفيك ما ابصرت من ذلّي وذلّ مكانيهْ
ان كان لا يكفيك الّا م ان اذوق حِماميَهْ
فلقد لقيتُ الموت من قبل المات علانيَهْ
وفُجعتُ اعظمَ فجعةٍ وفَنيت قبل فنائيَهْ
يا نعمة الملك الرضى عودي علينا ثانيَهْ

ثانياً ان تبين انَّ من طرأَت عليهِ المحن لم يكن ليستحقّها وانما تحامل عليهِ دهرهُ ظلماً . كما جاء في المقامات الحريريَّة على لسان غلام يستعطف سيّدهُ كيِ لا يبيعهُ :

لحَاك الله هل مثلي يُباع لكيما تشبعَ الكَرِشُ الجياعْ
وهل في شِرْعة الانصاف أنّي أُكلَّفُ خطّةً لا تستطاعْ
وان أُبلى برَوعٍ بعد روعٍ ومثلي حين يُبلى لا يُراعْ
أما جرَّبتني فخبرتَ منّي نصائحَ لم يمازجها خداعْ
وكم ارصدتَني شَرَكاً لصيدٍ فمدتُ وفي حبائلي السّباعْ
ونُطتَ بيَ المصاعبَ فاستفادت مطاوعةً وكان بها امتناعْ
وايّ كريهةٍ لم أبلِ فيها وغُنمٍ لم يكن لي فيهِ باعْ
وما أبدت ليَ الايامُ جرماً فيُكشفَ في مصارمتي القناعْ
ولم تمتر بحمد الله مني على عيبٍ يُكتَّم او يُذاعْ
فأنّى ساغ عندك نبذُ عهدي كما نبذت بَرايتها الصُّناعْ
ولِمْ سمحتْ قرونك بامتهاني وان يُشرى كما يُشرى المتاعْ
على اني سأُنشِد عند بيعي : اضاعوني وايَّ فتًى اضاعوا

ثالثاً ان تأتي ببعض آثار تعرضها على مرأى السامعين فتعمل رؤيتها في قلبهم . كما لو اردتَ حَمْل القلوب على الاشفاق لفقير ان تظهر اطمارهُ وتُري صغارهُ . او لقتيل فتعرض جثمانهُ مضرَّجاً بالدم ومثخناً بالجراح وهلمَّ جرًّا . كما جاء في المقامات البديعيَّة على لسان الاسكندري مستعطياً :

أما تروني اتغشى طمرا ممتطياً في الضر امرا مرًا
وكان هذا الحرُّ أعلى قدرًا وماء هذا الوجه أغلى سعرًا
فانقلب الدهرُ لبطنٍ ظهرا وعاد عُرفُ العيشِ عندي نُكرا
لولا عجوزٌ لي بسُرَّ مَنْ را وا فرخٌ دون جبال بُصْرى
قد حلبَ الدهرُ عليهم ضُرًّا قتلتُ يا سادتي نفسي صبرا

رابعاً ومن اخصّ ما يهيج الرحمة في القلوب ان يلوح على وجه الخطيب ويؤخذ من كلامهِ ما عملت في نفسهِ فاجعة المُصاب ليكون اللسان ترجمان الجنان . قال ابو تمّام :

وممَّا كانت الحكماء قالت : لسان المرء تبعٌ للفؤادِ

ومن الاقوال الآخذة باعنّة القلوب الدالّة على اتّصاف قائلها بحسن التأثير ما ورد عن ابي فراس الحمداني وهو في الأسر يذكر امَّهُ في مَنبج :

لولا العجوزُ بمنبجٍ ما خفتُ أسباب المنيَّهْ
ولكان لي عمَّا سألتُ من الفدى نفس ابيَّهْ
لكن اردتُ مُرادها ولو انجذبتُ الى الدنيَّهْ
امست بمنبجَ حرَّةٌ بالحزن من بعدي حريَّهْ
فيها التُقى والدين م مجموعان في نفسٍ زكيَّهْ
لا زال يطرق منبجاً في كل غادية تحيَّهْ
يا أُمَّتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيَّهْ
يا أُمَّتا لا تيأسي لله ألطافٌ خفيَّهْ
أُوصيكِ بالصبر الجميل م فانهُ خيرُ الوصيَّهْ

ولهُ ايضاً كتب بهِ لسيف الدولة وقد بلغهُ علّة والدتهِ إشفاقاً على ابنها وهو في الأَسر اذ لم يرضَ سيف الدولة ببذل الفدى عنهُ :

يا حسرةً ما أكاد احملها آخرُها مُزعجٌ واوّلُها
عليلة بالشآم مفردَةٌ بات بايدي العدى مُعلّلها

تُمسك احشاءها على حُرَق ... تطفئها والهموم تُشعلُها
اذا اطمأنَّتْ وأينَ لو هدأت ... عنتْ لها فكرة تقلقلها
تسأل عنَّا الركبانَ جاهدةً ... بأدمعٍ ما تكاد تُمهلها
يا سيّدًا لا يَعدُّ مكرمةً ... الّا وفي راحتيهِ اكملها
انت سماءٌ ونحن انجمها ... انت بلادٌ ونحن اجبلُها
انت سحابٌ ونحن وابلهُ ... انت يمينٌ ونحن أَنْملُها
بأيّ عذر رددتَ والهةً ... عليك دون الورى مُعوَّلها
تلك العقود التي عقدتً لنا ... كيف وقد أحكمتْ تُحلّلها
ارماحنا منك لا نقطّعُها ... ولم تزل دائبًا نوصّلها
سمحتُ مني بمهجةٍ كَرُمت ... انت على يأسها مؤمّلها
ان كنت لم تبذل الفداء لها ... فلم ازل في هواك ابذلها
تلك المَودَّات كيف تُهملها ... تلك المواعيد كيف تُغفلها
اين المعالي التي عُرفتَ بها ... تقولها دائبًا وتفعلها
يا واسع الدار كيف توسعها ... ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدلهُ ... ثيابنا الصوفُ ما نبدّلها
يا راكب الخيل لو بصرتَ بنا ... نحمل اقيادنا وننقلها
رأيتَ في الضرّ وجهًا قد كرمت ... فارقَ فيكَ الجمالَ اجملُها
قد اثر الدهر في محاسنها ... تعرفها تارةً وتجهلها
لا يفتح الناس باب مكرمة ... صاحبها المستغاث يقفلها
اين يُرَى دونك الكرام لها ... وانت قمقامها وافضلها
فان سألنا سواك عارفةً ... فبعد قطع الرجاء نسألها
لم يبق في الناس أُمَّة عُرفت ... الّا وفضل الامير يشملها
نحن احقُّ الورى برأفتهِ ... فاين عنَّا وكيف مُعدَلها
يا منفق المال لا يريد بهِ ... الّا المعالي التي يؤثّلها
اصبحتَ تشري مكارمًا فضُلت ... فداؤنا ما علمتُ افضلها
لا يقبل الله قبل فرضك ذا ... نافلةً عندهُ تُنقّلها

الاصل الثاني

التنسيق

س ما هو التنسيق ؟

ج التنسيق في اللّغة التنظيم والترتيب. وفي الاصطلاح هو عبارة عن انتظام معاني الخطابة وسياق اجزائها وسرد ادلّتها على طريق نظام واحد

س ما المقصود من التنسيق ؟

ج المقصود منهُ ان يُحكَم تركيب الخطبة وارتباطُ اقسامها بحيث تكون أَبيَن غرضًا واحسن وقعاً في النفوس

س ما شرف التنسيق ؟

ج ان التنسيق من اعظم اركان البلاغة .وقد حدَّ بعض الاقدمين البلاغة : تصحيح الاقسام. فهي بمنزلة المصافّ في العسكر .فلا نصرة لجيش لم يرعَ حسن النظام.وكذلك لولا ترتيب الخطبة لَما اصغى السامع الى كلام الخطيب او ما ادركَ الموضوع الّا بعد الجهد الجهيد فلا يتحرَّكُ من ثمَّ لمقالهِ مهما كان بليغًا

س كم قسماً للخطبة ؟

ج قد اختُلف في تقسيم الخطبة . فمنهم من قسمها الى

سبعة اقسام هي : الفاتحة والقضيَّة والتقسيم وايضاح المقصد والاثبات وردّ الخصم والخاتمة .ومنهم من زاد على ذلك ومنهم من نقَّص . وانما مرجع هذهِ التقاسيم الى ثلاثة اشياء : المقدمة والاثبات والخاتمة

الباب الاول
في المقدمة

س ما هي المقدمة ؟

ج هي فاتحة الكلام ومرجع فحواه

س ماذا تقتضيهِ المقدمة ؟

ج لمَّا كانت المقدَّمة بمثابة الاساس من البناء والرأس من الاعضاء لزم الخطيب ان يصرف العناية في تطريز بُردتها ونسج لُحمتها

س ما هي اغراض الخطيب في المقدمة ؟

ج للخطيب ثلاثة اغراض في المقدمة :

الاول ان يستجلب الخواطر ويؤلف القلوب . وهذا يؤخذ من حسن الافتتاح

الثاني ان يُطلع السامعين على ما يريدهُ منهم اجمالًا وذلك يُستفاد من بيان المقصد

الثالث ان يرغّب اليهم الاستماع ويحملهم على الاصغاء والاذعان لما يقول . ومرجعهُ الى تقسيم الخطاب

البحث الاوّل

حسن الافتتاح

س ما هو الافتتاح ؟

ج هو مطلع الكلام في الخطبة

س ما هي آداب الابتداءات في الخطابة ؟

ج قال ابن الاثير : قد خُصَّ الافتتاح بالاختيار لأنهُ اوّل ما يطرق السمع من الكلام (١ . وللابتداء آداب على الخطيب ان لا يتعدَّاها . منها سهولة اللفظ وصحَّة السبك ووضوح المعنى وتجنُّب الحشو . فان كان كذلك توفَّرت الدواعي على استماعهِ

س كيف اعتاد العرب ان يفتتحوا خطبهم ؟

ج يفتتح خطباء العرب خطبهم عادةً بالحمدلة . لان النفوس تتشوق الى الثناء عليهِ تعالى . ثم يردفون بالسلام على انبياء الله واصفيائهِ (٢ . كقول ابن نباتة الخطيب :

١) عن المثل السائر ٢) القلقشندي في صبح الاعشى

الحمد لله فاتح ابواب الرحمة لمن طرقها، وموضع منهاج السعادة لقلوبٍ وفّقها، وقابل الحمد من ألْسنةٍ انطقها، وشاكر البذل من يدٍ هو الذي نوّلها ورزقها، بالخير يجازي من هاجر الى سعة بابهِ وكرمهِ وحلمهِ. احمدهُ على ما انعم، واشكرهُ على ما ألهم، واستعينهُ واستغفرهُ واؤمّل بهِ واتوكل عليهِ. واستهدي الله بالهدى، واعوذ بهِ من الضلالة والردى، ومن الشكّ والعمى، من يهدي الله فهو المهتدى

س ما براعة الاستهلال ؟

ج المُراد بها ان يكون الابتداء لائقاً بمقتضى الحال اعني ان يأتي الخطيب في صدر الخطبة بما يدلّ على المقصود منها. فيكون الافتتاح مرتبطاً مع الخطبة ارتباط الرأس بالجسد ومشتقاً منها كما تتفتح الازهار من اكمامها. وذلك كقول ابن الحديثي في استهلال خطبة القاها يوم عيد البشارة بيوحنّا المعمدان قال :

الحمد لله مشرّف مَن يصطفيهِ لطاعتهِ بلطيف حبائهِ، ومبهج من يختاره لخدمتهِ بشريف إرعائهِ، وملبس من يجتبيهِ لنعمتهِ سرابيلَ بهائهِ، ومحلّي اجياد الواقفين على سرائر حكمتهِ بنفائس نعمائهِ، الذي ارسل من سرادق الوهيتهِ مَلَكاً قدسياً الى زكريّائهِ مبشّرًا لهُ يوم عيد الغفران بيوحنّائهِ، ليمضي امام الربّ بأَيْدهِ العلويّ وروح ايليائهِ، ليبشّر بالحياة الابديّة الساكنين تحت ظلال الموت وافيائهِ، نحمدهُ حمد المخلصين في طاعتهِ وحسن ولائهِ، ونشكرهُ على ما اسدى الينا من جزائل صنائعهِ وآلائهِ . . .

س ماذا يُستهجن في مقدّمات الخطب ؟

ج يستهجن فيها : اوّلا ان تكون مسهبة مستطيلة فيضجر السامع لطولها

ثانياً ان تكون مبتذلةً مشاعة بحيث تصلح لكل خطبةٍ .

وهذا كثير في دواوين خطباء العرب . فمن ذلـك قول البولاقي في بدء خطبة لشعبان :

« «الحمد لله اللطيف الصنع الجميل العوائد. باسط يد الاحسان والغفران لكل عائد. فما من مخلوقٍ الّا من ثمار احسانهِ اقتطف. ولا رجع اليهِ مذنب الّا وقبلهُ. وغفر لهُ قبيح ما عملهُ. وعليهِ بعواطف احسانهِ عطف. . . »

فان هذا وامثالهُ مع حسن نسجهِ شائع عامّ يمكن ان تصدَّر بهِ ايّ خطبة كانت

ثالثاً ان لا توافق الموضوع فتكون قلقةً غير ملتحمة معهُ

(فائدة) اعلم انَّ خطبـاء العرب كانوا يعدُّون الحمدلة وبراعـة الاستهلال من اخصّ اسباب البلاغة فيُعنَون بتنميقها الغاية القصوى . امّا الخطابة العصريَّة الجارية على الطريقة الاوربيَّة فانَّها تفضّل مباشرة الخطبة دون هذه المقدَّمات النافلة التي تشغل العقل بزخرفها الباطل مع قلّة فائدتها لادراك غاية الخطيب اي الاقناع

س ما هو فصل الخطاب عند العرب ؟

ج هو القول الفاصل بين المقدّمات السابق ذكرها من حمدلة وصلاة على الانبيـاء وبين موضوع الخطـاب . وكانوا يشيرون اليهِ بأَمَّا بعد اي بعد الدعاء والحمدلة

س ما هي موارد الافتتاحات في الخطب العصرية ؟

ج يستمدّ الخطبـاء العصريُّون افتتاحات خطبهم من موارد شتّى :

اولًا يستهلّون بحكمة او مثل او ببعض اقوال للمتقدّمين كما فعل ناتان النبيّ لمّا دخل على داود الملك يبكّتهُ على خطيئتهِ فانهُ افتتح خطابهُ لهُ بمثل غنيّ اغتصب شاة فقيرٍ مظلوم فكان لخطابهِ احسن وقع .

ومثلهُ لإمام الخطباء يوحنّا فم الذهب في مفتتح خطبتهِ بعد سقوط أتروب من مقام الوزارة والتجائهِ الى الكنيسة ليلوذ بحَرَمها من غضب اعدائهِ فابتدأ بقولهِ :

باطل الاباطيل وكلّ شيء في هذه الدنيا باطل . الى مَ آلَت تلك الأُبهة والفخفخة . واين ذهبت تلك الاعياد السارّة والزينات الزاهرة والانوار الباهرة والملاذ الوافرة والمآدب الفاخرة . اين ما كنتَ تتبرَّج بهِ من الحلى البهيَّة والملابس الارجوانيَّة والتيجان الذهبيَّة . . . قد اضمحلَّ الكلّ وتقلَّص كما يتقلَّص الخيال والظلّ . عصفت الزوبعة فزعزعت الشجرة الباسقة ونثرت اوراقها بل قطعت جذورها فالتوى جذعها وسقطت الآن على الارض التي كانت تأنف ان تتّخذها لها موطئًا . .

ثانيًا وربّما ابتدأ الخطيب بعرض قضيّتهِ او ذكر الواقع دون تلبُّث . كما فعل بولس الرسول لمّا احتجَّ امام اليهود في اورشليم وكانوا قبضوا عليهِ ليقتلوهُ لنبذهِ لمذهبهم فخاطبهم بلغتهم العبرانيَّة واستجلب بذلك خاطرهم وهدأ بلبالهم فقال :

ايها الرجال أخوةً وآباءً اسمعوا احتجاجي الان عندكم . اني رجل يهوديَ ولدتُ في طرسوس قيليقية لكن ربيتُ في هذه المدينة وتأدَّبت لدى قدَمي جمليئيل على حقيقة الناموس الابوي وكنت غيورًا لله كما انتم جميعكم اليوم . وقد اضطهدتُ هذه الطريقة (اي الدين المسيحي) حتى بالموت مقيّدًا ومسلّمًا الى السجون رجالًا ونساء . كما يشهد لي رئيس الكهنة وجميع الشيوخ الذين اخذت منهم رسائل الى الاخوة وانطلقت الى دمشق لآتي بمن هناك الى اورشليم موثَقين ليُعاقَبوا . .

ومثلهُ للاحنف لمّا قدم بقومهِ من البصرة الى عليّ يطلبون منهُ ان يحفر لهم قناة ماء عذب تتّصل بدجلة والفرات :

يا امير المؤمنين ان مفاتيح الخير بيدَي الله وقد اتتك وفودُ اهل العراق وان اخواننا من اهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الامم الخالية والملوك الجبابرة منازل كسرى وقيصر وبني الاصفر فهم من المياه العذبة والجنان المختلفة في حِوَلاء السَّلى وحدقة البعير تأتيهم ثمارهم غضَّةً . وانَّا نزلنا نشَّاشة لها طرَف في فلاة وطرَف في ملح أُجاج جانبٌ منها منابت القصب وجانب سبخَة نشَّاشة لا يجفّ تراجها ولا ينبت مرعاها تأتينا منافعها في مثل مري النعامة. يخرج الرجل الضعيف منَّا يستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنّق ولدها ترنُّق العنز تخاف عليهِ العدوّ والسبع . فألّا ترفع خسيسنا وتنعش ركيسنا وتجبر فاقتنا وتزيد في عيالنا عيالاً وفي رجالنا رجالاً وتصغّر درهمنا وتكبّر قفيزنا وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب بهِ الماء هلكنا

ثالثاً وقد يبتدئ الخطيب بذكر قول خصمهِ او عرض القضيَّة المخالفة لِما حاول تقريرهُ أَو بذكر القضية على الوجه العامّ قبل ان ينتقل الى تخصيصها . كقول عليّ وقد استهلَّ خطابهُ بنعت الرجل الصالح المتعبد :

انَّ من احبّ عباد الله اليهِ عبدًا اعانهُ الله على نفسهِ فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف . فظهر مصباح الهدى في قلبهِ وأعدَّ القرى ليومهِ النازل بهِ . فقرَّب على نفسهِ البعيد وهوَّن الشديد . نظر فابصر . وذكر فاستكثر . وارتوى من عذبٍ فرات . سهلت لهُ موارده فشرب نَهَلاً . وسلك سبيلاً جدَدًا . قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم الّا همًّا واحدًا انفرد بهِ فخرج من العمى ومشاركة اهل الهوى . وصار من مفاتيح ابواب الهدى . ومغاليق ابواب الردى . قد ابصر طريقهُ وسلك سبيلهُ . وعرف منارهُ . وقطع غمارهُ . استمسك من العرى بأوثقها . ومن الجبال بأمتنها . فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسهُ سبحانهُ في ارفع الامور من إصدار كل وارد عليهِ وتصيير كل فرع الى اصلهِ

رابعًا وكثيرًا ما تؤخذ معاني الافتتاحات من احوال الخطيب والسامعين او من ظروف الزمان والمكان . فان مـا

يأتي بهِ لسان الحال امتع في النفوس واعطف للخواطر . مثال ذلك قول الرسول بولس في خطبتهِ امام محفل اريوس باغوس في اثينا :

يا رجال اثينا اني ارى انكم في كل شيء تُغالون في العبادة . لاني في مروري ومُعاينتي لمناسككم صادفتُ مذبحاً مكتوباً عليهِ : للاله المجهول . فهذا الذي تعبدونهُ وأنتم تجهلونهُ بهِ انا أُبشركم . ان هذا الاله هو الذي صنع العالم وجميع ما فيهِ لكونهِ ربّ السماء والارض لا يحلّ في هياكل مصنوعة بالايدي ولا تخدمهُ ايدي البشر كانهُ محتاج الى شيء اذ هو يعطي للجميع حياةً ونفساً وكل شيء . . .

س كم نوعاً الافتتاحات ؟

ج انواعها اربعة :

الساذج . والجَزل . والبديهي . والملوّح او المعرّض

س ما الافتتاح الساذج ؟

ج هو ما اخذ شرح الموضوع دون تكلُّف . وهو أحرى بالخطب العادية ومحافل الادب ومجالس التشاور والعظات . كقول الذهبيّ الفمّ في مطلع خطبةٍ مرتَّبة على مثَل قاضي الظلم :

ان سيدنا لهُ المجد لاجل رأفتهِ واشفاقهِ علينا يحثّنا على ما فيهِ خلاصنا فيطلب منّا ان نصلي دائماً ونطلب نعمتهُ طلباً متواتراً لتكون رحمته لنا واحسانه علينا بطريق الاستحقاق . ويضرب على ذلك لنا الامثال بقاضي الظلم والملتمس الخبز من صديقهِ بإلحاح تكرار وغير ذلك . ويُنهض عزمنا ويضرم نار شوقنا ويبكت نفوسنا المتراخية في حقيقة الطلب . ويقول اذا كان هذا القاضي الظالم الزمنيّ الآخذ بالوجوه المرتشي في الاحكام البعيد عن الخوف من الله وعن الحياء من الناس لمّا اضجرتهُ بالإلحاح وتكرار الطلب تلك المرأة الارملة الخالية من الحقوق الموجبة الانتقام من خصمها . قام لها هذا الالحاح مقام الرجال والمال وكانت كأنها اجبرت حاكم الارض على الانتقام من غريمها . فكيف لا يعطينا ملكُ الملوك الحاكم على جميع مطلوباتنا اذا كنّا نسألهُ دائماً باجتهادٍ . . .

وكقول ابي بكر يوم بويع له بالخلافة :

ايها الناس اني قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم فان رأيتموني على حق فاعينوني وان رأيتموني على باطل فسدّدوني. اطيعوني في ما اطعتُ الله فيكم فاذا عصيتهُ فلا طاعة لي عليكم. الا ان اقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذ الحق لهُ وأضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحق منه. اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

س ما الافتتاح الجزل ؟

ج هو ما كان انيق اللفظ شريف المعنى يزينهُ حسن التعبير ورونقهُ وهو يصلح للظروف الخارقة العادة والمواقع الشريفة اذ يتوقّع الجمهورُ ما يترجم عن عظائم الامور. كقول ابي بكر يوم موت محمد :

ايها الناس انهُ من كان يعبد محمدًا فان محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله ان الله حيٌّ لا يموت

وكقول عبدالله بن زبير لمّا بلغهُ قتل اخيهِ مُصعب فحمد الله وسكت وجعل لونهُ يحمرّ مرّة ويصفرّ اخرى واشتدّ عليهِ ذكر مقتل سيد العرب ثم تكلّم فقال :

الحمد لله لهُ الخلقُ والامر والدنيا والآخرة. اللّهمَّ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممَّن تشاء. وتُعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء. امَّا بعد فانهُ لم يعزّهُ الله من كان الباطلُ معهُ وان كان معهُ الانام طرًّا ولم يُذلّ من كان الحقُّ معهُ وان كان فردًا. ألَا وانَّ خبرًا من العراق اتانا فأحزننا وافرحنا. فأما الذي احزننا فإن لفراق الحميم لوعةً يجزنها حميمُها. ثم دعوى ذوي الالباب الى الصبر وكريم العزاء. واماَّ الذي افرحنا فان قتل المصعب لهُ شهادةٌ ولنا ذخيرةٌ اسلمهُ النعام المصطلم. ألَا وان اهل العراق باعوه باقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه. فان يُقتَل فقد قُتل اخوهُ وابوهُ وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين. انَّا والله لا نموت حتفًا ولكن قصفًا بالرماح وموتًا تحت ظلال السيوف كما يموت بنو مروان. ألَا انما الدنيا عارية من

المَلِك الاعلى الذي لا يبيد ذكر هؤلاء ولا يذلّ سلطانهُ . فان تُقبِل الدنيا عليَّ لم آخذها أخذ الآشِر البَطِر وان تُدبر عني لم ابكِ عليها بكاء الحَرِق المهين

ومن هذا القبيل ايضاً افتتاح ابي الحسن الانباريّ قصيدتهُ في الوزير ابي طاهر لمّا صلبهُ عضد الدولة فقال :

علوٌّ في الحياة وفي الممات لعمري تلك احدى المعجزاتِ . . .

س ما هو الافتتاح البديهيّ ؟

ج هو ما اصاب مسامع الحضّار على غرارة دون توقُّع وابرز عن جميع العواطف ومقامهُ المواقع الباغتة والطوارئ المفجعة . كقول صالح بن عليّ لاهل المدينة . وكانوا قد استصغروا همّتهُ :

يا اعضاد النفاق وعبيد الضلالة اغرَّكم لين اساسي وطول ايناسي حتى ظنَّ جاهلكم ان ذلك لفلول حدٍّ وفتور جدّ وخوَر قناة . كذبت الظنون انّها العترة بعضها من بعض . فاذا قد استوليتم العافية فعندي فطام، وفكاك وسيف يقدّ الهام

وكقول الذهبيّ في استهلال خطبةٍ القاها في قول الانجيل : انسان غني اخصبت كورتهُ :

يا للعجب ان الذين يريدون السفر الى وطنهم من البلاد الغريبة يقطعون علائق الاقامة بها ويكونون دائماً متأهبين مشمّرين مستعدّين للرحيل عازمين على الانتقال الى بلادهم . فتراهم يبيعون الاثقال ويقايضون بالامتعة ويعدّون الزاد والمهمّات للسفر . ونحن المؤمنين بالموت والقيامة والحساب والمجازاة نوجد هكذا متعلّقين بالاموال منهمكين في جمعها وتكثيرها ومهتمّين بتحصيل اللذّات العالمية . وكيف تقول يا هذا ان القيامة سوف تقوم وان الناس يُحاسَبون على اعمالهم وانت مغتبط بمحاسن الحطام الدنيويِ متمسكٌ بازمّة الاباطيل الزائلة متعبّدٌ للذّات الفاسدة والشهوات الخبيثة ؟

س ما الاستهلال الملوّح او المعرّض ؟

ج الملوّح في اللغة خلاف المصرّح وكذلك المعرّض . وهو في الاصطلاح ما يخرج مخرج الكناية والتلويح يأتي بهِ الخطيب اذا احتاج الى استعطاف خواطر الجمهور النافرة او رأى المقصود عسر الخطَّة بعيد المتناول . كقول الاناء المصطفى لمّا احتجّ امام اغريبا الملك وقد عمد الى ملتمسهِ بافتتاح لطيف :

انى احسب نفسي سعيدًا ايها الملك اغريبا لاني احتجّ اليومَ امامك عن كلّ ما يشكوني بهِ اليهود ولاسيا وانتَ خبيرٌ بكل ما لليهود من سُنن ومسائل فلهذا اسألك ان تسمع لي بطول الاناة . انَّ سيرتي منذ صباي التى من البدء كانت لي بين امتي باورشليم يعرفها جميع اليهود الذين عرفوني من الاول لو ارادوا ان يشهدوا اني قد عشت فريسيًّا على مذهب ديننا الاقوم . والآن انا واقف أُحاكم على رجاء الوعد الذي سبق من الله للآباء الذي يؤمل اسباطنا الاثنا عشر البلوغ اليهِ متعبدين بالمثابرة ليلًا ونهارًا فبهذا الرجاء شكاني اليهود ايها الملك أَفيُحسب عندكم غير مصدَّق ان الله يقيم الاموات ؟ . .

س اي طبقة من الانشاء اولى بافتتاح الخطب ؟

ج ان الانشاء الساذج هو الخصيص بالافتتاحات وقد قال القدماء : كل شيء يبدو صغيرًا ثم يكبر وينمو . وزد على ذلك ان السذاجة في الاستهلال أَدعى الى ثقة السامع بالخطيب لاسيا في خطب المحاكمات والتشاور والعظات

وقد استثنوا من ذلك الافتتاحات الجزلة فأَنها تستلزم شيئاً من التأَنّق ومن براعة الانشاء

البحث الثاني

في بيان المقصد

س ما هو بيان المقصد ؟

ج هو عَرْض القضيَّة التي يريد الخطيب اثباتها اذ يكشف غاية كلامهِ للحضور

س كم هي الصفات الملائمة لبيان المقصد ؟

ج اربع :

الاولى ان يكون مترتّبًا على قضيَّة واحدة ليس الَّا لانَّ وحدة الخطاب تقضي بوحدةِ القضيَّة ووحدة الغاية كما لو اردتَ ان تبني الكلام على العدل فانك تقول : ان العدل اساس عمران الدول

الثانية ان يكون واضحاً لانَّ الغرَض اذا كان بعيد المأخذ اعتاص على السامع فتبرَّم منهُ . فان جعلت كلامك على حُسن الخلق قلت : « مَن ساء خلقهُ تنكَّدت عيشتهُ » او تقول في شرف العقل : « خير المواهب العقل وشرّ المصائب الجهل »

الثالثة ان ينشّط السامعين بابتكار صورتهِ ولطيف مخرجهِ كقولك في كثرة خطوب الدهر مع مَن قال : « الليل والنهار غرسانِ يشمران للبريَّة صِنوف البلية » . او مع الآخر : « زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا » . او مع الشافعي :

مِحن الزمان كثيرةٌ لا تنقضي وسروره يأتيكَ كالاعيادِ

الرابعة ان تعود اليهِ بقيّة اقسام الخطبة لانهُ كما قيل :
الخروج عمّا بُني عليهِ الكلام اسهاب.

س هل واجب على الخطيب التصريح بقصدهِ دائماً ؟

ج لا بُدَّ من بيان الموضوع اجمالًا في كل الخطب . امّا كشف الغاية الخصوصية التي يتحرّاها الخطيب فلا حاجة اليهِ دائماً اذا خاف الخطيب من كشفهِ ضررًا فينبغي على الخطيب ان يُعدّ قلوب الحضور بلطف الى قبولهِ تدريجاً . كما فعل رسول الامم في خطبتهِ الى اهل انطاكية پيسيدية فانهُ ادرج المقصود في اثناء خطبتهِ ولم يصرّح بهِ الّا في آخر الكلام فقال :

يا رجال اسرائيل والذين يتّقون الله اسمعوا ان اله هذا الشعب اختار اباءنا وعظّم الشعب في غربتهِ في ارض مصر واخرجهم منها بذراع رفيعة واحتمل اخلاقهم مدّة اربعين سنة في البريّة واستأصل سبع امم في ارض كنعان وقسم لهم ارضهم بالقرعة بعد نحو اربع مئة وخمسين سنة . وبعد ذلك اعطاهم قضاةً الى صموئيل النبيّ . وبعدهُ سألوا ملكاً فاعطاهم الله شاول ابن قيس رجلًا من سبط بنيامين مدة اربعين سنة ثم عزلهُ واقام داود ملكاً عليهم وهو الذي شهد لهُ قائلًا : اني وجدتُ داود بن يسّى رجلًا على حسب قلبي يعمل بمشيئتي كلها . ومن نسل هذا اقام الله يسوع لاسرائيل مخلصاً بحسب الوعد . وقد سبق يوحنا فكرز امام مجيئهِ بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل . ولما بلغ يوحنا قضاء سعيهِ قال : الذي تحسبون انّي انا هو لست انا بهِ ولكن هوذا يأتي بعدي من لا استحقُّ ان احلّ حذاء رجليهِ . ايها الرجال الاخوة بني ذرية ابرهيم ومن يتقي الله بينكم . اليكم أُرسلت كلمة هذا الخلاص لان الساكنين في اورشليم ورؤساءهم من حيث انهم لم يعرفوه أتمّوا بالقضاء عليهِ اقوال الانبياء التي تُتلى في كل سبت . ومع انهم لم يجدوا عليهِ علّة للموت طلبوا من بيلاطس أن يُقتل ولما اتموا كلَّ ما كُتب عنهُ انزلوهُ عن الخشبة وجعلوه في قبر لكن الله أقامهُ من بين الاموات وتراءى اياماً كثيرةً للذين معهُ من الجليل الى اورشليم وهم شهودهُ الان عند الشعب

(فائدة) ولعلَّ العرب دعوا بيان المقصد باسماء غير هذه . وربما سموه بالسمة . جاء في شرح التهذيب : السمة هي عنوان الخطاب ليكون عند الناظر اجمال ما يفصّلهُ الغرض

البحث الثالث

في تقسيم الخطبة

س ما هو التقسيم ؟

ج التقسيم عمومًا استيفاء المتكلم اقسام المعنى الذي هو آخذ فيهِ. وفي اصطلاح الخطباء هو تفصيل المقصد باجزائهِ بعد ذكرهِ مجملًا . كقول بعض الحكماء يعدّد مرافق الدنيا :

الدنيا تُطلَب لثلاثة اشياء الغنى والعزَّة والراحة. فمن اقتنع استغنى ومن زهد فيها عزَّ ومن قلَّ سعيُهُ استراح

س ما هي فوائد التقسيم ؟

ج للتقسيم ثلاث فوائد : الاولى للخطيب ليلزم موضوع خطبتهِ ويحترز عن تكرار المعاني . والثانية للسامع ليقف على مقصود الخطيب ويدرك نسق كلامهِ . والثالثة للخطبة فانَّ التقسيم يجديها حسناً وايضاحاً . كقول الخليفة المأمون في تقسيم الاخوان

الاخوان على ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنهُ . وطبقة كالدواء يُحتاج اليهِ احيانًا . وطبقة كالداء لا يُحتاج اليهِ ابدًا

س كم هي صفات التقسيم الحسن ؟

ج خمس :

الاولى ان تكون القسمة مستوية اي شاملة لكل اجزاء الموضوع . كقول يونس النحوي في السُّكر واصنافهِ :

السُّكر خمسة : سُكر الشباب . وسكر الشراب . وسكر المال . وسكر العشق . وسكر الولاية

وقد نظمها شاعر فقال :

سَكَراتٌ خمسٌ اذا مُني المرءُ م بها صار عرضةً للزمانِ
سَكْرةُ المال والحداثة والعشق م وسكرُ الشراب والسلطانِ

وقد اخطأ على خلاف ذلك ابو الفتح البستي حيث قال :

امور الدنيا تدورُ على شيئين : رِفق العلم وخُرق السيف

أَلا ترى انَّ امور الدنيا تدور على اشياء كثيرة دون هذين

الثانية ان تكون الاقسام متباينة لا يدخل بعضُها في بعض . مثالهُ قول محمود الورّاق في الصفح عن القريب وقد أحسن :

سأُلزمُ نفسي الصفح عن كل مذنبٍ وان عظُمتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
فما الناس الّا واحدٌ من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مُقاومُ
فأَمّا الذي فوقي فاعرفُ فضلَهُ واتبع فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ
وامّا الذي دوني فان قال صُنتُ عن إجابتهِ نفسي وان لامَ لائمُ
وامّا الذي مثلي فان قال او هفا تفضّلتُ انَّ الحلم بالفضل حاكمُ

وعلى عكس ذلك لم يُحسن التقسيم من قسم الصديق قسمين : صديق ينفع وصديق يشفع . لانَّ الشفاعة من المنافع

الثالثة ان يكون التقسيم واضحاً قريب المنال يتلقّاهُ

السامع بسهولة فيرسخ في ذهنهِ . كقول محمَّد بن زكريا في تقسيم غاية الطبّ :

الطبّ شيئان : حفظُ الصحَّة ومرمَّة العلَّة

وكقول عليّ في افضل الوراثة :

ثلاثة هي افضل ما يورثهُ الآباء الابناء : الثناء الحسن والادب الصالح والاخوان الثقات

الرابعة ان يكون مبتكرًا موجزًا . كقول خوارزم شاه مأمون في دواعي المحبة :

ثلاثة تورث المحبَّة : الادب والتواضع والدين

وكقول الحسن بن علي الذي قسم الناس الى ثلاثة اقسام فقال :

الناسُ ثلاثةٌ فرجلٌ رجلٌ . ورجلٌ نصفُ رجل . ورجلٌ لا رجل . فامَّا الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة . واما الرجل نصف الرجل فالذي لهُ رأي ولا يشاور . وامَّا الذي ليس برجل فالذي لا رأي لهُ ولا يشاور

الخامسة ان يكون ذا تدريج بحيث يزيد القسم الثاني على الاوَّل والقسم الثالث على كليهما . كقول شاعر في تقسيم الزمان

انَّما هذه الحياة متاعٌ والسفيهُ الغويُّ مَنْ يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّلُ غيبٌ ولك الساعةُ التي انت فيها

وكقول الخليل بن احمد في تقسيم الناس من حيث العلم :

الناسُ اربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري انهُ يدري فذلك عالمٌ فاسألوهُ . ورجل يدري ولا يدري انهُ يدري فذلك ناسٍ فذكّروهُ . ورجل لا يدري ولا يدري انهُ لا يدري فذلك جاهل فاحذروهُ

To: www.al-mostafa.com

(فائدة) وربّما الحقوا ببيان المقصد والتقسيم تعزيزًا لها ورغبةً في الايضاح ذكرَ الواقع وذلك اذا كان المقصد مبنيًّا على حادث واقعي لا على قضيّة عقليّة . فايراد الواقع المذكور يسمّى بالرواية الخطابيّة

البحث الرابع
في الرواية الخطابية

س ما هي الرواية الخطابية ؟

ج هي ايراد امر واقعي يُبنى على ظروفهِ كلام الخطيب لغاية الاقناع

(فائدة) ليس الكلام هنا عن بعض اخبار يرويها الخطيب تفكهةً للسامعين او تأييدًا لاقوالهِ او كبرهانٍ تمثيليّ لقضيَّة من القضايا فان الرواية حينئذٍ تُنظم في سلك البراهين وتفيد لتحريك الاهواء . وانَّما المقصود هو الرواية التي تؤخذ كاساس كلام الخطيب وعلى تفاصيلها تدور المباحثة

س باي شيءٍ تمتاز الرواية الخطابية عمَّا سواها ؟

ج تمتاز عنها بسِمَتين بغايتها وبالوسائل التي تتوسَّل بها لتلك الغاية . فامَّا غايتها فهي ان تمهِّد الطريق لاقناع الجمهور . وامَّا وسائلها التي تستخدمها لبلوغ تلك الغاية فهي الاسترسال في بيان الظروف الملائمة لمقصود الخطيب والإعراض عمَّا

سواها . وان كان لا بُدَّ للخطيب من ذكر ما يخلّ بمقصودهِ فيتلطَّف في ايرادهِ ويخرجهُ على صورة توافق غرضهُ

س كم نوعاً الرواية الخطابية ؟

ج الرواية الخطابية نوعان امَّا قضائيَّة وامَّا اخباريَّة

س ما الرواية القضائيَّة ؟

ج هي التي تذكر حادثاً طُرِح على بساط المناقشة.وذلك في الدعاوي خصوصاً اذ عليها تتوقَّف المشاجرة وعلى محورها تدور المقاضاة . مثالهُ رواية بولس الرسول اذ قام يدافع عن نفسهِ امام الوالي الروماني فيلكس (سفر الاعمال ف ٢٤) :

بما أَني أعلم بانَّك قاضٍ لهذه الامَّة منذ سنين كثيرة فبطيب نفسٍ أُجيب عن نفسي انهُ يمكنك ان تعلم ان ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً منذ صعدتُ الى اورشليم للعبادة ولم يجدوني في الهيكل أُفاوض احدًا ولا أُهيّج الجمع لا في المجامع ولا في المدينة ولا يستطيعون ان يبرهنوا على ما يشكونني بهِ الآن ولكني اقرُّ لك اني بحسب الطريقة التي يسمُّونها شيعةً اعبدُ اله آبائي مؤمنًا بكل ما كُتب في الناموس والانبياء ومؤمّلًا من الله ما ينتظرونهُ هم ايضاً انها سوف تكون قيامةٌ للاموات الابرار منهم والأَثمة . لهذا أُدرِّب نفسي ليكون لي دائمًا ضميرٌ لا عثار بهِ امام الله والناس . وبعد سنين كثيرة جئتُ لاصنع صدقاتٍ لامَّتي واقدّم قرابين فعلى هذا وجدني قومٌ من اليهود من آسية متطهرًا في الهيكل لا مع جمعٍ ولا في فتنة . وكان يجب عليهم ان يحضروا لديك ويشكوا ان كان لهم عليَّ شيءٌ او ليقلْ هؤلاء ماذا وجدوا فيَّ من اثمٍ وانا قائمٌ امام المحفل سوى هذا القول وحده الذي صحتُ بهِ لمَّا وقفتُ بهم : اني على قيامة الاموات أُحاكَم منكم اليوم

س ما الرواية الاخباريَّة ؟

ج هي التي تؤخذ كاساس الخطاب في التعليم او في الاقوال المشوريّة والاغراض المدنيّة . كما لو اراد احد ان يخطب في مساعدة منكوبين روى الخبر الداعي الى جمع الاحسانات . وان خطب في عيد ذكر الموجب لحفلته . ومثل ذلك قول ابي الحليم في الاحد المعروف بالخاطئة والمعتزليّ :

ما قرع اليوم اسماعكم من قصّة مريم الخاطئة وشمعون المعتزليّ ، قد اورده لوقا الرسولي السمائي بالقول الواضح الجلي ، انظروا الى الرحمة المسيحية ما اوفرها والى فرط عنايته بالخاطئين ما اغزرها واكثرها ، قدمت الخاطئة من تيه الضلال ، وارست سفينة رجائها في ميناء القدس ومعدن الافضال ، مزّقت عنها ملابس الخطيئة والآثام ، وألقت عن كاهل قلبها ثقل الذنوب والاجرام ، حقّقت العزم على ان تتوب ، وان تخرج الى دائرة الطاعات من خطّة المعاصي والذنوب ، هجمت على منزل المعتزلي ، رأت من خلال ستور الناسوت نور الازليّ ، خرّت ساجدةً بين يديهِ كزهرة ذاوية وغصن ذابل ، اتت كجريح مضرَّج بالدماء قد انكأت في جسدهِ اللهازم والذوابل ، فلمّا حدّق اليها استلمحت من اسارير وجههِ آثار الرضاء ، وأيقنت من بِشر محيّاه بحصول الغرض وقوّة الرجاء ، بجلابيب التوبة حالية ، وهمتها عن شهوات الاجساد عالية ، على انها مثل كرمة كانت تحمل الاشواك والخرنوب ، وقد نثرت عن اغصانها اوراق المعاصي وعناقيد الذنوب ، رآها كنعجة ضالّة قد خطفها سبع الخطيئة بمخاليبهِ ، واخرجها الشيطان عن نهج الهدى واركبها اوعار اساليبهِ ، رقّ لها القلب الشريف ، وفاضت منابع الرحمة على العضو الضعيف ، أباحها الإقدام على لثم اقدامهِ ، وجذبها من اساليب الضلال بكلاليب كلامهِ ، قامت على قدم العزم مجدّةً في اجتذاب النعمة ، قارعةً بطارق التوبة القلبية باب الرحمة ، شبّت في قلبها نار الخشوع ، وقطرت من غمائم عينيها سحائب الدموع ، ايقنت ان ذنوبها مصفوحة ، وأبواب الخدور الملكوتية أمامها مفتوحة ، غسلت بدموعها رجلين باقذار الخطيئة لم تُدنَّسا ، وسكبت الدهن الثمين على قدمٍ لم يزل بالقدس مقدَّسا ، نشفت بضفائر شعرها اقدامهُ ، عفّرت أوراد الخدود امامهُ ، ايقنت ان الشفاء عنده موجود ، كشفت معضل دائها الى ساعور بيمارستان الوجود ، أبرز لها من خزانة الرحمة شراب الغفران ، وقال : انكِ كنتِ ميّتة بالخطية وقد حييتِ الان بالايمان ... ايمانكِ احياكِ فاذهبي بسلام

س اين محلّ الرواية من الخطاب ؟

ج الرواية الخطابيَّة لكونها اساساً للمناقشة وركنًا للبحث تُجعَل عادةً بعد بيان المقصد وقبل الاثبات . الّا اذا كانت الُخطب ثنائيَّة او تأبينيَّة فتمتزج حينئذٍ الرواية بالاثبات في الخطاب كلِّهِ . امَّا الروايات العرضيَّة التي يأتي بها الخطيب في مطاوي كلامهِ تنميقاً لهُ او تأييدًا لبعض ادلَّتهِ فموقعها في القسم الذي يوافقها وتستعار لهُ

س ما هي صفات الرواية الخطابيَّة ؟

ج اولها الوضوح دفعاً للماحكة في الجدال

ثانيها الايجاز في ما سوى خطب الثناء او التأبين او التفسير لانَّ رواياتها هي داخلة في الاثبات كما مرَّ

ثالثها الصدق . ولا ينفيهِ إضراب الخطيب عن بعض الظروف التي تضرُّ بغايتهِ ريثما يعرضها الخصم فيفنّدها الخطيب او يفسِّرها

الباب الثاني
في الاثبات

س ما الاثبات ؟

ج الاثبات في اللغة التمكين يقال : اثبت الامر اي

جملهُ ممكناً . وهو في الاصطلاح عبارة عن تأييد القضية بالبرهان وهو قطب الخطاب وغاية مقصود السامعين

س كم قسماً الاثبات ؟

ج الاثبات قسمان : قسم ايجابيّ وهو ما اشتمل على شرح القضية وتعزيزها بالادلَّة اللامعة والحجج الراهنة ويسمَّى التبيان. وقسم سلبيّ يردّ فيهِ الخطيب على حُجج الخصم ويدحض مقالهُ ويسمَّى التفنيد

البحث الاول

في تبيان القضية

س ما الطريقة لتبيان القضيَّة ؟

ج ان الطريقة لذلك معرفة علم البحث والجدل

س ما هو البحث ؟

ج البحث في اللغة التفحُّص . وفي اصطلاح اهل النظر ارادوا بهِ حمل شيء على آخر ثمَّ خصُّوا بهِ اثبات القضيَّة بالدليل (١

قال ابن خلدون : لمَّا كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً وكلّ

١) وفي تعريفات الجرجاني : البحث اثبات النسبة الايجابيَّة او السلبيَّة بين الشيئين بطريق الاستدلال

واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانهُ في الاحتجاج ومنهُ ما يكون صواباً ومنهُ ما يكون خطأً فاحتاج الأَيمَّة الى ان يضعوا آداباً واحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول وكيف يكون حال المستدلّ والمجيب . . . ومحلّ اعتراضهِ او معارضتهِ واين يجب عليهِ السكوت ولخصمهِ الكلام والاستدلال

س على اي شيء يترتب علم البحث في اثبات القضية ؟

ج يترتب على معرفة القياس لانَّ بهِ يتوصل الخطيب الى تأييد رأيهِ وتخطئة رأي خصمهِ (١

س ما هو القياس ؟

ج القياس لغةً التقدير والتشبيه . وفي الاصطلاح هو قول مؤلّف من قضايا واحكام اذا سُلِّمت لزم عنها لذاتها قولٌ آخر يدعى النتيجة (٢

س ما هي القضية في القياس وما الحكم ؟

ج القضيَّة قول يعبَّر بهِ عن حكم ويصحّ ان يقال لقائلهِ انهُ صادق او كاذب . امَّا الحكم فإِسناد امر الى آخر ايجاباً او سلباً . وبكلام آخر هو نسبة الشيء الى غيرهِ او نفيهُ عنهُ (٣

س من كم جزء تتركَّب القضيَّة ؟

---

١) راجع آداب البحث للسمرقندي
٢) التهانويّ والحاج خليفة
٣) تعريفات الجرجاني

ج تتركّب من جزئين يسمَّيان طرَفيها او حدَّيها احدهما وهو المحكوم عليهِ يسمَّى موضوعاً وثانيهما وهو المحكوم بهِ يُسمىٰ محمولًا كقولك : الله عادل · فالله هو الموضوع وعادل هو المحمول · واسنادك العدل الى الله هو القضية او الحكم

س كم قضية للقياس وما هي ؟

ج لهُ ثلاث قضايا المقدَّمتان : وهما الكبرى والصغرى ثم النتيجة كقولك : كل انسان حيوان وكل حيوان جسم فكلُّ انسان جسم · فالقضيتان الاوليان هما المقدَّمتان ويدعون الاولى بالكبرى لدخول الثانية اي الصغرى في حكمها · اما القضية الثالثة فتُدعى بالمطلوب وهي النتيجة الحاصلة منهما فالمطلوب في القياس السابق قولهُ كل انسان جسم (١

س ما هي الطريقة لاستنباط القياس ؟

ج ان اردت اثبات قضية ما بالقياس فعليك ان تعرض طرفيها او حدَّيها (اي موضوعها ومحمولها) على حدّ آخر يُعرف بالحد الاوسط فان ثبتت المقابلة صحّ القياس والّا فلا

س اورد مثالًا على ذلك ؟

ج اذا قصد الخطيب ان يثبت حدوث العالم مثلًا

---

١) شرح الشمسيّة

فيلتجئ الى قضية اخرى مشهورة يجد فيها حدًّا للقيـاس وهي كون المتغيّر حادثاً فيقول: كل متغير حادث والعالم متغير فهو حادث. فالحادث حدّ اكبر والعالم حدّ اصغر والمتغير هو الحدّ الاوسط. سُمي بذلك لتوسطهِ بين طرفي المطلوب (١

س كم هي القياسات الخطابيَّة ؟

ج هي ستة : القياس التـامّ . والقيـاس الاضماري . والاستقرائيّ . والقياس التمثيـلي . وذو الحدّين . والقيـاس المركَّب

١ القياس التامّ

س ما هو القياس التامّ ؟

ج هو ما حوَت كلتا مقدّمتيهِ الحدّ الاوسط مع احد طرفي النتيجة كقولك : الكل معلول علّة والعالم معلول فللعالم علّة

فالحدّ الاوسط هو المعلول ورد في الكبرى وفي الصغرى . وطرفا المطلوب اي للعالم علّة وردا في المقدّمتين كما ترى

س كم نوعاً القياس التام ؟

ج القياس التام امَّا منطقي ويقال لهُ العقـليّ ايضاً وامَّا خطابيّ . فالمنطقيّ كالمثال السابق وغايتهُ عصمة الذهن عن الخطإ

١) التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون

في الفكر واما الخطابي فالمقصود منهُ الاقناع وتحريك العواطف

س بماذا يختلف القياس المنطقيّ عن القياس الخطابيّ ؟

ج انَّ الخلاف بينهما من ثلاثة وجوه: فالوجه الاوَّل انَّ المنطقيّ يستند في الغالب في قياسهِ الى مقدّمتين يقينيَّتين. امَّا الخطابيّ فانهُ يقبل ايضاً مع المقدّمات اليقينيَّة المقدمات الظنيَّة والشبيهة باليقينية . فانَّ المنطقيّ مثلًا اذا اراد اثبات وجوب محبة الوطن بنى قياساً هكذا :

ينبغي على الانسان ان يخصّ بحبهِ من نال من فضلهم وانتفع بمرافقهم والوطنُ يعمُّ فضلهُ كل انسان مولود في تخومهِ . فمن الواجب اذن ان يحبّهُ الوطني

امَّا الخطيب فيثبت ذلك بادلَّة غير ضرورية لازمة لكنها كافية لاقناع العموم فيقول في حبّ الوطن :

كوَّن الله ارضنا وافاض عليها سوابغ نعمهِ فاتاح لكل قسم ٍ منها حصَّة صالحة من خيراتهِ . ولمَّا خلق الابوين الاوَّلين وامرهما ان يملأوا الارض بالنموّ والتكاثر استوطنت كل فئة منهم بعض الانحاء وخصُّوها بالعمل وسقوها بعرق جبينهم فنالوا من مرافقهما وحصلت بذلك بينهم وبينها علائق وداد لم يزدها الدهر الَّا توثُّقاً . فينشأُ الصغير فيها ويقصر نظرهُ عليها وعلى خيراتها ويعدُّها كأُمّهِ الثانية تدرُّ عليهِ غلَّاتها وتُنشقهُ هواءها وتمتّعهُ باهلها وسكانها فتؤنسهُ بمفاوضتهم وتؤازرهُ بمنعتهم وقوَّاتهم وتمهّد لهُ السبيل بينهم الى الرقي والنجاح . فينطبع حبُّ الوطن على صفحات قلبهِ مهما تنقَّل في البلدان ويفضّلهُ على سواهُ من الاصقاع ولو لقي فيها كثيرًا من الخيرات التي لم يجد لها اثرًا في وطنهِ . وقد حملوا على ذلك قولُ القائل : انَّ حبَّ الوطن من الايمان . لان الايمان يأمر بالاصطناع الى اعدائنا فما قولك بالمحسنين الينا

الوجه الثاني انَّ المنطقيّ يعرض قياسهُ بقليل من الكلام

لتظهر حجّتهُ دون اشكال على خلاف الخطيب الذي يكسو قياسهُ ببديع الكلام ويحلّيهِ بالتشابيه اللائقة وينمّقهُ بالامثال الرائقة ويؤيّدهُ باقوال الحكماء ويعرضهُ على اشباههِ من الأمور الى ان يستوفي محاسنهُ ويُتمَّ فوائدهُ

مثالهُ اثبات كون النفس جوهرًا ليست بعرَض ولا جسم . فانَّ ابن العبري في كتابهِ عن النفس البشريَّة بيَّن ذلك على طريقة المنطقيّين هكذا :

انَّ جميع العلماء حكموا بانَّ الجوهر هو القابل للاضداد. مثالهُ انَّ الجسم الواحد يقبل تارةً الحرارة وتارةً البرودة فهو جوهر يقبل الاضداد المحسوسة. وقد نرى النفس تقبل العلم والجهل والفضائل والرذائل والخطأ والصواب. فهذه وامثالها اعراضٌ اذ لا وجود لها الّا بموضوعها والنفس هي الموضوع لها فالنفس اذن جوهر

امّا كون النفس ليست بجسم فلأنَّ الجسم لهُ طول وعرض وعمق ولا شيء في النفس كذلك. والجسم محسوس والنفس غير محسوسة. والنفس تقبل الاعراض المعقولة كعلم المنطق والهندسة وعلم الطبيعة الالهية وهذه كلّها معقولة ومحلُّها معقول وهي النفس. فظهر انَّ النفس ليست بجسم

امّا ابن مسكويه فاتَّسع بالموضوع عينهِ وعرضهُ على صورة اقرب الى الطريقة الخطابيَّة في كتابه تهذيب الاخلاق فقال :

انّا لمّا وجدنا في الانسان شيئاً ما يضادُّ الجسم وخواصّهُ حتى لا يشاركهُ في حال من الاحوال. وكذلك نجدهُ يباين الاعراض ويضادُّها كلها غاية المباينة. ثم وجدنا هذه المباينة والمضادَّة منهُ للاجسام والاعراض انما هي من حيث كانت الاجسام اجساماً والاعراض اعراضاً حكمنا بان هذا الشيء ليس بجسم ولا جزءًا من جسم ولا عرضاً. وذلك انهُ لا يستحيل ولا يتغيَّر وايضاً فانهُ يدرك جميع الاشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص. (وبيان ذلك) انّ كل جسم لهُ صورة ما فانهُ ليس يقبل صورة اخرى من جنس صورتهِ الاولى الّا بعد مفارقتهِ

الصورة الاولى مفارقةً تامة . (مثال ذلك) انَّ الجسم اذا قبل صورةً وشكلًا من الاشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلًا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما الّا بعد ان يفارقهُ الشكل الاول . وكذلك اذا قبل صورة نقش او كتابة او اي شي كان من الصور فليس يقبل صورة اخرى من ذلك الجنس الّا بعد زوال الاولى وطلاخها البتة . فان بقي فيهِ شيءٌ من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط بهِ الصورتان فلا يخلص لهُ احدهما على التمام . (مثال ذلك) اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الّا بعد ان يزول عنهُ رسم النقش الاول . وكذلك الفضة اذا قبلت صورةً . وهذا حكم مستقيم في الاجسام . ونحن نجد انفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة للاولى ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم الاول تامًّا كاملًا وتقبل الرسم الثاني ايضًا تامًّا كاملًا . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدًا دائمًا من غير ان تضعف او تقصّر في وقت من الاوقات عن قبول ما يرد ويطرأُ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوَّةً على ما يرد عليها من الصور الاخرى . وهذه الخاصّة مضادَّة لخواص الاجسام ولهذه العلَّة يزداد الانسان فهمًا كلما ارتاض وتخرَّج في العلوم والآداب فليست النفس اذن جسمًا . واَمَّا انها ليست بعرَض فقد تبيَّن مِن قبل ان العرَض لا يحمل عرضًا لان العرض في نفسهِ محمول ابدًا موجود في غيره لا قوام لهُ بذاتهِ . وهذا الجوهر الذي وصفنا حالهُ (يريد النفس) هو قابل ابدًا حامل اتمُّ واكملُ مِن حمل الاجسام للاعراض فاذن النفس ليست عرضًا

والوجه الثالث انَّ المنطقيّ عادةً لا يتصرَّف بالقياس بل يعرضهُ على احد اشكالهِ المعروفة في المنطق . امَّا الخطيب فلهُ التصرُّف في قياسهِ من تقديم المقدَّمات او تأخيرها على ما يراهُ اوفق لغايتهِ كقول عليّ بن ابي طالب يحضُّ انصارهُ على اقتفاء آثارهِ فقال :

إنّي إمامكم وأُسوتكم فسيروا بسيرتي واقتفروا معالمي . فانَّ لكل مأموم إمامًا يقتدي بهِ ويستضيءُ بنور علمهِ ألا وإنَّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمرَيهِ ومن طعامهِ بقُرصيهِ

ولو عرض قياسهُ على طريقة المنطقيين لقال هكذا : على كلّ مأموم ان يقتدي بامامهِ وانا امامكم زهدتُ بالدنيا فازهدوا بها مثلي

ومثل ذلك قول صاحب كتاب زجر النفس وقد اراد ان يثبت إن لا لذّة صحيحة في الدنيا :

يا نفسِ ينبغي ان تعلمي وتتيقّني ان حدّ اللذة بالحقيقة هو ما لا يُملّ. ومتى طلبَت النفسُ في الكون لذّةً فقد سعت الى غير موجود وطلبت ما لا يمكن. والدليل البيّن على هذا ان جميع ما تشافههُ النفس في هذه الدنيا مملول والمملول لا ينبغي ان يسمّى لذة اذ كان حد اللذة ما لا يُملّ. او ما تنظرين يا نفسِ الى اكثر اهل الدنيا كيف يبحثون في طلب اللذات ويتوهمون انها موجودة في الدنيا وليس هي موجودة فتبيّن انّ الناس يطلبون في الدنيا ما ليس فيها

٢ القياس الاضماريّ

س ما هو القياس الاضماري ؟

ج هو ما أُضمرت احدى مقدمتيهِ . إمّا الكبرى ويسمّى قياس الضمير كقولك : العالم متغيّر فهو حادث . وتمام القياس : كل متغيّر حادث والعالم متغير فهو حادث وامّا الصغرى ويسمّى قياس الدليل كقولك : ان ما يزيّن العقل شرفٌ للمرء فالعلم اذًا شرفٌ للمرء . فاضربتَ عن الصغرى . وتتمّة القياس بقولك : ان ما يزيّن العقل شرف للمرء والعلم يَزين العقل فالعلم اذًا شرفٌ للمرء

(فائدة) ويسمّى القياس اقترانيًا ان لم تُذكر النتيجة

س هل القياس الاضماري كثير الاستعمال في الخطابة ؟

ج هو كثير الاستعمال على ألسنة الخطباء وغيرهم. ولاسيما اذا ارادوا اثبات قضية يُسلِّم الخصم باحدى مقدّمتيها

فانّهم يعرضون عنها ايثاراً للاختصار . وربّما اوردوا القياس منحصراً بجملة واحدة كقول الشاعر :

احفظ لسانك ان تقولَ فتُبتَلى   انَّ البلاءَ موكّلٌ بالمنطقِ

وكقول الآخر :

صاحبُ الشهوة عبدٌ فاذا   خالفَ الشهوةَ صار الملكا

وهذا كثير في الخطب والكلام العاديّ ولا صعوبة في تحليلهِ واعادتهِ الى القياس الاصلي فتقول مثلاً في البيت الاوّل : يجب الاحتراس من كل ما يجرُّ بلاء واللسان يجرُّ البلاء فيُقتضى الاحتراس منهُ

٣ الاستقراء

س ما هو الاستقراء ؟

ج الاستقراء باللغة التتبُّع من استقريتُ الشيء اذا تتبعتَهُ . وعند المنطقيين هو الحكم على شيء لوجوده في جزئياتهِ (١ كما اثبت الشيخ جمال الدين الافغاني برسالتهِ التي فيها ردَ اقوال الطبيعيين ان لا قوام للألفة الاجتماعيَّة الّا بالدين . فاستقرى كثيراً من الممالك القديمة وبيّن ان هرمها ناشيء عن ابتعادها من سَنن الدين ومحجّة الايمان

س كم قسماً الاستقراء ؟

ج قال التهانويّ : الاستقراء قسمان : تامٌّ وناقص .

١) شرح الرازي على شمسية القزويني . والنجاة لابن سينا

فالتامّ ويسمَّى القياس المقسَّم هو ان يستدلَّ بجميع الجزئيات فيطلق على الكل ما تحقَّقهُ في كافَّة الافراد كما لو قال : كل جسم لا يخلو ان يكون او حيواناً او نباتاً او جماداً وكل واحدٍ من هذه الثلثة متحيّز . فينتج ان كل جسم متحيز . وهذا يفيد اليقين

والناقص هو ان يستدلَّ باكثر الجزئيات فقط فيطلق الحكم على الكلي وذلك يفيد الظنّ غالباً كقول المسعودي في العامَّة وقد حاول ان يبيّن ان كل العامَّة يغلب عليها الهوى في جميع امورها فقال :

انظر هل ترى اذا اعتبرتَ العامة فنظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها الّا مشحونة بالخاصَّة من اولي التمييز والمروءة والحجى. وتفقَّد العامَّة في احتشادها وجموعها فلا تراهمُ الدهرَ الّا مُرقلين الى قائدِ دبٍّ وضارب بدفٍ على سياسة قردٍ او متشوقين الى اللهو واللعب او مختلفين الى متعبِّد متنمِّس مخرِق او مستمعين الى قاصٍ كذَّاب او مجتمعين حول مضروب او وقوفاً عند مصلوب. يسوّدون غير السيّد ويفضلّون غير الفاضل ويقولون بعلم غير العالم. وهم أتباعُ مَن سَبَق اليهم من غير تمييز بين الفضل والنقصان ولا معرفة للحق من الباطل. يُنعَق بهم فيتبعون ويُصاح بهم فلا يرتدعون. لا ينكرون منكرًا ولا يعرفون معروفاً ولا يبالون ان يُلحقوا البرَّ بالفاجر والمؤمن بالكافر. وقد بيَّن ذلك عليٌّ وقد سُئل عن العامة فقال: هَمَج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأُوا الى ركن وثيق. واجمعَ الناسُ في تسميتهم على انهم غوغاء وهم الذين اذا اجتمعوا غلبوا واذا انصرفوا لم يُعرَفوا

فان مثل هذا لا يفيد اليقين لجواز وجود طائفةٍ من العامَّة لم تُستقرأ فلا يتجاوز الحكمُ حدودَ الاحتمال

ويمكن الاستقراء ان يفيد اليقين ايضاً في بعض الاحوال اذا ظهر من استقراء قسم من الجزئيات انَّ المطلوب يلزم

ضرورةً تلك الجزئيات مثالهُ ان تحكم بان كلّ انسان من طبعهِ ضاحك وان لم تعرف جميع الناس لتختبر فيهم الضحك

٤ القياس التمثيليّ

س ما هو التمثيل ؟

ج التمثيل في عرف المنطقيين اثبات حكمٍ في جزئيّ يُدعى فرعاً لثبوتهِ في جزئيّ آخر يُدعى اصلًا لمعنًى مشترك بينهما (١ . كقولك : العالَم مؤَلف من اجزاء كالبيت فهو حادث . تريد ان العالم ليس بازليّ بل حادث لانهُ يتركَّب من اجزاء التي لا غنًى لها عن إلهٍ يجمعها كما انَّ البيت حادث لانهُ احتاج الى صانع يركّب اجزاءهُ

راجع في مجاني الادب(٢ : ١٧٠) مثلًا لطيفاً من هذا الباب عنوانهُ « انَّ للعالم خالقاً » . ومنهُ ما ورد في كتاب زجر النفس حيث بيَّن بالتمثيل انَّ العلم واصطناع الخير لا يقومان بما ينفيهما كما انَّ بعض الصنائع تنفي اضدادها فقال :

يا نفسِ انهُ من اصعب الاشياء واشدّها امتناعاً ان تعمل صنعة الصياغة بأداة الفلاحة او صنعة النجارة بأداة الخياطة . ولكل صنعة اداة لن يستوي عملها الّا بها لا بغيرها واذا كان الانسان عارفاً بجميع الصنائع ايضاً مستعملًا جميع أدواتها فقد ينبغي لهُ اذا اراد ان يعمل الخياطة ان يرمي من يدهِ اداة الفلاحة ويأخذ للخياطة اداتها التي تصلح لها . واذا اراد ان يعمل الفلاحة فيرمي من يدهِ اداة

(١ تعريفات الجرجاني . وجاء في مصطلحات الفنون للتهانويّ : (التمثيل اثبات حكم في امرٍ لثبوتهِ في آخر لعلَّة مشتركة بينهما

الخياطة ليأخذ للفلاحة أداتها التي تصلح لها . وكذلك يا نفسِ ينبغي لمن اراد ان يدرك العلم وعمل الخير ان يترك من يده اداة الجهل والشرّ وهو حبّ الدنيا والرغبة فيها . فمتى هممتِ يا نفسِ بطلب العلم والخير فدَعي من يدك اداة الشرّ كما قد تقرَّر في علمك ان الصنعة لا تكمل الّا باداتها وخذي للعلم والخير اداتها . فانهُ متى عملتِها باداتها انعملا بغير تعَب ونصَب ومتى كان بيدك اداة الشرّ واردتِ ان تعملي بها الخير امتنع ذلك عليكِ وصعب كما امتنع على من كان بيدهِ اداة الفلاحة فاراد ان يعمل بها الصياغة فطال تعبهُ ونصبهُ ولم يتمّ لهُ عملهُ . فتيقَّني يا نفسِ هذا المعنى واعلمي انَّ حب الدنيا والخير لا يجتمعان في قلبٍ فتصوَّري يا نفسِ حقيقة هذا وادركيهِ ببصر عقلك

فانهُ قاس اعمال النفس باعمال اليد وقضى على الاولى ما اثبتهُ للثانية على طريقة التمثيل لعلّة موجودة في كليهما . وهي انَّ لكل امر اداةً مختصَّة بهِ

٥ القياس ذو الحدَّين

س ما هو القياس ذو الحدَّين ؟

ج هو ان تأخذ قضيَّة فتقسمها الى قسمين متباينين لا وسيط بينهما يفنّد كلاهما قول الخصم ويُسمى ايضاً هذا القياس بذي القرنين لانهُ ينطح الخصم يميناً وشمالاً . كما ذكر ابو ابو جعفر الاسكافيّ لعليّ بن ابي طالب من كتابٍ ارسلهُ الى طلحة والزبير :

قد علمتما انكما ممَّن ارادني وبايعني . فان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا الى الله من قريب . وان كنتما بايعتماني كارهَين فقد جعلتما لي عليكما السبيل باظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية

وكقول طارق وقد اراد حمل جنودهِ على الملك لُذريق وبيَّن لهم ان لا نجاة الّا بمقاومة العدوّ :

ايها الناس اين المفرّ البحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم والله الّا الصدق والصبر

٫ ومثلهُ قول السيد المسيح للفريسيين اذ سألهم عن معموديّة يوحنا أَمِن السماء هي ام من البشر فافحمهم لانهم لو قالوا من السماء قال لهم : فلِمَ لم تؤمنوا بشهادتهِ لي. وان قالوا : من البشر خافوا من الجمع لانهم كانوا يعدُّون يوحنا كنبيّ.

ومن هذا القبيل ما كتبهُ ابو نواس للامين وكان امر بحبسهِ :

مضت لي شهور قد حُبستُ ثلاثةٌ كأني قد اذنبتُ ما ليس يُغفرُ
فان اكُ لم اذنب ففيمَ عقوبتي وان كنتُ ذا ذنبٍ فعفوُكَ اكبرُ

واظرفُ منهُ قول ابي العلاء المعري في الايمان بالبعث :

زعم المنجّم والطبيبُ كلاهما أنْ لا معادَ فقلتُ ذاك اليكما
ان صحَّ قولكما فلستُ بنادمٍ او صحَّ قولي فالوبالُ عليكما

واحسن منهما ما رواهُ ابن هذيل لشاعر يبكّت العاصي على معصيتهِ :

أَلا ايُّها المستطرفُ الذنب جاحدًا هو الله لا تخفى عليهِ السرائرُ
فان كنتَ لم تعرفهُ حين عصيتَهُ فانَّ الذي لا يعرفُ الله كافرُ
وان كنتَ عن علمٍ ومعرفةٍ بهِ عصيتَ فانتَ المستهينُ المجاهرُ
فايّة حالَيْكَ اعتقدتَ فانَّهُ عليمٌ بما تُطوَى عليهِ الضمائرُ

س بايّ طريقةٍ يُتوصَّل الى حلّ القياس ذي الحدَّين ؟

ج الطريقة لحلِّهِ ان تجد وسيطًا بين طرفَي القياس فتتملَّص منهُ . وذلك بان تبيّن ان القسمة ليست مستوية وشاملة لجميع الانواع كما قال ابن الرومي وفي قسمتهِ خلل لانهُ سها عن ذكر الدين والعلم والآداب مع جليل نفعها

لم ارَ شيئًا صادقًا نفعهُ للمرء كالدرهمِ والسيفِ
يقضي لهُ الدرهمُ حاجاتهِ والسيف يحميهِ من الحيفِ

(فائدة) ان القياس ذا الحدين رُبَّما يعدل الخطيب عن حلّهِ توًّا وانَّما يردّ كيد الخصم في نحرهِ بشبه قياسهِ . والمثل في ذلك ما اورد ابن العبري لارخيلوخس الخطيب لمَّا وافاهُ تِيسياس وكان اخذ عنه الخطابة على ان يجعل لهُ مالًا معيَّنًا . فلمَّا اتقن فنَّ الخطابة حاول الغدر بهِ فقال لمعلمهِ : اني أُناظرك في الاجرة فان اقنعتُك بانني لا ادفعها اليك لم أَدفعها اذ قد اقنعتُك بذلك . وان لم أقنعك فلستُ اعطيك شيئاً لانني لم اتعلَّم منك الخطابة المفيدة للاقناع . فاجابهُ ارخيلوخس : وانا ايضاً أُناظرك فان أقنعتك بانَّهُ يجب لي اخذ حقي اخذتهُ أَخْذ مَنْ أَقنع . وان لم اقنعك فيجب ايضاً اخذهُ منك اذ قد نشأتَ تلميذًا يستظهر على معلمهِ

٦ في القياس المركَّب

س ما هو القياس المركب ؟

ج قال الرازي : هو قياس يتأَلَّف من مقدَّمات يُنتج مقدَّمتان منها نتيجةً وهي مع مقدَّمةٍ اخرى تُنتج نتيجةً ثانية وهلمَّ جرًّا الى ان يحصل المطلوب

س كم نوعاً القياس المركب ؟

ج القياس المركب امَّا موصول وامَّا مفصول . فان صرَّح الخطيب بنتائج تلك القياسات فهو الموصول لوصل تلك النتائج بالمقدَّمات . كقولنا : كل ا ج وكل ج د فكل ا د . ثم

كل د ز . وكل ز س . فكل ا س الخ (١ . ومثالهُ قولك :

البسيط لا جزء لهُ. والنفس بسيطة فلا جزء لها. ثم ما لا جزء لها لا يمكن تقسيمهُ والنفس لا جزء لها فلا يمكن تقسيمها. وما لا يمكن تقسيمه فهو ثابت خالد والنفس لا يمكن تقسيمها فهي لبساطتها ثابتة خالدة

وان لم يصرّح بها سمّي مفصولًا لفصل النتائج عن المقدمات في الذكر وان كانت مرادة من جهة المعنى كقولنا : كل ا ب وكل ب ج . وكل ج د . وكل د ي فكل ا ي(٢ . ويسمّى هذا القياس القياس المدرَّج وتعريفهُ انهُ عبارة عن سلسلة قضايا مرتبطة باتساق يكون محمول الاولى موضوعاً للثانية ومحمول الثانية موضوعاً للثالثة الى ان يحصل المقصود . كقول علي بن ابي طالب :

ايها الناس اياكم وتعلُّم النجامة فانها تدعو الى الكهانة. والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار وكذلك المنجّم

ولهُ مثبتاً الظفر لكاظم الغيظ :

من كظم غيظَهُ فقد حَلُمَ . ومن حَلُمَ فقد صَبرَ . ومن صبر فقد ظفِرَ

ولابن مسكويهِ في شقاء من يطمع بالهناء الدائم في هذا الحياة

مَن طمع من الكائن الفاسد أن يكون ولا يفسد فقد طمع بالمحال ومن طمع بالمحال لم يزل خائباً . والخائب ابدًا محزون . والمحزون شقيّ

ومثلهُ قول عمر للاحنف بن قيس في من يبالغ في الضحك والهزل :

من كثر ضحكهُ قلَّت هيبته. ومن قلَّت هيبتهُ كثر سقطهُ. ومن كثر سقطهُ قلَّ ورعهُ. ومن قلَّ ورعهُ ذهب حياؤهُ. ومن ذهب حياؤه مات قلبهُ

---

١) النجاة لابن سينا ٢) شرح الشمسية ومقالات السيد الجرجاني

(فائدة) اعلم ان القياس المدرَّج هو مجموع اقيسةٍ يتسلسلُ بعضها من بعض مع العدول عن ذكر الصُّغريات الّا صغرى القياس الاوَّل ويعرض كذلك عن ذكر نتائج الاقيسة ما خلا نتيجة القياس الاخير . وانما يسهل على الحاذق بان يعيد هذه الاقيسة الى اصولها فيفرز غثَّها من سمينها ويطَّلع على خللها ان وُجد فيها . ففي قول عليّ انفاً اربعة اقيسة صورتها :

القياس الاوَّل : النجامة تؤدي الى الكهانة . والكهانة حرام فالنجامة حرام

القياس الثاني : الكهانة تؤدي الى السحر . والنجامة تؤدي الى الكهانة . فالنجامة تؤدي الى السحر

القياس الثالث : السحر يؤدي الى الكفر . والنجامة تؤدي الى السحر . فالنجامة تؤدي الى الكفر

القياس الرابع : الكفر يؤدي الى النار . والنجامة تؤدي الى الكفر فالنجامة تؤدي الى النار

٧ لواحق القياس

س ما هي بقية القياسات المستعملة في الخطابة ؟

ج ربَّما التجأَ الخطيبَ لإثبات قضيتهِ الى انواع أُخر من القياسات هي لواحق بما تقدَّم ذكرهُ . فمنها القياس الشَّرْطي . ومنها القياس الاستثنائي . ومنها قياس الخَلْف

س ما هو القياس الشرطيّ ؟

ج هو ما كان مركَّباً من قضيَّتين احداهما محكوم عليها

والاخرى محكوم بها بجمعهما رابط يدلُّ على العلاقة بينهما . كقولك : ان وُجد المعلول فلا بدَّ لهُ من علّة . فالمحكوم بهِ قولك : وُجد المعلول والمحكوم عليهِ قولك : لا بدَّ المعلول من علّة . والربط انْ الشرطية وفاء الجواب (١

س متى يصحُّ القياس الشرطيّ ؟

ج للقياس الشرطيّ قاعدتان : الاولى ان المشروط يثبت بايجاب الشرط وبسلبهِ اي يكون موجبًا ان كان الشرط موجباً ويكون سلبًا ان كان سلبًا كقولك :

ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود والحال انَّ الشمس قد طلعت فقد ثبت اذًا طلوع النهار . فلمّا ثبت المقدَّم نتج ايضاً ثبوت التالي . وتقول في السلب : ان لم يأتِ لا نكرمهُ . فلم يأتِ . اذن لا نكرمهُ

الثانية ان الشرط يكون سلبيًّا اذا كان المشروط منفياً كقولك :

لو درستَ لتعلّمت . لكنك لم تتعلم فاذًا لم تدرس . فنُفي التالي بعدم تحقُّق الشرط

وكقول ابي العتاهية :

فلو كان هولُ الموت لا شيء بعده لهان علينا الامرُ واحتُقرَ الامرُ
ولكنهُ حشرٌ ونشرٌ وجنَّةٌ ونارٌ وما قد يستطيلُ به الخُبْرُ

س ما هو القياس الاستثنائيّ ؟

ج القياس الاستثنائي ويُعرَف ايضًا بالتفصيليّ هو

١) شرح بحث الآداب للسمرقندي

مُركَّب من مقدَّمتين احداهما شرطيَّة والاخرى وضعٌ لاحد جزئيها او رفعهُ.وعرَّفوه ايضاً بقولهم : هو ما كان عينُ النتيجة او نقيضها مذكورًا فيهِ بالفعل.وهو لا يصحّ الّا بعدم وجود ما يتوسَّط بين المقدَّمتين كقولك :

ان كان هذا نباتاً فهو حيّ نامٍ . فهو نباتٌ . اذن يحيا وينمو .
(او) ليس هو نباتاً اذن لا يحيا ولا ينمو

س ما هو قياس الخَلف ؟

ج قياس الخَلف ويسمَّى ايضاً القياس العطفيّ وهو القياس الذي يقصد فيه اثبات المطلوب بإبطال نقيضه (١ كقول الرب : لا يستطيع احد ان يعبد ربَّين الله والمال . فاذا صدق انَّ فلاناً يعبد الله فأبطل نقيضه وهو عبادة المال والعكس بالعكس

وقد جاء لبعض العارفين :

انَّ الدنيا والآخرة عدوَّان متناقضان وسبيلان مختلفان فمن احبَّ الدنيا وتولَّاها ابغض الآخرة وعاداها

وكقول محمد الورَّاق :

تعصي الالهَ وانتَ تظهر حُبَّهُ هذا مُحالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَهُ انَّ المحبَّ لِمَنْ يحبُّ مطيعُ

---

١) اصطلاحات الفنون للتهانوي

البحث الثاني
في التفنيد

س ما هو التفنيد ؟

ج التفنيد ويُسمَّي ايضاً النَّقض هو في اللُّغة التكذيب والتجهيل . وفي الاصطلاح هو قسم من الخطابة يُخطِّئ بهِ المتكلّم رأيَ خصمهِ ويردّ على حُججهِ

س هل يكون للتفنيد رقعٌ في كل اصناف الخطَب ؟

ج كلَّا فانَّ الإضراب عن حجج الخصم في بعض المقامات أَولى من نقضها لقلَّة اكتراث السامع لها . وكثيراً ما يحلُّ الخطيب اعتراضات الخصم بمجرَّد اثباتهِ لقضيتهِ فلا تمسُّ اذ ذاك الحاجة الى تفنيدها لانَّ الاضداد ملازِمةٌ بعضها فيكون تحقُّق الشيء نفياً لنقيضهِ

س على كم صنفٍ هي الحجَج المقتضى تفنيدها وفي ايّ قسمٍ من الخطابة تُفنَّد ؟

ج هذه الحجج على ثلاثة اصناف : فمنها ما يسبق اليهِ توهُّم السامع والأَولى ان يفنِّدها الخطيب في صدر خطابهِ كما لو اراد الخطيب ان يحمل الجُند على القتال فلا ينجع كلامهُ فيهم ما لم يبطل خوفهم من العدوّ في بدء خطابهِ ببيان فضلهم عليهِ من بعض الوجوه

ومنها ما يفترضها الخطيب لتواتر وقوعها ويعرضها على نفسهِ فيُحاول إبطالها كتفنيد حجج من يؤَجّل التوبة رجاء ان ينيب اليهِ تعالى في ساعة الموت . وهذه الحجج تُفنَّد غالباً في آخر الخطاب كقول رسول الامم في رسالتهِ الى اهل قورنتس حيث اثبت حقيقة قيامة الاجساد فألحق اثباتهُ بتفنيد ناكري وقوعهِ فقال :

ولكن يقول قائلٌ كيف يقوم الاموات وبأيّ جسدٍ يبرزون . يا جاهل إنَّ ما تزرعهُ أنتَ لا يَحيا الا اذا مات . وما تزرعهُ ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون بل مجرَّدُ حبَّة من الحنطة مثلاً او غيرها من البزور . الّا ان الله يجعل لها جسماً كيف شاء ولكلٍّ من الزروع جسمهُ المختصّ بهِ . ليس كل جسد جسدًا واحدًا بل للناس جسدٌ وللبهائم جسدٌ آخر وللطيور آخر وللاسماك آخر . ومن الاجساد اجسادٌ سماوية واجسادٌ أرضيَّة ولكن مجد الشمس نوعٌ ومجد القمر نوع آخر ومجد النجوم نوع آخر لانَّ نجماً يمتاز عن نجم في المجد هكذا قيامة الاموات . الزرع بفسادٍ والقيامة بغير فساد . الزرع بهوانٍ والقيامة بمجد . الزرع بضعفٍ والقيامة بقوَّةٍ

ومنها ما يأْتي بها الخصم في المقاضاة والمُشارَعة في الدعاوي . وهذه المحاجَّة تُقدَّم او تؤَخر على مقتضى الحال وهي كثيراً ما تُمازج ادلَّة الخطيب يحلُّها في أثناء كلامهِ كقول عبدالمسيح الكندي يردُّ على من ادَّعى ان المسيحيين حرَّفوا اسفار الانبياء والكتب المقدسة :

وكأني بك اصلحك الله قد ذكرتَ التحريف في هذا الموضع واحتججت علينا بأنّا حرَّفنا الكلم عن مواضعه وبدلنا الكتاب كأن هذا القول جملتهُ كهفًا لك تستترُ بهِ . واني لَأُخبرك خبرًا حقًّا فاسمعهُ منّي وعِهِ واقبلهُ . فانَّ قولي ليس قول باغٍ ولا حاسد ولا مُتعنّت معاند بل انما هو نذرٌ مني لك ونصح اذ كان ديني يوجب عليَّ نصيحة كل احد فانا بذلك مُشفق عليك من كثرة الجهل وصرعَتِهِ وخيمهِ . وما أعلم اني سمعتُ قط بحجَّة اشد انقطاعًا واوحش انفساخًا من حجَّتك في باب التحريف والتبديل واني لأعجب منك ومن نظائرك ممَّن فتَّش كتب

مقالات الحق وكان لهُ ذهنٌ صحيح يميز بهِ كيف يجوز مثل هذا عليهِ. وانت تعلم اننا نحن واليهود الجاحدين لما جاء بهِ نور العالم وضياء الدنيا المسيح سيدنا ومخلصنا قد اجتمعنا عن غير تواطؤ على صحَّة هذا الكتاب وانهُ مُنزل من عند الله لا تحريف فِيهِ ولا تبديل ولم تلحَقهُ زيادة ولا نقصان. والَّا فنحنُ ندعوك الى واحدة هي نصَفَة لنا ولك إئتِنا أصلحك الله أنت ايها المدعي علينا التحريف والتبديل إن كنتَ صادقًا بكتاب غير محرَّف ولا مبدل يشهد لك على صحة الآيات العجيبة كما شهدَتْ الاعاجيب للانبياء والحواريّين حيث جاؤُونا بصحـة هذا الكتاب فقبلنا ذلك منهم وهو في ايدينا وايدي اليهود بلا زيادة ولا نقصان. إني لأَعلم انك لا تقدر على ذلك ابدًا. وقد شهد لنا كتابك بحقّ التلاوة . . . فاذا كنتَ لا تقدر أنتَ ولا غيرك تُلَفّق على ما في ايدينا على الشريطة التي شرطناهـا وهو ممتنع من امكانك فما لك والمباهتة التي ليست من عادتك ولا من اخلاقك وتتنّع علينا وتقول انَّا حرَّفنا الكتاب وبدلنا تنزيل الله وغيرنا كلامـهُ ونحن نتلوهُ حق تلاوتهِ. فانصفْ أصلحك الله واطلب رِضى ربّك

ومثلهُ ما اخبر المدائني عن عمرو بن العاص قال : كان عمرو في موسم من مواسم العرب فأطرى معاويةَ بن أَبي سفيان وذكر مشاهدهُ بصفّـين فاجتمعت قريش واقبل عبدالله بن عباس على عمرو فقال :

يا عمرو انك بعتَ دينك من معاوية واعطيتهُ ما بيدك ومنَّاك ما بيد غيرك. وكان الذي اخذ منك اكثر من الذي اعطاك والذي اخذتَ منهُ دون الذي اعطيتهُ وكلٌّ راضٍ بمـا اخذ واعطى. فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك في يدك القيتَها. وذكرتَ مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلتْ علينا وطأتُك ولقد كُشفت فيها عورتك وان كنتَ فيها لطويل اللسان قصير السنان آخر الخيل اذا أَقبلتْ واوَّلها اذا أَدبرتْ. لك يدانِ يدٌ لا تبسطها الى خير واخرى لا تقبضها عن شرّ ولسانٌ غرور ذو وجهين وجه موحش ووجه مؤنس. ولعمري ان من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ ان يطول عليها ندمهُ. لك لسان وفيك حطَل ولك رأي وفيك نـكَد ولك قدر وفيك حسد واصغرُ عيب فيك اعظمُ عيب في غيرك

فاجابهُ عمرو بن العاص :

والله ما في قريش اثقل عليَّ مسألةً ولا امرُّ جواباً منك ولو استطعتُ ان لا اجيبك لفعلت . غير اني لم ابعْ ديني من معاوية ولكن بعتُ الله نفسي ولم انسَ نصيبي من الدنيا . واما ما اخذتُ من معاوية واعطيتهُ فانهُ لا تُعلَّم العوانُ الخِمرةَ . واما ما اتى اليَّ معاوية في مصر فان ذلك لم يغيّرني لهُ . واما خفّة وطأتي عليكم بصفّين فلِمَ استثقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي ؟ واما الجبن فقد علمتْ قريش اني اول مَن يبارِز وآخرُ من يُنازَل . واما طول لساني فاني كما قال هشام بن الوليد لعثمان ابن عفّان :

لساني طويل فاحترسْ من شذاتهِ   عليك وسيفي من لسانيَ اطولُ

واما وجهايَ ولساناي فاني القى كل ذي قَدْر بقَدْرهِ وارمي كل نابح بحجره . فمن عرف قدره كفاني نفسهُ ومن جهل قدرهُ كفيتهُ نفسي . ولعمري ما لاحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية فما ينفعني ذلك عندك (وانشأ عمرو يقول) :

بني هاشم ما لي اراكم كانكم   بيَ اليوم جُهَّالٌ وليسَ بكم جهلُ
ألم تعلموا اني سريعٌ على الوغى   سريعٌ الى الداعي اذا كثر القَتلُ
واوّلُ من يدعو نزالاً طبيعةً   جُبلت عليها والطباع هو الجَبْـلُ
واني فصلت الامرَ بعد اشتباههِ   بدومةَ اذا أعيا على الحكَمِ الفصلُ
وانيَ لا اعيـا بامرٍ أريده   واني اذا عجّت بكاركمُ فحلُ

س من اين تؤخذ اساليب المحاجّة لافحام الخصم ؟

ج تؤخذ من معرفة المغالطة

س ما هي المغالطة ؟

ج المُغالطة في اللُّغة النسبة الى الغلط . وعند المنطقيين هي صناعة يعرف بها القياس الفاسد إمَّا من جهـة الصورة او من جهة المادّة او من جهتهما معًا (١

قال في شرح المطالع : ان الغرَض من معرفة هذه الصناعة الاحتراز

١) اصطلاحات الفنون

عن الخطإِ وربما يُمتحَن بها من يُراد امتحانهُ في العلم ليُعلَم بهِ كمالهُ بعدم ذهاب الغلط عليهِ وقصوره بذهابهِ عليهِ . وبهذا الاعتبار تسمَّى قياساً امتحانيَّاً . وقد تُستعمَل في تبكيت من يُوهم العوامّ انهُ عالم ليظهر لهم عجزهُ عن الفرق بين الصواب والخطإِ فيصدُّون عن الاقتداء بهِ وبهذا الاعتبار تسمى قياساً عناديا

س ما هي مواد المغالطة ؟

ج موادُّ المغالطة المقدّمات الشبيهة بالحق وهي ليست حقًّا . قال شارح إشراق الحكمة : انَّ اسباب الغلط على كثرتها ترجع الى امرٍ واحد وهو عدم التمييز بين الشيء واشباههِ . ثم انها تنقسم « الى ما يتعلّق بالالفاظ » بان تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيره ويدخل فيهِ الاشتراك والتشابه والمجاز . و « الى ما يتعلق بالمعاني وتأليف القياس » كعدم صحَّة مقدَّماتهِ . او تكون النتيجة مغايرة لاحدى المقدَّمتين . فمثال المغالطة اللفظيَّة تفنيد السيّد المسيح لنيقوديموس اذ لم يميّز بين ولادة الجسد وولادة الروح (راجع الفصل الثالث من انجيل يوحنا)

ومثال المغالطة المعنويَّة قول علي يردُّ على معاوية وكان نسب اليهِ اشياء :

زعمتَ اني لكل الخلفاء حسدتُ وعلى كلّهم بغيتُ . فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكونَ العذرَ اليك . وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها . وقلتَ اني كنتُ أُقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتَّى أُبايع . ولعمر الله لقد اردتَ ان تذمَّ

فمدحت وان تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكا في دينـه او مرتاباً بيقينهِ. وهذه حجتي الى غيرك قصدُها ولكني اطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذِكرها

ثم ذكرتَ ما كان من امري وامر عثمان فلك ان تُجاب عن هذه لِرَحمك منهُ. فايُّنا كان أعدى لهُ واهدى الى مَقاتلهِ أمَن بذل لهُ نصرتهُ فاستقعدهُ واستكفَّهُ ام مَن استنصره فتراخى عنهُ وبثَّ المنون اليهِ حتى اتى قدَرُهُ عليهِ. كلَّا واللهِ لقد علم اللهُ المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم: هلمَّ الينا ولا يأتون البأس الَّا قليلًا

وما كنتُ لِأعتذرَ من اني كنت انقم عليهِ احداثاً فان كان الذنب اليهِ ارشادي وهدايتي لهُ فربَّ ملومٍ لا ذنب لهُ. وقد يستفيد الظنَّة المتنصح وما اردتُ الا الاصلاح ما استطعتُ. وما توفيقي الا باللهِ عليهِ توكَّلت

س اليس للخطيب وسائل أُخرى لمناقضة الخصم ؟

ج نعم وهي كثيرة منها: اولًا الانكار وذلك بان لا يُسلِّم بما ادعاهُ الخصم لحجَّة تلزمهُ كقول ابن خلدون ردًّا على من نسب الى الرشيد معاقرة الخمر مع تقاهُ:

واما اما تُموّه بهِ الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سُكرهِ بسكر الندمان فحاشا لله ما علمنا عليهِ من سوءٍ. واين هذا من حال الرشيد وقيامهِ بما يجب لمنصب الخلافـة من الدين والعدالة وما كان عليهِ من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراتهِ للفُضيل بن عياض وابن السمَّاك والعمريّ ومكاتبتـهِ سفيان الثوري وبكائهِ من مواعظهم ودعائهِ بمكة في طوافهِ وما كان عليـه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح لاوَّلِ وقتها . . .

فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من سلفهِ المنتحلين للدين وما رُبيَ عليه من امثال هذه السيَر في اهل بيتهِ والتخلُّق بهـا ان يعاقر الخمر او يجاهر بها. وقد كانت حالة الأشراف من العرب في الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكَرْمُ شجرَتهم وكان شربها مذمَّة عند الكبير منهم والصغير. والرشيد واباؤهُ كانوا عـلى ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنيـاهم والتخلُّق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب . . .

وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق. وفتاويهم فيها

معروفة. واما الخمر الصرف من العنب فلا سبيل الى اتهامهِ بهِ ولا تقليد الاخبار الواهية فيها . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرَّماً من اكبر الكبائر عند اهل الملَّة. ولقد كان اولئك القوم كلهم بنجاة من ارتكاب السَرَف والترَف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليهِ من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلّية الى الحرمة

ثانياً التزكية . بان يقرَّ الخطيب بصحَّة الواقع ثم يثبت انهُ ليس بجنايةٍ ولا عار . كقول علي بن جهم لمَّا حبسهُ المتوكل :

قالوا حُبستَ فقلتُ ليس بضائري حبسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغمَدُ
أو ما رأيت الليث يألفُ غِيلهُ كبرًا وأوباشَ السباع تَردَّدُ
والشمس لولا انها محجوبة عن ناظرَيك لما أضاءَ الفرقدُ
والبدرُ يدركهُ السِرار فتنجلي أيامهُ وكأنهُ متجددُ
والغيث يحصرهُ الغمام فما يُرى الَّا وريّقهُ يُراع ويرعدُ
والراعبيَّة لا يقيم كعوبها الَّا الثقافُ وجذوة تتوقَّدُ
والنار في احجارها مخبوءَةٌ لا تصطلي ان لم تُثرْها الازنُدُ
والحبسُ ما لم تغشَهُ لدنيَّةٍ شنعاءَ نعمَ المنزلُ المتودَّدُ
بيتٌ يجدّد للكريم كرامةً ويُزارُ فيهِ ولا يزور ويُحمدُ
لو لم يكن في الحبس الَّا انهُ لا يستذلُّك بالحجاب الأعبدُ
كم من عليلٍ قد تخطاهُ الردى فنجا ومات طبيبهُ والعوَّدُ
يا احمد بن ابي دُؤَادٍ انما تُدعى لكل عظيمة يا احمدُ
أبلغ امير المؤمنين ودونهُ خوض الردى ومخاوفٌ لا تنفدُ
انَّ الذين سعوا اليك بباطلٍ حسَّادُ نعمتكَ التي لا تُجحدُ
شهدوا وغبنا عنهمُ فتحكموا فينا وليس كغائبٍ من يشهدُ
لو يجمع الخصماءَ عندك مجلسٌ يوماً لبان لكَ الطريقُ الاقصدُ
فبأيِّ جرمٍ أصبحتْ اعراضنا نهباً تقسَّمها اللئيم الاوغدُ ؟

وكقول السموءَل يردُّ على من عيَّرهُ قلَّة عدد قومهِ :

تعيّرنا انَّا قليلٌ عديدنا فقلتُ لها انَّ الكرامَ قليلُ
وما قلَّ منْ كانت بقاياهُ مثلنا شباب تسامي للعُلى وكهولُ

وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجارُ الاكثرين ذليل

ثالثاً التنديد . بان يعرّض بمعايب الخصم لنقض شهادته وإبطال حجتهِ . كما جاءَ في كتاب اخوان الصفا على لسان البغاء تردُّ على الإنس وكانوا تفاخروا بملوكهم وسياستهم فتنتصر للحيوان :

خذ الان ايها الانسي بازاء كل ما ذكرتَ وافتخرت به واحدًا مذموماً وبدلَ كل جنسٍ حسن مليح جنساً قبيحاً سمجاً ونحن بمعزلٍ عنها . وذلك ان منكم الفراعنة والنماردة والجبابرة والكفَرة والفجَرة والفسقة والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين والناكسين والقاسطين والخوارج وقطّاع الطريق واللصوص والعيّارين والطرّارين . ومنكم ايضاً الدجّالون والباغون والمرتابون . ومنكم ايضاً الغمّازون والكذّابون والنباشون . ومنكم ايضاً السفهاء والجهلاء والاغبياء والناقصون وما شاكل هذه الاصناف والاوصاف والطبقات المذمومة أخلاقهم الردية طباعهم القبيحة افعالهم السيئة اعمالهم الجائرة سيرتهم ونحن بمعزلٍ عنهـا . ونشاركُكم في اكثر الخصال المحمودة والاخلاق الجميلة والسُّنن العادلة . وذلك ان أول شيء ذكرتَ وافتخرت بهِ ان لكم الملوكَ والرؤساء ولكم اعوان وجنود ورعية . او مـا علمتَ بان لجماعة النّحل ولجماعة النمل ولجماعة السباع ولجماعة الطيور رؤساء وجنودًا واعوانًا ورعية وانَّ رؤساءها احسنُ سياسةً واشدّ رعاية من ملوك بني آدم لها واشدُّ تحنُّنًا عليها واكثر رافةً وشفقةً عليها . بيان ذلك انَّ ملك الانس ورئيسهم لا ينظر في امور رعيتهِ وجنودهِ الا لجرّ المنفعة لنفسهِ او لدفع المضرّة عنهُ او لاجل مـن يهواه لشهواتهِ كائنًا من كان قريباً او بعيدًا . وليس هذا فعل الملوك العقلاء ولا عمل الرؤساء ذوي السياسة الرحماء بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرئاسة ان يكون الملك والرئيس رحيماً رؤوفاً لرعيتـهِ مشفقاً متحنّنًا على جنوده واعوانهِ اقتداء بسنَّة الله الرحمن الرحيم الجوّاد الكريم الرؤوف الودود لخلقهِ وعبيده كائناً من كان الذي هو رئيس الرؤساء وملك الملوك . وامّا اجناس الحيوانات وملوكها ورؤساؤها فهم اكثر اقتداء بسنَّة الله تعالى من رؤساء الانس وملوكهم . وذلك ان ملك النحل ينظر في امور رعيّتهِ وجنودهِ واعوانهِ ويتفقّد احوالهم . وهكذا يفعل ملك النمل وملك الكراكي في حراستهِ وطيرانهِ وملك القطا في ورودهِ وصدوره . هكذا حُكمُ سائر الحيوانات التي لهـا رؤساء ومدبرون لا يطلبون من رعاياهم

عوضاً ولا جزاء فيما يسوسونهم بهِ ولا يطلبون من اولادهم برًّا ولا صلةَ رحمٍ ولا مكافأةً كما يطلب بنو آدم من اولادهم البرَّ والمكافأة في تربيتهم لهم. لكنها تربّي اولادها تحنناً عليها وشفقةً ورحمةً لها ورأفةً بها بل كل ذلك اقتداء بسنَّة الله اذ خلق عبيده وأنشأهم وربَّاهم وانعم عليهم وأحسن اليهم واعطاهم من غير سؤَال منهم وفم يطلب منهم جزاء ولا شكرًا

رابعًا الاستدراك. بان يُقابل اعتراضات الخصم باعتراضات مثلها توهن قواها . كقول النعمان لكسرى وكان كسرى ادَّعى ان العرب ليس لهم شيء من خصال الدين والدنيا فيأكل بعضهم بعضاً :

امَّا (تحارُبهم واكلُ بعضهم بعضاً وتركُهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم) فانما يفعل ذلك من يفعلهُ من الامم اذا آنستْ من نفسها ضعفاً وتخوَّفت نهوض عدوّها اليها بالزَّحف وانهُ انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يُعرَف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بازمَّتهم. واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكًا اجمعين مع أَنَفتهم من أداء الخراج والوصف بالعسف . . .

وكقول ابي حمزة الخارجي وبلغهُ ان اهل المدينة يعيبون اصحابهُ لحداثة اسنانهم وخفَّة اخلاقهم فصعد المنبر وعليهِ كساء غليظ وهو متنكِّب قوساً عربية فقال :

يا اهل المدينة بلغني انكم تنتقصون اصحابي قلتم: هم شباب احداث واعراب جُفاة . ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلَّة عقولكم لأحسنتُ آراءكم . ويحكم يا اهل المدينة وهل كان اصحابُ نبيّنا المذكورين في الخير الّا احداثاً شباباً . شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشرّ اعينهم ثقيلة على الباطل . قد باعوا انفساً تموت غدًا بانفُس لا تموت ابدًا فطوبى لهم وحسنُ مآب

خامساً الترجيح . وهو ان يبين ان ما اقترحهُ المدافَع عنهُ من الحسنات يشفع بما اجترحهُ من السيئات او انَّ ما فيهِ من النقص لا يقاس بما فيهِ من الفضل . كقول المسيَّب القريشيّ :

زعموا انّي قصير لعمري ما تُكالُ الرِجالُ بالقُفْزانِ
انما المرْءُ باللسانِ وبالقلبِ م وهذا قلبي وهـذا لساني

سادساً ردّ الحجة على الخصم . وذلك ان تَعْمد الى حجَّـة الخصم وتبيّن انها عليهِ لا لهُ كقول ابن سعيد يردّ على ابن حوقـل وكان قد نسب اهل جزيرة الاندلس الى صغر الاحلام وضعة النفس :

لم أرَ بُدًّا من إثبـات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيهِ من الظُلم والتعصُّب ما لا يخفى . ولسان الحال في الردّ انطق من لسان البلاغة . وليتَ شعري إذا سُلب اهلُ هذه الجزيرة العقولَ والاراءَ والهمم والشجاعة فمن الذين دبَّروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيّف ومن الذين حموها بيسالتهم من الامم المتَّصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة اشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب . واني لأعجبُ منهُ اذ كان في زمانٍ قد دَلفت فيهِ عبَّاد الصليب الى الشام والجزيرة وعاثوا كلَّ العيث في بلاد الاسلام حيث الجمهور والقبَّة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما ادراك وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن اعظم ذلك واشدّهِ انهم كانوا يتغلَّبون على الحصن من حصون الاسلام التي يتمكنون بها من سائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداءِ في ذلك . وقد يستعين بهِ بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يُطَبُّ . وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضدّ من البلاد التي ترك وراءَ ظهرهِ وذلك موجود في تاريخ ابن حيَّان وغيرهِ

سابعاً التهكم والهزل . بان تبين انَّ ما جاءَ بهِ الخصم من الادلة ليس تحتهُ طائل فلا يستحقُّ جواباً بل السكوت عنـهُ أَولى وفقاً لما قيل :

اذا نطق السفيهُ فلا تُجبهُ فخيرٌ من اجابتهِ السكوتُ

ومن الامثال في هذا الباب قول علي لمعاوية وكان تهدَّدهُ بالحرب :

وذكرتَ انهُ ليس لي ولاصحابي الَّا السيف . فلقد اضحكتَ بعد استعبار . متى

أَلفيتَ بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين وبالسيوف مَخوفين. فَلَبّثْ قليلًا يلحق الهيجاء حَمَل. فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد. وانا مُرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان شديدٍ زحامُهم ساطعٍ قتامُهم متسربلين سربال الموت ، احبُّ اللقاء اليهم لقاء ربّهم، قد صحبتهم ذريّة بدريّة وسيوف هاشميّة قد عرفتَ مواقع انصالها في اخيك وخالك وجدك واهلك وما هي من الظالمين ببعيد

س ما الذي ينبغي للخطيب ان يحترز منهُ في تفنيد حجج الخصم ؟

ج ينبغي لهُ ان يصون نفسهُ من اربع خصال :

الاولى . ان لا يؤْخذ من ردّهِ انهُ غافلٌ عن حجَّة خصمهِ يجهل قوَّتها او يتجاهل بذلك

الثانيــة . أَلَّا يكون جوابهُ ملتبساً ضعيفاً اظهرَ تكلُّفاً لإفحام الخصم منهُ لاظهار الصواب وتقرير الحق

الثالثة . الَّا يشرد عن الموضوع فيتشاغل بحلّ ما لم يكلِّفهُ الخصمُ حلَّهُ فيكون كالراقم على صفحات الماء

الرابعة . الا يحيد عن محجَّة الآداب المأنوسة ويذهل عن سنَن الالفة

الباب الثالث

في الختام

س ما هو الختام ؟

ج هو آخر ما ينتهي الى أُذن السامعــين من كلام الخطيب

س ما هو شرف الختام ؟

ج ان شرفهُ عالٍ لحسن وقعهِ في النفوس اذ هو الباقي في ذهن السامعين وآخِر ما يتردَّد صداهُ في قلوبهم وبهِ تتمُّ الفائدة . قال الحموي : لا بُدَّ ان يُحسن المتكلم في الختام غاية الاحسان لانهُ آخر ما يبقى في الاسماع وربما حُفظ من دون سائر الكلام في غالب الاحوال فلا يحسن السكوت على غيرهِ وقد ضربوا امثالاً كثيرة مستفيضة في ذلك منها ما ورد في سورة الزلزال :

اذا زلزلت الارض زِلْزالها . وأخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذٍ تحدّث اخبارها بان ربّك اوحى لها . يومئذٍ يصدر الناس اشتاتًا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرَّة خيرًا يَرَهُ ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يرهُ

س ما هي غاية الختام ؟

ج فيهِ للخطيب غايتان : الاولى ان يُتمّ اقناع السامعين . والثانية ان يهيج بهم الميل الى صنيع ما اذعنوا لهُ

س كم قسماً الختام ؟

ج للختام قسمان يؤخذان من غايتي الخطيب : الاوَّل تلخيص ما جاء بذكرهِ مُفصَّلًا في اثناء الخطاب وبهِ يتمُّ اقناع الجمهور . والثاني تحريك العواطف وبهِ نهاية تأثير القلوب

س ماذا يجب على الخطيب ان يلاحظهُ في تلخيص الخطبة ؟

ج عليهِ ان يكتفي بذكر اهمّ ما جاء بهِ من البيّنات

في خلال الكلام ومن ثمَّ يبرزها على صورة جديدة واسلوب رشيق لئلّا تذهب طلاوة الكلام كختام الشيخ جمال الدين الافغانيّ لمقالتهِ في مذهب الطبيعيين فقال :

فتبيَّن ممَّا قررناهُ أن الدين وإن انحطَّت درجتهُ بين الاديان ووهى اساسهُ فهو افضل من طريقة الدهريّين وامسُّ المدنية ونظام الجمعية الانسانيَّة واحمل اثرًا في عقد روابط المعاملات . بل في كل شأن يفيد المجتمع الانساني وفي كل ترقٍّ بشري الى اية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الاولى

ولما كان نظام الاكوان قد بُني على اساس الحكمة ونظامُ العالم الانساني جزء من النظام الكوني ألهم الله نفوس البشر ان تفزع الى مقاومة اولئك المُفسدين (الدهريين) في اي زمان ظهروا او مدافعة ما يعرض من شرّهم كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة والنفرة من الاغذية السامَّة . وأخص حفَّاظ النظام المدني الحقيقي وهو الدين لبذل الجهد وإفراغ الوسع في محو آثارهم واستئصال ما يغرسون في تعاليمهم . . . فكان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلَّما ظهر تقشَّع . والنظام الحقيقي لنوع الانسان وهو الدين لم يزل قارًّا راسخًا في جميع الاجيال وعلى اي الاحوال

فلم تبق ريبة ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطهُ شيءٌ من اباطيل من يزعمونهُ ولا يعرفونهُ فلا ريب انهُ يكون سببًا في السعادة التامَّة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديهِ في جوادّ الكمال الصوري والمعنوي ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهري والباطني ويرفع اعلام المدنية لطلّابها . يُفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

س كيف يحصل الخطيب على تتمة التأثير في قلوب الجمهور ؟

ج انهُ يحصل على ذلك اذا ما افرغ كنانة مجهودهِ في تحريك الاهواء . فيلتجئ تارةً الى التحذير والترهيب واخرى الى الوعد والترغيب . وآناتٍ يحمل السامعين على الرجاء او على الخوف

وخلاصة الكلام عليهِ الَّا يترك باباً الَّا يقرعهُ ولا مسلكاً الَّا ينهجهُ لينصر راية الحق ويكسر شوكة الباطل حتى يفوز بمبتغاه ويحصل على غاية مُناه . مثال ذلك قول ابي الحليم في ختام خطبة القاها يوم عيد القيامة (وهي ليست في مجموع خطبهِ) :

هلمَّ معاشر المؤمنين لنعتدَّ منذ الآن لاوَّل العالم العتيد ، نحلّي العقول بمكارم الاخلاق تحلية الاجساد بالجديد ، ونصون عرائس النفوس بسدول اردية التقى وخدوره ، صون خريدة الاحرار بإسبال طيالسة الحياء وستوره ، نختم بصدقات الظفر صيامنا . وبصلات البرّ صلاتنا وقيامنا ، نتحرَّى لقصد صدق المقال ، وجميل الطريقة في الخليقة والفعال ، ونسعى في طلب الحلال سعيَ الابطال ، ونشرع الى الشريعة التي تؤدي الى الكمال ، حتَّى اذا ما اتى المخلّص غافر الاوزار والآثام ، بسُبح مجدٍ لا يطلق ولا يُرام ، حين ترتجّ السماء باصوارها ، وتذعن الخلائق خسيسها وجبَّارها ، وتدخل الابرار دار المسارّ ، وتلجّ الاشرار شرار النار ، وحين تُطوى السماء كالجلباب . وتحشر الاجساد في مطامير التراب ، ويُقدم كلٌّ على ما قدَّم من خطإٍ او صواب ، ويتخلَّد المخلصون في جنات النعيم والمجرمون في اليم العذاب . نتلقَّى السيد المسيح المخلص بمصابيح اعمال تضيء بانوارها ، ونضارة آمالٍ تشيع بالايمان عواقب اسرارها فتسعف النفوس بآمالها واوطارها ، وتقرّ العقول في مقرّ الحيوة بملكوت السماوات قرارها . . .

وكقول الرندي في ختامهِ لرثاء الاندلس :

يا غافلًا ولهُ الدهر موعظةٌ	ان كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً	كأنها في مجال السبق عقبانُ
أَعندكم نبأٌ من اهل اندلسٍ	فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما يهتزّ انسانُ
ماذا التقاطعُ في الاسلامِ بينكمُ	وانتم يا عباد الله اخوانُ
ألا نفوسٌ ابيَّاتٌ لها هِمَمٌ	أما على الخير أنصارٌ واعوانُ
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم	واليوم في بلاد الكُفر عُبدانُ
لِمثل هذا يذوب القلب من كمَدٍ	إن كان في القلبِ إسلامٌ وايمانُ

الاصل الثالث

في التعبير

فصَّلنا في الجزء الاوَّل من علم الادب جميع قوانين الانشاء ليحسن الكاتب التعبير عن افكارهِ بالطرق المختلفة

ولمَّا كان المنشئ والخطيب بمنزلة واحدة من حيث توجيه الكلام لا حاجة للخطيب من قواعد خصوصية لتأدية مراده · فنحيلهُ الى الجزء السابق ونكتفي هنا بما يلي

س هل للتعبير شأن عظيم في الخطابة ؟

ج نعم لأَنَّهُ كِساءُ الكلام بهِ تنال الخطبة رونقها وبهاءَها كما يزين الثوب لابسهُ ويُجدي شخصهُ حسناً وجمالًا · فان أَغضى الخطيب عنهُ امكنهُ ان يُقنع السامع لكنَّهُ لن يؤَثّر في ارادتهِ ولا يحيك في قلبهِ فتبقى عواطفه جامدةً باردة ولا يندفع الى العمل بما يقصدهُ منهُ الخطيب

س ماذا يُستحبُّ في تعبير الخطيب ؟

ج يُستحبّ فيهِ فضلًا عن وضوحهِ وفصاحتهِ ان يكون غزير المادَّة منمَّقاً بالاشكال البديعيّة الملائمة آخذًا بمجامع القلب تحنّ الجوارح الى استماعهِ لما فيهِ من الانسجام والتفنّن

س ماذا يتحتَّم على الخطيب ان يراعيهُ في كلامهِ ؟

ج يجب عليهِ ان يراعي : ١ً طبقاتِ السامعين فيسبك كلامهُ على ما يلائم احوالهم فيعدل الى السذاجة مع العامَّة ويتأنَّق في المقال مع الخاصَّة ويلتجئ الى افانين الكلام مع المسترشد المستهدي ويسهب في العبارة مع من يؤثر الاكثار ويوجز مع مُحبّ الاقلال

٢ً اصنافَ الاقوال الخطبيَّة . لان محور كلام الخطيب يختلف باختلاف الموضوع . ألا تراه طورًا يجدّ وطورًا يهزل وتارةً يزجر وتارة يشكر وحيناً يمدح وحينًا يقدح الى غير ذلك . فايّة وجهةٍ ارادها ينبغي عليهِ ان يبرز كلامهُ فيها بلفظ يشاكل المعنى وعبارةٍ تليق بالحال

٣ً مقامَ الخطيب . فينظر الى نفسه في كل حال من احواله من حداثة او كهولة وتحنّك في امور او غرارة وهلم جرًّا ويولي كلامَهُ ما يُستَشَفُّ من ورائهِ موقعهُ من هذه الاحوال

بحث في الاداء الخطابي

س ما هو الأداء الخطابيّ ؟

ج هو القاء الخطبة بما يليق بها من حسن اللفظ وموافقة الصوت وحركات الجسم

س ما هو شأنهُ من الخطابة ؟

ج لهُ شأن عظيم في الخطـابة لأن الخطيب بحسن أدائهِ يحيز في نفس السامع شواعرهُ ويحرّك اهواءهُ ويجذبهُ الى حيثُ يقصد من غاياتهِ . فالخطابة دون الأداء جسمٌ بلا حياة وسيف مُغمد لا يحسن حاملهُ الضرب بهِ

س ماذا يدخل تحت حكم الأداء الخطابي ؟

ج ثلثة اشياء : الذاكرة ثمَّ الصوت ثم الاشارة

١ً الذاكرة

س ما هي الذاكرة ؟

ج الذاكرة وتُدعى ايضاً بالحافظة هي قوَّة تمكّن النفس من حفظ المعاني التي يدركها العقل ثم من تأديتها عند الحاجة

س هل للخطيب غنًى عن هذه القوَّة ؟

ج كلّا بل هو في حاجة امسّ اليهـا لأَن الخُطَب عادةً تُلقى عن ظاهر القلب فان خانت الخطيبَ ذاكرتُهُ تلعثَم وتلجلج او ادركهُ الحصَر فسقطت حجَّتهُ . وان ارتجل خطبتَهُ لا بُدَّ لهُ ايضاً من اتقان رسمها وتقاسيمها وأدلَّتها ومعانيها لئلَّا يشرد عن الموضوع او يُرْتَج عليهِ .وذلك انَّما يتمّ بحسن الذاكرة

س ما هي اقرب وسيلة الى تقوية الذاكرة ؟

ج هي الممارسـة بان يستظهر الخطيب طُرَفًا من نظم

القدماء ومُلَحاً من اقاويل البلغاء . يُجهد ذاكرتهُ على حفظها ومراجعتها والقائها بصوتٍ عالٍ دون عِيّ ولا لُكْنَة ولا تمتمة

٢ الصوت

س هل من موقع للصوت في الخطابة ؟

ج للصوت اطيب موقع في الخطابة لانَّهُ الطريق الى قلب السامع فان نفر هذا منهُ ضاعت اتعاب الخطيب وذهبت مساعيهِ سدى

س ماذا يجب على الخطيب مراعاتهُ في الصوت ؟

ج يجب عليهِ اللفظ الحسن ثم اعتدال الصوت والتفنن فيهِ

س ما المقصود باللفظ الحسَن ؟

ج المقصود بهِ أن يُعطى كلُّ حرفٍ حقَّهُ من الوضع المتعارف بين الأدباء مع اجتناب لهجة العامّة المبتذلة وضبط الالفاظ بحركاتها المقبولة . ولا بأس اذا تكلَّم بين جمهور من الشعب ان يتقرَّب منهم ويتقلَّد نوعاً كلامهم دون ركيكهِ وحوشيّهِ

س ما هو اعتدال الصوت ؟

ج هو موافقتهُ للظروف فان الصوت يختلف على حسب اختلاف الحضور واختلاف المكان والزمان وموضوع الكلام.

فانَّ الخطيب لا يتكلَّم امام الرؤساء كما يفعل امام المرؤوسين . وكذلك يحتاج المكان الرحب ووفرة السامعين الى صوت ادقّ واجهر . وليس صوت الخطيب في اوان الفرح كما يكون في اوان الحزن . وبعض المواضيع تستدعي صوتاً فخيماً وغيرها صوتاً بسيطاً معتدلًا

س كيف يتفنَّن الخطيب بصوتهِ ؟

ج اذا راعى اقسام خطبتهِ من افتتاح الكلام وتأدية البراهين وتحريك الاهواء وحسن الختام فاعطى كل قسمٍ الصوت اللائق بهِ على مقتضى الحال . وكذلك اذا طبَّق صوتهُ مع العواطف التي يبرزها فانَّ لكل عاطفة صوتاً خاصاً بها . ألا ترى ان صوت الغضب يخالف صوت الرقَّة والحنان وانَّ للرجاء صوتاً مبايناً لصوت القنوط وانَّ لسان الخوف ينطق بصوت ضعيف خافت على خلاف صوت البطش والثورة . وقسْ عليهِ بقيَّة العواطف

٣َ الاشارات

س ما هي الاشارات الخطابيَّة ؟

ج هي حركات تبدو من جسم الخطيب ووجههِ ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يفوه بهِ

س ما هي افضل الاشارات ؟

ج هي الاشارات المبنيَّة على درس الطبيعة المهذَّبة بالتثقيف والادب المتوسّطة بين غلظة العامّة وتأنُّق المتصنعين

س ما هي الوقفة الموافقة للجسم ؟

ج هي الوقفة الطبيعيَّة دون توتُّر في الجسم ولا تخنُّث بحيث يبعد الخطيب عن عظمة المتجبرين واضطراب المتلهوجين

س ماذا يحسن بالرأس والوجه ؟

ج يحسن بالرأس ان يحيد عن الانتصاب الزائد والانحناء المفرط . وبالوجهِ والنظر ان يكونا كمرآة النفس في بيان عواطفها

س هل الذراعين واليدين حركات خاصّة ؟

ج نعم ولإتقانها فنٌّ يدرسهُ كبار الخطباء والممثّلين الروايات . وما يقال بالاجمال انَّ الذراعين لا تُرخَيان مهملتَيْن ولا تُمدَّان بإفراط او تلصقان بالصدر . وانَّ اليدين اذا تحرَّكتا معاً تساويتا بالحركات منتظمتين وان تحرَّكت الواحدة دون الاخرى اشارت باشارات انيقة حسنة الدلالة لاسيما اليُمنى التي لها في الحركات النصيب الاوفى . وكذلك للاصابع حركات توافق اليد وتبيِّن ايماءها . ولا شكَّ انَّ الارتياض مع مراقبة الخطباء البلغاء احسن معلّم لهذا الفنّ

الفصل الثاني

في

فنون الخطابة

قد تقدم انَّ صناعة الخطابة تدور على محورَيْن اعني اصول الخطابة وفنونها . امَّا الاصول فقد مرَّ بيانها فبقي علينا ان نورد فنون الخطابة وضروبها

س كم هي فنون الخطابة ؟

ج اربعة وهي خطب التثبيت والمشورة والمشاجرة والوعاظة

س على ايّ رُكن مَبنى هذا التقسيم ؟

ج ركنهُ اجناس السامعين الذين يوجّه الخطيب اليهم الكلام . والسامعون امَّا المقصود افادتهم وذلك بالقول التثبيتيّ . وامَّا المراد مناظرتهم وهو القول المشوريّ . وامَّا محاكمتهم وهو القول المشاجري . وامّا إرشادهم وإنذارهم بايضاح الحقائق الدينية وحملهم على السيرة الصالحة وذلك بالوعاظة

س ما هي الغاية من هذه الاقاويل وبايّ شيء تختلف ؟

ج الغاية من القول التثبيتي المدح او الذمّ فيُمدح الحسَن ليُؤتسى بهِ ويُذمّ القبيح ليُنفَر عنهُ وهو مختصّ عموماً بالوقت الحاضر . والغاية من القول المشوري الإذن والمنع بان يُحمَل السامع الى ما فيهِ النفع ويُعْدَل بهِ عمّا فيهِ الضرر وهو مختصّ بالمستقبل . والغاية من المشاجريّ العدل او الجور بمحاكمة المدّعى عليهِ فتُبرَّر ساحتهُ من الجناية او يقرّر عليهِ الذنب فيلزمهُ الحكم وهو ينظر الى الماضي من الزمان . امّا الوعاظة فغايتها الحقيقة الدينية لاثباتها في عقول السامعين وحضّهم على السيرة الفضلى وهي تتناول سائر الازمنة (١

س كيف يقسم المحدثون فنون الخطابة ؟

ج يقسم المحدثون غالباً الخطابة الى خمسة فنون وهي خطب النوادي العلميّة ثمّ الخطب السياسية ثمّ الخطب القضائية ثمّ الخطب العسكرية ثمّ الدينية . ويجوز توفيق هذا التقسيم مع السابق كما سترى

(راجع مقالات علم الادب الجزء الثاني ص ١٣٧—١٤٢)

---

١) انّ ارسطو في كتاب الخطابة حصر فنونها في الثلاثة الاولى دون الوعاظة التي شاعت خصوصاً بعد السيّد المسيح الذي وكل الى كنيسته تعليم الشعوب ودعوتهم الى الخلاص

الباب الاوّل

في القول التثبيتي

س ماذا يشمل القول التثبيتي من اجناس الخطب ؟

ج يشمل كل الخطب التي يُقصد بها مدح الفضيلة وارباها وذمّ الرذيلة واصحابها اخصّها خُطَب الثناء وخطب التأبين وخُطب التهانئ وخطَب الشكر وما اشبهها

البحث الاوّل

في الخطبة الثنائية

س ما هي الخطبة الثنائيّة ؟

ج هي التي تُلقى في المحافل لمديح كبار الرجال وافاضل الناس من اهل الدين والدنيا

س ما هو المرجع الاعلى للثناء ؟

ج هو الفضيلة لأنَّ بها الانسان يمتاز عمَّن سواهُ ويبيّن بما طُبعت عليهِ نفسهُ من الخلال الطيّبة المكتسبة بجدّهِ وحسن عملهِ

س أَلا يجوز ان يُمدح المرء بما سوى الفضيلة ؟

ج لا بأس من ذلك ولكن على شرط ان يبيّن الخطيب ما بين تلك الامور الممدوحة وفضل المزدان بها من الارتباط كأنّها أتباعُ لفضيلتهِ مثبتة لها كاشفة عن خفاياها

س ما هي اخص مصادر المدح الثانويّة ؟

ج هي كرَم المحتد ومآثر الاجداد والبلاغة والقوّة والجمال والثروة والمناصب الشريفة . مثالهُ قول ابي الحليم في مديح يوحنَّا المعمدان يذكر شرف نسبه :

لَمَّا آن للحكمة الازليَّة ان تُشرق بالناسوت من مَطلع البتوليَّة ' وترد الى العالم الكونيّ من سُرادق الأَمصار العلويَّة ' نَجَمَ امامها كوكب الصباح الأَشرَق ، وعمود الصلاح الأَزرق ' شهابُ الفَلَق الازهر ' ومصباح الكهنوت الأَبهر ' سراج الحقّ الأَبلج ' الهادي الى سواء المنهج ' زهرة الدرجة الكهنوتيَّة ' وثمرة الأَيكة الملكوتيَّة ' سليل الخواصر الطُّهر ' ونجل العواقر الزُّهر ' نَبْعُ الشجرة الناخرة ' يوحنَّان شهيد الدنيا وسعيد الآخرة ' الذي لم يَقمْ في مَن لَفَظَتْهُ حشا النساء اعظم منه قدرًا ' واشرف منه فخرًا ' واذكى منهُ نشرًا ' وانفس منهُ عند الله خطرًا . .

س كم لخطبة الثناء من اسلوب ؟

ج لها اسلوبان : تاريخي ونظري . فالاسلوب التاريخي يتتبَّع اطوار حياة الممدوح فيثني على ما يجدهُ في كل منها من الامور الحميدة على مقتضى زمن بروزها . امَّا الاسلوب النظري فانَّهُ يجمع محامد الممدوح فينظمها في سلك بعض الفضائل التي امتاز بها فبلَّغَتْهُ اوج الكمال . كما لو اردت ان تمدح

ايليَّا النبيّ اثنيتَ على غيرتهِ لله التي شملت كل اعمالهِ بازاء بني اسرائيل وملوكهم وجعلها كشعار حياتهِ

س ايُّ الاسلوبين افضل ؟

ج الاسلوب النظريّ اوقع في قلوب السامعين وادلّ اقتدار الخطيب. امَّا الاسلوب التاريخي فاقرب واسهل. ولا بُد للخطيب ان يُحسن التصرُّف بهِ ليخرجهُ من الابتذال ويحيد عن طريقة التراجم البسيطة ويحلّيهُ بضروب البلاغة ومحاسن الخطب

س كم هي اطوار الحياة التي ينظر اليها الخطيب في المديح التاريخي؟

ج ثلاثة : ما يتقدَّم حياة الممدوح . ثمَّ أَحداث زمن حياتهِ . ثم ما جرى لهُ بعد وفاتهِ

١ً موارد المديح السابقة لحياة الممدوح

س ما هي موارد الثناء السابقة لحياة الممدوح ؟

ج هذه الموارد ثلاثة وهي : اوَّلًا احوال الزمان الذي وُلد فيهِ الممدوح من دين وسياسة وعلم وآداب فتبيّن ما كان من المناسبة بين ولادتهِ والظروف المذكورة . مثالهُ أَن تصف احوال بني اسرائيل في مصر قبل مولد موسى لتبيّن حاجة شعب الله الى من ينقذهم من رقّ عبوديَّة المصريين وفساد دينهم

وربّما سبقت مولد الممدوح آيات ونبوءات او حوادث اشعرت بما سيكون من امرهِ فلا بُدَّ من ذكرها . كما ورد في الانجيل عن يوحنا المعمدان وفي العهد العتيق عن صموئيل

ثانياً وطن الممدوح اللهمَّ اذا كان مَنشأً لقوم مشاهير كما لو شئتَ الثناء على القدّيس يوحنا الدمشقي ان تذكر مفاخر دمشق فتقول :

قد فازت دمشق بالشرف الاثيل ، ورُقيَت الى مقام عالٍ جليل ، وجرَّت ذيل افتخارها على البلاد الشامية ، وسحبت مطارف العزّ على المدائن الشرقيَّة ، ربَّت تحت سمائها اعاظم الرجال ، وهذَّبت اكابر الابطال ، منها ظهر جلّة العلماء المدقّقين ، وفيها كان مثوى الصالحين ، ومنزل الاتقياء المتورعين ، ولم تلبث ان زادت على ما تقدَّم من مزاياها مزيَّة ، واضافت الى ما سلف من مكارمها مكرمة سنيَّة . . . فانبتت في تربتها الصالحة يوحنا هذا الذي يندر ان تأتي لهُ الايام بضريب . . .

ثالثاً نسبُ الممدوح كشرف اصلهِ ومآثر آبائهِ وتعداد مفاخر اجدادهِ فتثبت بذلك انَّ المولود فرعٌ نامٍ لدوحة كريمة كما يقول الشاعر :

مجرى اصاغرِهم مجرى اكابرِهم وفي أرُومتهِ ما ينبتُ الشجرُ

مثالهُ مديح يزيد بن عبد المَدان سيّد نجران :

ان وقفتُ لأُثني على كرمهِ الذي لا يباري فيهِ انسان ، وامدح سطوتهُ التي لا يختلف عليها اثنان ، ادَّاني سياق الكلام ، وحرَّتني وحدة النظام ، الى ان اذكر مفاخر اجدادهِ العظام . ومآثر سلالتهِ الفخام . هم الذين شيَّدوا الكعبة النجرانيَّة فأمَّنوا كل خائف واجاروا كل ملهوف واطعموا كل جائع وقضوا حاجة كل محتاج وفكُّوا الاسرى باموالهم وبذلوا النفوس دون أعراضهم وساقوا كتائبهم الى كل معاند وحطَّموا ديار كل مخاصم . وما هو الَّا سلالة أُولئك القوم الذين رفعوا رايات عزّهم فوق كل راية . . . فكفى يزيد فخرًا انهُ وريث مكارمهم . . . ومُعمِّر ما

طُمِسَ من رسوم عظائمهم . . . ومالي اقول ذلك وقد زادهم رُقيّاً الى ذرى المجد والشرف حتى اجتمع لديه ما نقصهم وتوفّر لهُ ما فاتهم

• امّا اذا كان اصل الممدوح دنيئًا فيُمدح بحسن مساعيهِ التي رقّت بهِ الى المقام الرفيع رغماً عن خمول آبائهِ . وفقاً لقول الشاعر :

انَّ الفتى من يقولُ ها انا ذا ليس الفتى من يقول كان ابي

٢ً موارد المديح في حياة الممدوح

س ما هي اخصُّ الامور الجديرة بالثناء في حياة الممدوح ؟

ج اخصُّها الفضائل ثمَّ العلوم ثمَّ الاعمال الشريفة والمآثر الحسنة في خدمة الدين والوطن واسعاف القريب

س ما هي أَولى الفضائل بالمدح ؟

ج أَولاها بالمدح الاستمساك بالدين وتُقى الله . كقول ابن شدّاد يمدح صلاح الدين لتديُّنهِ :

كان صلاح الدين رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد اخذ عقيدتهُ على الدليل بواسطة البحث كان اذا جرى الكلام بين يديهِ يقول فيهِ قولاً حسناً . وكان من شدّة حرصهِ على عقيدتهِ يعلّمها الصغار من اولاده حتى تترسَّخ في اذهانهم من الصغر . . . وامّا الصلاة فانهُ كان رحمهُ الله شديد المواظبة على السُّنن الرواتب . وكان لهُ صلاة يصلّيها ان استيقظ بوقت في الليل والّا اتى بها قبل صلاة الصُّبح . وما كان يترك الصلاة ما دام عقلهُ عليهِ . ولقد رأيتهُ قدَّس الله روحهُ يصلّي في مرضهِ الذي مات فيهِ قائمًا وما ترك الصلاة في الايّام الثلاثة التي تغيَّب فيها ذهنهُ . وكان اذا ادركتهُ الصلاة وهو سائر نزل وصلّى . . .

ثمَّ يُمدح الانسان على زهدهِ وبرّهِ بوالديهِ وحبّهِ لوطنهِ ثمَّ على عدلهِ وانصافهِ لرعيّتهِ ثمَّ على حلمهِ ورحمتهِ للضعفاء وكرمهِ

وسخائهِ نحو المحتاجين. و يُثني عليهِ لتواضعهِ وصبرهِ على البلايا وعظيم همَّتهِ . فهذه الفضائل وامثالها يرويها الخطيب دون مبالغة ولا تزلُّف الى الممدوح . مثالهُ ما وصف بهِ المسعودي الخليفة ابا بكر :

كان ابو بكر ازهد الناس واكثرهم تواضعاً في اخلاقهِ ولباسهِ ومطعمهِ وكان لبسهُ في خلافتهِ الشملة والعباءة . وقدم عليهِ زعماء العرب واشرافها وملوك اليمن وعليهم الحُلَل والحبَر وبرود الوشي المثقَّل بالذهب والتيجان فلماَّ شاهدوا ما عليهِ من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليهِ من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبهُ ونزعوا ما كان عليهم . . . حتى انهُ رؤي يوماً في سوقٍ من اسواق المدينة على كتفهِ جلد شاة ففزعت عشيرتهُ لذلك وقالوا لهُ : قد فضحتَنا بين المهاجرين والانصار والعرب . قال : أفأردتم مني ان اكون ملكاً جبَّارًا في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الَّا بالتواضع لله والزهد في هذه الدنيا

س وهل يُمدح المرء لثروةٍ او لصفة في جسمهِ ؟

ج هذه الاوصاف عرضية يمكن الخطيب ان يُلحقها بما هو اعظم واسمى كدلائل نعمة الله وفضلهِ عليهِ . فمن ذلك سعة الاملاك والثروة ثمَّ بسطة الخُلق والهيئة الوسيمة والقوَّة . كقول عبَّاس يمدح عليّ بن ابي طالب :

ان لأمير المؤمنين اشباهاً أربعة : الاسد الخادر . والبحر الزاخر . والقمر الباهر . والربيع الفاخر . فامَّا الاسد الخادر فأشبهَ منهُ صولتهُ ومضاءهُ . وامَّا البحر الزاخر فأشبهَ منهُ جودهُ وعطاءهُ . وامَّا القمر الباهر فأشبهَ منهُ نورهُ وضياءهُ . وامَّا الربيع الفاخر فأشبهَ منهُ حسنَهُ وبهاءهُ

س ما هي العلوم التي يستحقُّ المرء مديحاً عليها ؟

ج هي العلوم الدينية ثمَّ الفلسفية والنظرية ثمَّ الرياضية

والطبيعية ثم اللسانية والكتابية ثم العملية والصناعيَّة قال الشيخ محمّد عبده يمدح جمال الدين الافغاني عن علومهِ :

• امَّا منزلتهُ من العلم وغزارة المعارف فليس يحدُّها قلمي الَّا بنوع من الاشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها كأنَّ كل معنىً قد خُلق لهُ . ولهُ قوَّة في حلّ ما يفضل منها كأنَّهُ سلطان شديد البطش فنظرة منهُ تفكّك عُقدها . كل موضوعٍ يُلقَى اليهِ يدخل للبحث فيهِ كأنَهُ صُنعُ يديهِ فيأتي على اطرافهِ ويحيط بجميع اكنافهِ ويكشف ستر الغموض عنهُ فيظهر المستور منهُ . واذا تكلَّم في الفنون حكم فيها حُكمَ الواضعين لها . ثمّ لهُ في باب الشعريَّات قدرة على الاختراع كأنَّ ذهنهُ عالَمُ الصُنْع والابداع . ولهُ لَسَنٌ في الجدل وحذق في صياغة الحجَّة لا يلحقهُ فيها احد الَّا ان يكون في الناس ما لا نعرفهُ وكفاك شاهدًا على ذلك انهُ ما خاصم احدًا ولا جادلهُ عالم الَّا الزمهُ . . . ذلك فضلُ الله يؤتيهِ من يشاء والله ذو الفضل العظيم

س ما هي الاعمال الشريفة التي يُؤثَر مدحها ؟

ج هي قبلَ كلٍّ اعمالُ البرّ في سبيل الله ثمَّ المآثر المشكورة في خدمة الوطن والهيئة الاجتماعية ثمَّ ترقية العلوم والصنائع والتجارة والزراعة والسعي بكل ما يعود الى تخفيف وطأة البؤس عن العموم ويفتح لهم سُبل الارتزاق . مثالهُ مدحُ ابن سيراخ لداود الملك حيث قال :

كما يُفصَل الشحمُ من ذبيحة الخلاص هكذا فُصل داود من بني اسرائيل . لاعبَ الاسود ملاعبتهُ الجداء والأَدباب كأنها حُملانُ الضأن . ألم يقتل الجبَّار وهو شاب . ألم يرفع العار عن شعبهِ اذ رفع يدهُ بحجر المقلاع وحطَّ صَلَفَ جُليات . لانَّهُ دعا الربَّ العليّ فأعطى يمينهُ قوَّةً ليقتل رجلًا شديد المِراس ويُعلي قرن شعبهِ فاعطاهُ الرب مجدَ قاتل رِبْوات وامدَّهُ ببركاتهِ اذ نقل اليهِ تاج المجد . حطَّم امامهُ الاعداء من كلّ جهة وأفنى الفلسطينيّين المناصبين وحطَّم قرنهم الى يومنا هذا . في جميع أعمالهِ إعترف للقدُّوس العليّ بكلام المجد . بكل قلبهِ سبَّح واحبَّ صانعهُ .

اقام المغنّين امام المذبح ولقّنهم الحاناً لذيذة السماع . جعل للاعياد رونقاً وللمواسم زينةً الى الانقضاء لكي يسبّح اسمهُ القدّوس ويُرنّم في قدسهِ منذ الصباح . الرب غفر خطاياهُ واعلى قرنَهُ الى الاباعد عاهدهُ على الملك وعرش المجد في اسرائيل

٣ً موارد المدح المناسبة لما بعد وفاة الممدوح

س باي شيءٍ يشاد ذكر الممدوح بعد وفاتهِ ؟

ج بظروف موتهِ وبما عَقِبَ وفاتهُ

س كيف يُمدح المرء بظروف موتهِ ؟

ج يختلف المديح على اختلاف هذه الظروف. فان قضى نحبهُ في سِلْم بيَّن الخطيب قوّة نفسهِ وحسن استعداده لملاقاة ربّهِ . وان مات في حرب اطرى بسالتهُ في الدفاع عن الوطن وان ذهب شهيد ايمانهِ او محبّتهِ للقريب عظّم جهادهُ في سبيل الله وهلمَّ جرّاً

س ما هي اسباب المديح الموافقة لما بعد الموت ؟

ج منها قريبة موقّتة كحفلة مأتم الممدوح وكآبة الاهل والاحباء وأسف العالم على فقدهِ وتقديرهم لاعمالهِ . ومنها باقية ثابتة كذريّة الممدوح وذكر فضائلهِ وتعداد الاعمال التي خلّفها من بعدهِ كالمبرّات والتآليف والمصانع . ثمّ ما نال من الجزاء عن حسناتهِ في دار البقاء . اما مثال الاوّل فكقول ابن الجياد من خطبةٍ لهُ يصف حزن الناس على رجل شريف :

ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام . وحارت الالباب والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام . فعمّ الحزنُ والاكتئاب . وتوارى النور فاظلم الجناب . وعاد الاصحاب وكأنما دموعهم السحاب

ومثال الثاني كقول ابي الحليم بن الحدّيثي يصف وفاة رسل المسيح وما لحق بها :

. . . ثم ازف وقت ارتحالهم ، وخسفت عقدةُ الموت أقمار آجالهم ، ففيهم مَن عمَّر طويلًا ، وفيهم من مات قتيلًا ، وفيهم من قُتل مصلوبًا ، وصُلب مكبوبًا ، وقُبر محصوبًا ، وقُتل مضروبًا ، فمَن عمَّر منهم عاش بالله سعيدًا ، ومن قُتل منهم مات في الله شهيدًا ، شَقُوا في عالم الفناء قليلًا ، وسعدوا في عالم البقاء طويلًا ، واستخلفوا على رعايا المسيح أيمّةً يهدون الى مقارّ الملكوت ، مؤيَّدين بالمواهب الروحانية ووقار الكهنوت ، ليتّصل شعاع الجذوة المقتبسة من نور المسيح ولا ينطفي ، ويضيءَ مصباح الامانة على المنار البيعي ولا يختفي ، ثم رحلوا عن سكائن الابدان المقدسة بوجوه بادية السفور ، مُشرقة بالضياء والنور ، عليهم من نعمة المسيح سيّدهم مِنَحٌ وآلاء ، وعلى أسرَّة وجوههم من نوره بهاءٌ ولألاء ، قد نُصِبَتْ لهم الكراسي الاثنا عشريّة ، وفُوِّضت اليهم أزمّة فصل القضاء على كل البريّة ، يلتذّون مع مخلّصهم في مجابح قصور الابد ، وفي النعيم الذي لم ترَهُ عين ولا سمعت بهِ اذن ولم يرقَ على بال احد . . .

س ما هي طريقة الخُطب في الذمّ وخلاف المديح ؟

ج هي على عكس ما سبق فانّ الخطيب لو اراد كشف معايب انسان اتّخذ اسباب المذمّة والتعيير من ذات الظروف السابق ذكرها في اطوار حياة المذموم . كما فعل الدستوريّون يوم خَلع السلطان عبد الحميد

البحث الثاني
في خطب التأبين

س ما هو التأبين وما الخطب التأبينيَّة ؟

ج التأبين في اللغة مدح الميت خاصَّةً . والخطب التأبينيَّة ما يفوهُ بهِ الخطباء ذكرًا لمآثر ميت جليل في دينهِ او دنياه

س متى تُلقى هذه الخطب ؟

ج يلقيهـا الوعَّاظ في الكنيسة يوم المأتم او في احدى الحفلات المقامة لتذكار الميت . ويخطب بها الادباء عند الدفن في المقابر او في المحافل الخاصَّة

س ما هي غاية الخطب التأبينيَّة ؟

ج غايتها مثلَّثة : فالغاية الاولى وفـاء الميت حقَّهُ من الثناء على اعمالهِ الطيّبة . والثانيـة تعزية آلهِ المأسوفين على وفاتهِ . والثالثة حثّ السامعين على اقتفاء آثارهِ

س كيف يكون استهلال هذه الخطب ؟

ج يليق بهذه الخطب ان تُستهلَّ بفاتحة تنبئ بفرط اسف الخطيب ووصف المشهد المحزن الذي تألَّب لهُ الحضور وتعظيم المصاب بموت الفقيد . وكثيرًا مـا يستمدُّ الخطيب مفتتح

كلامهِ من آية وردت في الاسفار المقدّسة او من اقوال بعض المشاهير من الرجال . فتارةً يخاطب نفسهُ كقول اوس ابن حجر :

ايّتها النفس أجملي جزعا انَّ الذي تحذرينَ قد وقعا

وتارةً يوجّه كلامهُ الى الميت . كقول محمّد بن الحنفيَّة على قبر الحسين :

يرحمك الله ابا محمَّد فلئن عزَّت حياتُك، فلقد هدَّت وفاتُك، ولَنِعْم الروح روحٌ ضمَّهُ بدنك، ولنعم البدن بدنٌ ضمَّهُ كفنك . . . فطبتَ حيًّا وطبتَ ميتًا وان كانت نفوسنا غير طيبة بفراقك

وكقول الآخر في الاحنف بن قيس :

لله درُّك من مجنّ في جَنَن ، ومُدرَج في كفن ، نسأل الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك ان يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وان يوسّع لك في قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك

وطورًا يذكر خطوب الدهر وفواجعهُ كقول القائل :

أَلَا انَّ المسرَّة لا تدومُ ولَا يبقى على دهرٍ نعيمُ

وحيناً يصف ما يراهُ على وجوه الحضور من شارات الحزن وفي عيونهم من ترقرُق الدموع فيقول مع الشعبي :

فلئن بكيناهُ يحقُّ لنا ولئن تركنا ذاكَ للصبرِ
فلمثلهِ جرت العيون دماً ولمثلهِ جمدت ولم تجرِ

س كيف يتصرَّف الخطيب في الاثبات ؟

ج اخصُّ الاثبات مدحُ الميت . امَّا طريقتهُ فكطريقة الخطب المدحيَّة وقواعدهُ كقواعدها . فيمدح الميت في اطوار

عمره على حسب توالي ازمنة حياتهِ او تُورَد اعمالهُ مقيَّدةً بفصيلة تعمُّها . دونك ما مدح بهِ ابن السمَّاك داوُد الطائي فقــال يذكر زهدهُ الشامل لكلّ اعماله :

انَّ داوُد نظر الى ما بين يديهِ من آخرتهِ فأغشى بصرُ القلب بصرَ العين فكأنهُ لم ينظر الى ما اليهِ تنظرون وكأنكم لم تنظروا الى ما اليهِ نظر وانتم منهُ تُعجَبون وهو منكم يُعجب . فلماَّ رآكم مفتونين مغرورين قد اذهلت الدنيا عقولكم واماتت بحبّها قلوبكم استوحش منكم . فكنتُ اذا نظرتُ اليهِ حسبتهُ حيًّا وسط اموات . يا داوُد ما اعجب شأنك بين اهــل زمانك . اهنتَ نفسك وانمَّا تريد راحتها . اخشنتَ المطعم وانما تريد طيّبهُ وخشَّنتَ الملبس وانما تريد ليّنهُ ثمَّ امتَّ نفسك وقبرتها قبل ان تُقبر وعذَّبتها قبل ان تُعذَّب، سجنتَ نفسك في بيتك ولا محدّث لها ولا جليس معها ولا فراش تحتك ولا ستر على بابك ولا قُلَّة تبرّد فيها ماءك ولا صحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك . يا داود أما تشتهي من الماء باردَهُ ولا من الطعام طيّبهُ ولا من اللباس ليّنهُ . بلا ولكن زهدتَ فيهِ لما بين يديك . فما اصغر ما بذلت وما احقر ما تركت في جنب ما رغبتَ وأمَّلت . لم تقبل من الناس عطيَّة ولا من الاخوان هويَّة فلماَّ متَّ شهرك ربُّك نفضلك وألبسك رداء عملك فلو رأيتَ مَن حضرك علمتَ ان ربَّك قد اكرمك وشرَّفك

وهذا ما كتبهُ احد المعاصرين يوم وفاة الحبر الاعظم لاون الثــالث عشر واصفاً لاعمالهِ الجليلة :

كفى دليلًا على عظم شأنهِ انَّ الوفود المؤلفة من كل الجهات والبلاد كانت تحجُّ تباعًا الى مقام الفاتيكان للتبرُّك بإمام الاحبار ولسانُهم لا يكفّ عن ذكر فضائله . ومع وجود ملايين من البشر لا يعترفون بسلطتهِ الروحيَّة ما كنت ترى واحدًا الّا يقرّ بما لشيخ الفاتيكان من الاوصاف والمناقب الغرَّاء الجديرة بالملوك ورؤساء الحكومات . ولذا حقَّ لنا ان نقول بأنَّ العالم كلَّهُ يندب اليوم رجل العصر ومؤيّد النظام الالفيّ في الهيئة الاجتماعيَّة وخادم الانسانيَّة

اليوم تبكيهِ الكنائس الكاثوليكيَّة على اختلاف طوائفها واتّفاق عقيدتها . تبكيهِ الطوائف الشرقيَّة التي شدَّد في حياتهِ طقوسها وقام بتعزيز امتيازاتها ورفع

منارها وتوسيع نطاق كنائسها فضلًا عمّا جاد بهِ من التعطفات والمواهب على كل منها . . .

وقد عزّز المعارف في الكنيسة ونشر لواء العلم في رومية ورفع مناره حيث انشأ عدّة مدارس شهيرة واقام المحافل والمنتديات والجمعيّات العلميّة والادبيّة التي يضيق المقام دون تعدادها . . . ومن انشائهِ المرصد الفلكي الشهير في الڤاتيكان . . . ومن آثار همّتهِ تحريضهُ للكاثوليك على انشاء المجلّات والجرائد العلميّة والادبيّة لنشر المبادئ الصحيحة في كل اللغات . . .

ماذا عسانا ان نقول في وصف يتيمة هذا الدهر وشمس العصر نادرة الفلك ونكتة الدنيا مَن استظهر على حور الايّام بحكمتهِ الباهرة ونصر الكنيسة بحسن تدابيرهِ السلميّة فارضى الملوك طرًا دون ان يتساهل بانثلام عقائد الايمان الموكولة اليهِ وحلّ في الصميم من قلوبهم فتسابقوا الى اجلالهِ واحترامهِ

(راجع ايضاً في اطرب الشعر واطيب النثر ما كتبناهُ عن وفاة البابا لاون ج ٢ ص ٧٥—٧٦)

س ما هي مصادر التعزية للاهل والاقارب ؟

ج اوّلها مشاركتهم في بلواهم كأنّ المصاب شمل كل معارف الفقيد فعمّ الخَطْبُ وقُضي الصبر على الكل في تلك الرزيئة العامّة . كقول بعض المحدثين :

الله يعلم ما حلَّ بنا من الاسف والقلق وتجرُّع الغُصص والحُرَق لهذا الحادث الاليم والخطب الجسيم . فلمّا ورد علينا هذا النبأ ضاقت الارض في عيننا بما رحبت فوقع على الرؤوس وقوع الصاعقة فأسال الدموع واحرق الضلوع واوجم القلوب وفاضت العين بالدمع المدرار فتبدّل الضياء ظلامًا وعادت حلاوة الحياة مرارًا . فالله تعالى يفرغ على قلوبنا صبرًا جميلا وعلى من فقدنا عفوًا عميمًا

ثانيها ما خلّف الميت لآلهِ من الذكر الطيب والآثار المشكورة . كقول ابي الفضل الميكالي في رجل شريف :

فلقد عاش نبيهَ الذكر جليل القدر عَبِقَ الثناء والنشر. يتجمَّل بهِ اهل بلدهِ ويتباهى بمكانهِ ذوو مودَّتهِ ويفتخر الأثر وحاملوه بتراخي بقائهِ ومدَّتهِ حتى اذا تسنَّم ذروة الفضائل والمناقب وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب احتطفتهُ يد المقدار وعفت اثرهُ بين الآثار . . . فالفضل خاشع الطرف لفقده. والكرم خالي الرَّبع من بعده. والحديث يندب حافظهُ ودارسهُ. وحسن العهد يبكي كافلهُ وحارسهُ

ثالثها بيان ما نالهُ المتوفَّى على اعمالهِ من الثواب في دار الخلود لدى الاله العادل الذي لا يدع عملًا صغيرًا الَّا يجازيهِ جزاءً واسعاً. كقول ابن الحديثي في الشهيد مار فثيون :

ثم نُقلت نفسهُ على الأعضاد الملائكيَّة الى رحاب النعيم. وأرقلت سائرةً على الاجرام الفلكيَّة الى عَباب ابرهيم. مستوكرةً للظِلَل الورديَّة مع الاشخاص السعداء. مستوطنةً لمظالّ الرَّحمة والنعيم الابدي مع الاطهار والشهداء الذين عن خطَّة الزَّوال بالهمم القدسيَّة انفصلوا. وبنقطة الكمال الفائقة للافكار الحسيَّة اتَّصلوا. اولئك الذين نبذوا عالم الفناء والشهوات الحسيَّة. ورقوا الى ذروات الكمال بالهمم القدسيَّة. فأُثبتت اسماؤهم في الدواوين العليَّة وأُعدَّت أُجورهم مع الابرار في الاواوين الازلية. شملكم الله بدعائهِ وصلاتهِ. وأسكنكم في محالّهِ ومظلَّاته

رابعها ان يبين انَّ اهل بيت الفقيد قد ورثوا عنهُ خصالهُ الطيبة وسجاياهُ المحمودة فكأنَّهُ لا يزال يحيا في عشيرتهِ. كما قال لسان الدين ابن الخطيب من خطبة لهُ :

وليهنئك أن صيَّر الله تعالى ملكك من بعدك الى نيِّر سعدك، وبارق رعدك ومنجز وعدك، أرضى وُلْدك وريحانة خلدك وشقّة نفسك، والسرحة المباركة من غرسك. ونور شمسك وموصل عملك البرّ الى رمسك. فقد ظهر عليه اثر دعواتك في خلواتك واعقاب صلواتك. فكلمتُك (والمنَّة لله تعالى) باقية، وحسنتك الى محل القبول راقية، يرعى بك الوسيلة، ويتمّم مقاصدك الجميلة، أعانهُ الله تعالى ببركة رضاك على ما قلَّدهُ، وعمَّر بتقواه يومهُ وغدهُ. وابعد في السعداء امدهُ، واطلق بالخير يدهُ. وجعل الملائكة انصارهُ والاقدار عُددهُ

س. اين موقع حثّ السامعين ؟

ج موقعهُ في آخر الخطبة خصوصاً حيث يدفعهم الى مجاراة الفقيد واقتصاص آثارهِ في مبرّاتهِ واعمالهِ المشكورة . مثالهُ قول يشوعياب الدنيسري اسقف نصيبين تحضُّ على اقتفاء آثار مار أوكين زعيم السيَّاح :

تأمّلوا ايُّها الاخوان التصرُّفات الاوكينيَّة ، وتعلَّموا منها التدابيرات الأُخروية ، تعَنَّوْها لتُوصلكم الى المقامات النورية ، ولازموها لتؤدي بكم الى الحدور الملكوتيَّة ، فمن طلب اصاب ، وما خاب قط من تاب ، ولا طرق الباب الّا وُيجاب ، وما جدَّ احد الّا وجاد ، ولا كدَّ عبد الّا وساد ، ولا تعب امرؤٌ الّا واستراح ، ولا سَعِدَ في تطلُّب مطلوب الا منْ ناح ، بيعوا الدنيويات الحقيرة ، وابتاعوا الملكوتيَّات الخطيرة ، استعبدوا الشهوات الحسيسة ، وتعبَّدوا للذَّات النفيسة ، ترقُّوا النعيم المحسوس الزمني ، وتلقّوا نسيم محي النفوس الابدي . . . اجعلوا الزّاهد الاعمل ، والعابد الافضل والعارف الاكمل ، والقديس الاعظم والسليح الاكرم ، مار اوكين شفيعكم عند مسيحكم ، شملكم الله وايَّانا بفائض بركاتهِ

س كيف تُختم خُطب التأبين ؟

ج تختم امَّا باستمطار بركات الله على الفقيد وامَّا بالسلام الاخير على روحهِ وامَّا بالوعد على حفظ ذكرهِ في القلوب ليُؤتَسَى بامثالهِ وغير ذلك مما يليق بالمقام ويثير لوعة الحزن على المتوفَّى . كما ترى في ختام خطبة لسان الدين حيث يخاطب تربة السلطان ابي الحسن صاحب غرناطة :

السلام عليك ايها المولى الهمام ، الذي وجبتْ خفقة العلماء الاعلام ، وخفقت بعز نصرهِ الاعلام ، وتنافست في انفاذ امرهِ ونهيهِ السيوف والاقلام ، السلام عليك ايها

المولى الذي قسم زمانهُ بين حكمٍ فَصْل ، وامضاء نَصْل ، واحراز خصل ، وعبادة قامت من اليقين على اصل ، السلام عليك يا مقرّر الصدقات الجارية ، ومشبع البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومكتّب الكتائب الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية ، السلام عليك يا حجّة الصبر والتسليم ، ومتلقّي امر الله تعالى بالخلق المرضي والأمر السليم ، ومفوّض الامر في الشدائد الى السميع العليم ، كرّم الله تعالى تربتك وقدّسها ، وطيَّب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً وللمستجير مجيرًا ، وللمظلوم وليًا ونصيرًا ، لقد كنت للمحارب صدرًا ، وفي المواكب بدرًا ، وللمواهب بحرًا ، وعلى العباد والبلاد ظلًّا ظليلًا وسترًا ، لقد فرعَتْ اعلامُ عزّك الثنايا ، واجزلت همّتك للوك الارض الهدايا ، كانك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، فتوسدتَ الثرى وأطلتَ الكرى ، وشربتَ الكأس التي يشربها الورى ، واصبحتَ ضارع الخدّ كليل الحدّ ، سالكاً سنن الاب والجدّ ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، الا صالح عملك ولا صحبت لقبرك ، الّا رابح تَجْرك ، وما أسلف من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويجود سحاب المرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الامة المتّقين ويُعلي درجتك في عِلّيين ، ويجعلك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين

البحث الثالث

في خطب الشكر

س ما هي خطبة الشكر ؟

ج هي التي يُثني فيها الخطيب على المُحسن بذكر احسانهِ (١

قال ابن طلحة في العقد الفريد : الشكر المتعارف بين الناس هو اظهار النعمة والتحدُّث بها وبسط اللسان بالمحمدة والتعظيم للمنعم بها والتنويه بذكرهِ ورفع قدرهِ

س مِمَّ تتركّب خطب الشكر ؟

ج من ثلاثة امور : الاول — وبه تُصدَّر غالباً خطبة الشكر — ان تذكر صنيعة المُحسِن وارتياح المحسَن اليهِ بقبولها . والثاني وعليهِ معظم كلام الخطيب في الاثبات ان تعظِّم قَدْر الاحسان . والثالث — وبهِ تُختَم عادةً الخطبة — ان تبيّن ان ذكر الصنيعة لن يبرح عن بال المُنعَم اليهِ فيشكرهُ عليها طول حياتهِ

س من كم وجهٍ يمكن تعظيم قدر الاحسان ؟

ج من اربعة اوجه : الاوّل بتعظيم شخص المُحْسن من حيث علوّ شأنه ورفعة مقامهِ . فانّ قدر النعمة يزيد بشرف المنعم

الثاني بتعريف حالة المُنعَم عليهِ اذا نال النعمة عفواً من غير استحقاق وعلى حين حاجته اليها

الثالث ببيان قدر النعمة في نفسها كقيمتها وحسنها وصعوبة البلوغ اليها

الرابعة بذكر طريقة منحها . كما لو أُتيحت النعمة في ظروف الزمان والمكان والنوعيَّة تدلُّ على رقَّة طباع المُنعم فمن مثال الشكر الحسنة ما قالهُ الحسن بن وهب لامير :

مَن شكرك على درجة رفعتَهُ اليها او ثروَة أقدرْتَهُ عليها فانَّ شكري لك على مُهجةٍ احييتَها وحشاشةٍ ابقيتها ورَمَقٍ امسكْتَ بهِ وقمتَ بين التَّلف وبينَهُ

فلكل نعمةٍ من نعَم الدنيا حدٌّ تنتهي اليهِ ومدًى يوقَفُ عندهُ وغايةٌ من الشكر يسمو اليها الطَّرْفُ خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف واطالت الشكر وتجاوزت قدرهُ وانت من وراء كل غايةٍ رددتَ عنَّا كيد العدوّ وارغمتَ انفَ الحسود فنحن نلجأ منك فيها الى ظلّ ظليل وكنفٍ كريم فكيف يشكر الشاكر واين يبلغُ جُهْد المجتهد

وابلغُ منها خطبة منذر بن سعيد بين يدي الخليفة وقد استوفى فيها لكل شروط الشكر فاظهر فرحهُ بالنعمة وارتياحهُ الى شكر المنعم ثمَّ تطرَّف الى تعظيم قدر المصطنع ثمَّ اتَّسع باطراء صنيعهِ :

فأَصغوا اليَّ معشر الملا بأسماعكم وأتقنوا عني بافئدتكم. ان من الحق أن يقال للمُحِقّ : صدقتَ. وللمبطل : كذبتَ. وان الجليل – تعالى في سمائهِ وتقدَّس بصفاتهِ واسمائهِ – أمر كليمهُ موسى ان يذكّر قومهُ بايَّام الله جلَّ وعزّ عندهم. واني اذكركم بايَّام الله عندكم وتلافيهِ لكم بخلافة امير المؤمنين التي لمَّت شعَثكم وامَّنت سِرْبكم ورفعت قوَّتكم بعد أن كنتم قليلًا فكثَّركم ومستضعفين فقواكم ومستذلّين فنصركم. ولَّاه الله رعايتكم وأسند اليهِ إمامتكم ايام ضربَت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدَّة والرخاء وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أَنشدكم بالله معاشر الملا أَلم تكن الدماء مسفوكةً فحقنَها ، والسُبُل مخوفة فامَّنها ، والاموال منتهبة فاحرزها وحصَّنها ، أَلم تكن البلاد خرابًا فعمَّرها ، وثغور المسلمين متهضَّمة فحماها ونصرها ، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافتهِ ، وتلافيهِ جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامتهِ ، حتى أَذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدًا على عدوّكم بعد ان كان بأسكم بينكم. فأَنشدكم الله أَلم تكن خلافتهُ قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ، الم يتلافَ صلاح الامور بنفسهِ بعد اضطراب احوالها ، ولم يَكِلْ ذلك القوَّادَ والاجناد ، حتى باشرهُ بالقوَّة والمهجة او الاولاد ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة بطويَّة صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة ، نافذة ثاقبة ، وريح هابَّة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحمّلًا للنصَب ، مستقلًا لما نالهُ في جانب الله من التعب ، حتَّى لانت الاحوال بعد شدَّتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدَّتها ، ولم يبق لها غارب الَّا

جبَّهُ، ولا نجح لاهلها قرن الّا جدَّهُ، فاصبحتم بنعمة الله اخوانًا، وبلمّ امير المؤمنين لشَمثكم على اعدائه اعوانًا، حتى لو اثرت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته ابواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدةً عليه وعليكم، وآمال الاقصَين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فجّ عميقٍ، وبلد سحيق، لاخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلًا، ليقضي الله امرًا كان مفعولًا، ولن يخلف الله وعدهُ، ولهذا الامر ما بعده، وتلك واسباب ظاهرة بادية، تدلّ على امور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، «ليستخلفنَّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم» وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نباءٍ مستقرّ ولكل اجل كتاب، فاحمدوا الله ايها الناس على آلائه، واسألوهُ المزيد من نعمائه، فقد اصبحتم بين خلافة امير المؤمنين أيّدهُ الله بالعصمة والسداد، والهمهُ خالص التوفيق الى سبيل الرشاد، احسن الناس حالًا وانعمهم بالًا، واعزّهم قرارًا، وامنعهم دارًا، واكثفهم جمعًا، واجلهم صنعًا . . .

البحث الرابع

في خطبة التهنئة

س ما هي خطبة التهنئة ؟

ج هي الخطبة التي تُلقى في محفل حافل يُعرب الخطيب فيها عن فرحهِ لنعمة اصابها الجمهور او احد الرؤساء والاشراف

(فائدة) هذه الخطب لا تختصّ فقط بنعمة حديثة نالها احد الكرام بل تشمل الحوادث القديمة كاستقلال احد الشعوب وكالمواسم الدنيَّة السنويَّة تذكارًا لواقعة جليلة وكبعض دواعي الافراح كمولد ملك او جلوس سلطان او استقلال دولة او تدشين معهد علميّ او حفلة عيد ديني وما اشبه ذلك

س كم قسماً لهذه الخطب ؟

ج اخصّ اقسامها ثلاثة : ففي القسم الاول يبين الخطيب الداعي لتلك الحفلة والنعمى الجزيلة التي احتشد القوم لتذكارها وسرورهم العظيم بها

وفي القسم الثاني يفيض في وصف تلك النعمة السابقة ويعظّم قدرها ويتّسع في سوابقها ولواحقها وعلائقها

وفي القسم الثالث يطلق لسانهُ بالمدح على المهنَّإ واستحقاقهِ لتلك النعمة لفضلهِ وفضيلته . ثمّ يختم بالدعاء لهُ بالسعد الدائم

مثل ذلك ما فاه بهِ احد وزراء الملك جليعاد مهنئاً لهُ بمولود هو وليّ عهدهِ فبيّن فرح العموم بهِ وما يؤَمَّل من مولدهِ من الخيرات :

تبارك الله العظيم مانح العطايا الصالحة والمواهب السَّنية . وبعدُ فانّا تحقّقنا ان الله ينعم على من يشكره ويحافظ على دينهِ . وانت ايها الملك السعيد . الموصوف بهذه المناقب الجليلة والعدل والانصاف بين رعيّتك بما يرضي الله تعالى . فلاجل ذلك اعلى الله شأنك واسعد ايّامك ووهب لك عطيّة صالحة التي هي هذا الولدُ السعيدُ بعد اليأس . وصار لنا بذلك الفرح الدائم والسرور الذي لا ينقطع . لاننا قبل ذلك كُنَّا في همّ شديد وغمّ زائد بسبب عدم ولدٍ لك . وفي افكارٍ فيما انت منطوٍ عليه من عدلك ورأفتك بنا . وخوفاً ان يقضي الله عليك بالموت . ولم يكن لك من يخلفك ويرث الملك من بعدك فيختلف رأينا ويقع بيننا الشقاق . ولكن قد منَّ الله علينا بهذه النعمة ووجّهك الينا . ونحن واثقون الان بالصلاح وجمع الشمل . والامن والامانة والسلامة في الوطن . فتبارك الله العظيم ولهُ الحمد والشكر والثناء الجميل . وبارك الله للملك ولنا معشر الرَّعيــة ورثنا واياه السعادة العظمى . وجعلهُ سعيد الوقت قائم الجدّ

ومثلهُ لبديع الزمان يهنئ الملك سبكتكين بفتح بهاضية من بلاد الهند فعظَّم الانتصار بذكر وفرة مخاطر الحرب وصعوبة مباشرتها وبيان

حسن تصرُّف الملك في خوضها وانتصارهِ الباهر على العدوّ رغماً عن عددهِ وعُدَدهِ وشدَّة بطشهِ :

وسنذكُر من حديث الهند وبلادها، وغلَظ أكبادها، وشدَّة احقادها، وقوَة إعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة اجنادها، نبذًا ليعلَم السامع ايَّ غزوة غزاها الامير السيّد. انّها بلاد لو لم تُحيطها السحاب بدرّها لأهلكتها الشمس بحرّها، فهي دولة بين الماء والنار، ونوبةٌ بين الشمس والامطار، تقدُّها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار، ويعصمها ملتفّ الغياض وتحفُّها طواغي الانهار، حتى اذا خُرقت هذه الحُجب خُلص الى عدد الرمال والحصى رجالًا، وشبه الجبال افيالًا، وأنزاع المخاض جلادًا، ومِسناف الجمال طعانًا، واركان الجبال ثباتًا، ثم لا يعرفون غدرًا ولا بياتًا، ولا يخافون موتًا ولا حياةً، ولا يبالون على اي جنبَيهِ وقع الامر، وينامون وتحتهم الجمر، وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حميَّة باعثة فاتخذ لراسهِ من الطين اكليلًا، ثم قوَّر قحفهُ فحشاه فتيلًا، ثم اضرم في الفتيل نارًا ولم يتأوَّه والنار تحطّمهُ عضوًا فعضوًا وتأكلهُ جزءًا فجزءًا. فإمَّا مُحرق نفسهِ ومُغرقها وآكل لحمهِ ومفصل عظمهِ. واذا امي ها من شاهق، فأكثر من ان يُعدَّ. واقلُّهم من يموت حتف انفه. فاذا مات هذه الميتة احدهم سُبَّ بها اعقابهُ، وعظم عندهم عقابهُ، بلادٌ هذه حالها، وفيلَة تلك اهوالها، وجبالٌ في السماء قلالها، وفلاة يلمع آلها، وغياض ضيّق مجالها، وانهارٌ كثيرة اوحالها، وطريق طول مِطالها، ثم الهند ورجالها، والهندوانية واستعمالها، زحَمَ الامير السيد ادام الله ظلهُ هذه الاهوال بمنكبيهِ محتبسًا نفسهُ معتمدًا نصر الله وعونهُ فركض اليهم بعون من الله لا يُخذل ومددٍ من التوفيق لا يفتر. وقلبٍ من الاهوال لا يجبن وحثٍّ على المطلوب لا يقصر وسيف على الضريبة لا ينكل: فسهّل الله لهُ الصعب، وكشف بهِ الخطب، ورجع ثانيًا من عنانهِ بالاسارى تنظمهم الاغلال، والسبايا تنقلهم الجمال، والفيلة كأنها الجبال، والاموال ولا الرمال، فتحٌ ذخرهُ لله عن الملوك السالفة الخالية، الجبابرة العاتية، حتى وسمهُ بناره، وجعلهُ بعض آثاره

س كيف تكون خاتمة خطب التهنئة ؟

ج تختم هذه الخطب بالشكر لله على النعمة الممنوحـة

وبالدعاء لنائلها كي لا تزال حياتهُ مقرونة بالهناء ودوام البركات كدعاء البطريرك اليَّا الثالث ابي الحليم للخليفة حيث قال :

اللهمَّ زِدْ سيدنا ومولانا امير المؤمنين نصرًا واعتزازًا، وأدِمْ ايام دولتِهِ التي اضحَت على ثوب الزمان طرازًا، واجعل العزَّ والاقتدار باطناب سرادقهِ محتفًّا، والنصر والاقبال على ذوائب اعلامهِ منشورًا وملتفًّا، ومطالع السعد مشرقة الاضواء على مواكبهِ، وبنود الظفر خافقةً على جنودهِ وكتائبهِ، ونسائم النصر والاجلال هابَّة على انصارهِ واوليائهِ، وسمائم القهر والاذلال لافحةً لوجوه اضداده واعدائهِ، حتى تمتدَّ اظلال دولتهِ على المغارب والمشارق، ويُذعن لعزَّتهِ بالسطوة والعلاء كل ضدّ مباين وعدوٍ مارق، برحمتك يا ارحم الراحمين . آمين

(راجع مقالات علم الادب الطبعة الجديدة ج ٢ ص ١٧١)

في خطب اخرى لاحقةٌ بالقول التثبيتي وفي انشاء هذا القول

س ألا يوجد خطب أخرى تعود الى القول التثبيتي ؟

ج نعم واخصُّها المحاضرات التي يُنشئها الخطباء في المحافل الادبيَّة في بعض المواضيع التاريخية او الادبية . والتقاريظ التي تُتلى في المقامات الرسمية والنوادي العمومية عند قدوم احد الامراء او تقليدهِ او سفره او زيارتهِ وعند دخول احد العلماء في مجمع علميّ وما اشبه ذلك ومعظمها عائد الى ثناء او شكر او تهنئة . فهذه الخطب مرجعها الى القول التثبيتي . ولا بدَّ في كل منها مراعاة المقامات ومقتضى الاحوال

(راجع مقالات علم الادب ج ٢ ص ١٧٢ في خطب التقليد)

س اي طبقة من الانشاء يستخدمها الخطيب في القول التثبيتي ؟

ج سبق انّ الغرض من القول التثبيتي المدح او الذمّ فالانشاء اللائق بهذه الغاية يكون عادةً من الطبقة الوسطى التي يحلّي بها الخطيب كلامهُ بالانسجام والطلاوة والرّقة ممّا يسترضي السامع ويفكه خاطرهُ . ومن ثم عليهِ ان يتحاشى التعابير الخشنة والاساليب الناشفة وكل ما تنبو عنهُ المسامع ويأباه الذوقُ السليم

الباب الثاني

في القول المشوري

س ما هو القول المشوري ؟

ج هو القول الذي يشير بهِ الخطيب الى مباشرة امرٍ ما او الى العدول عنهُ فينقسم قسمين الاذن والمنع

س ما هي الغاية من هذا القول ؟

ج الغاية منهُ دفع السامع الى ان يطلب النافع او يستنكف عن الضارّ

(فائدة) لمّا كانت للامور النافعة عدّة درجات متفاوته كالنافع والانفع والغاية في المنفعة يمكن الخطيب المشوري ان يرجّح نفعاً على نفع . وكذلك للضارّ طبقات فيستطيع الخطيب ان يحمل السامع على ما هو اقلّ ضرراً

س ما هي الموادّ التي يدور عليها محور القول المشوري ؟

خ هي الموادّ الواقعة تحت حكم السامع فيستطيع ان يختارها بمشيئتهِ او يرفضها بملء حريتهِ . امّا الامور الاضطرارية فلا سبيل الى المفاوضة فيها ومثلها الامور البعيدة الامكان لقلّة الوسائط الى العمل بها فانّ الخطيب باشارته الى صنعها يضرب الهواء او يرقم على صفحات الماء

س ما هي اخصُّ الخطب الداخلة في القول المشوري ؟

ج هي الخطب السيّاسية والخطب العسكريّة وخطب التحريض والتقريع والطلب والوصاء والشفاعة

البحث الاوَّل

في الخطب السياسية

س ما هي الخطب السياسية ؟

ج هي التي يلقيها الخطباء في مجلس الشورى او النوادي العمومية لتدبير احوال الدولة وسياسة امورها

س ما هي الامور التي تتناولها هذه الخطب ؟

ج هي كل الامور العمومية التي تفيد الدولة ويتباحث فيها ارباب الشورى لاصلاح شؤون الرعايا وترقية الوطن كسنّ الشرائع العادلة وتنظيم الدوائر الرسمية وما ينوط بها من مالية وحربية ومعارف وفنون وزراعة وكالنظر في الامور الخارجية وعلائق الدولة مع الدول الاجنبية

س ألهذه الخطب شأن عظيم ؟

ج لها اعظم شأن وارفع مقام لأَن عليها مدار حياة الدولة من صعود او هبوط بتنفيذ السُّنن العمومية

س هل للخطب السياسيَّة موقع في جميع الدول ؟

ج كلا ليس لها من موقع في الدول ذات السلطة المطلقة حيث ازمَّة الامر في يد ملكٍ يأمر وينهى كما يشاء لا يردُّ امره مانع ولا يزعهُ وازع

س ما هي الدول التي تُفسح المجال المخطابة السياسيَّة ؟

ج هي الدول الدستوريَّة سواءٌ كانت جمهوريَّةً يدبرها نوّاب الامَّة او ملكيَّةً يخضع مَلِكها للدستور فيملك على الدولة ولا يسوسها اما الحكمُ فيها فلمجلسَي العموم والاعيان باكثريَّة الاصوات . ومثلها الولايات المتحالفة او الممتازة في تدبير شؤونها الخاصَّة

س اتخلو الخطب السياسيَّة من كل ضرر ؟

ج هذه الخطب يختلف نفعها او ضررها على حسب الاهواء التي ينقاد اليها الخطيب فان اعماهُ الغرض وسوَّلت لهُ نفسهُ تغليب آرائهِ الواهنة بحيث يموّه الحق على السامعين ويزخرف لهم الباطل طوَّح بوطنهِ في المهالك بحمل رصفائهُ على سنّ الشرائع الضارَّة للبلاد ومباشرة الحروب الجائرة وهلم جرًّا . وعلى خلاف ذلك اذا نصر الحقّ وطلب لوطنهِ كل صلاح وضحَّى لرقيّهِ النفس والنفيس كان لهُ افضل نصير

س ما هي الصفات التي يجب على الخطيب السياسي ان يتَّصف بها ؟

ج يجب عليه : اوَّلًا ان يتعمَّق في درس الواجبات والحقوق الشخصية والدولية التي عليها مبنى المجتمع الانساني فيعطي كل ذي حقّ حقهُ دون ان يلحق بوطنهِ ضررًا ما

ثانياً ان يحبّ وطنهُ حبًّا خالصاً مجرَّدًا عن كلّ انانيَّة وعن كل غرض شخصي او تحزُّب لنصرة زيد او مناهضة عمرو فلا يرى الَّا خير الوطن العزيز

ثالثاً ان يُحسن درس الامور التي يتباحث فيها ارباب الدولة وينظر في كل وجوهها فيحكم فيها عن معرفة تامَّة وفقاً للدستور ولا يشطّ في حكمهِ

رابعاً ان يكون رابط الجأش ذا عارضة ولسَن ليستطيع ان يقوم في وجه معارضيهِ ويجيبهم بداهةً درن ان تضعف عزيمته لمناقضتهم ولتحامُلهم عليهِ اوْ تموّه عليهِ سفسطتهم

س ما هي معاريض الكلام التي يأخذ عنها الخطيب السياسي ادلَّتهُ ؟

ج لمَّا كانت غاية هذه الخطب الاشارة بعمل الشيء فيدرك الخطيب بغيتهُ ان بيَّن كون الشيء المقصود صالحًا ونافعاً وضروريًا وسهلًا ولذيذًا . وعلى عكس ذلك اذا اراد الاشارة بترك الشيء فيبين الوجوه الخمسة المضادَّة للوجوه المذكورة او بعضها

س كيف يبين الخطيب صلاح الشيء ؟

ج بان يذكر محاسنهِ الذاتية التي تحببهُ الى القلوب مع قطع النظر عن نفعهِ . كما فعل داود اذ اراد ان يحبّب شريعة الرب لبني اسرائيل فقال :

شريعة الربّ كاملة تردّ النفوس . وشهادة الرب صادقة تحكّم الغبيّ . امرُ الرب مستقيم يفرّح القلب ووصيّة الربّ نقيّة تنير العيون . خشية الرب طاهرة ثابتة الى الابد واحكام الرب حقٌّ وعدلٌ جميعها . هي اشهى من الذهب والابريز الكثير واحلى من العسل وقَطر الشِهاد وعبدك ايضاً يستنير بها

س ما هي الامور النافعة التي يحسن بالخطيب ذكرها ؟

ج هي الامور التي تُطلَب لخيرٍ ينجم عنها سواءٌ كان ذاك النفع مقروناً بالصلاح كرضى الخالق والفضيلة والشرف والمجد او غير مقرون كصحّة الجسم وهناء العيش والثروة والامان . كقول منذر بن سعيد يحثُّ قومهُ على التزام الطاعة لخليفتهم :

فاستعينوا على صلاح احوالكم ، بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم فانَّ من نزع يدًا من الطاعة وسعى في تفريق الجماعة ومرق في الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد علمتم ان في التعلّق بعصمتها ، والتمسُّك بعروتها ، حفظَ الاموال وحقنَ الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وان بقوام الطاعة تُقام الحدود ، وتُوفى العهود ، وبها وصلت الارحام ، ووضحت الاحكام ، وبها سدَّ الله الخلل ، وأَمَّنَ السُبُلَ ، ووطأ الاكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنّت بكم الدار ، فاعتصموا بما امركم الله بالاعتصام بهِ

س ماذا تفهم بالامر الضروري ؟

ج هو الامر الذي يقضي على الانسان بان يأتي عملًا او

يدعهُ صيانة لشرفهِ او لحياتهِ.مثالهُ قول الخليفة المنصور العباسي يبيّن فيهِ اضطرارهُ الى قتل سلالة عليّ بن ابي طالب :

• يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارُنا واهل دعوتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرًا منَّا وانَّ وُلد ابن ابي طالب تركناهم والذي لا إله الَّا هو والخلافة فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير . . . ثم وثب بنو أُميَّة علينا فابتزُّونا شرفنا واذهبوا عزّنا والله ما كان لهم عندنا تِرَة يطلبونها وما كان ذلك كلُّهُ الَّا في الطالبين وبسبب خروجهم فنفونا عن البلاد فصرنا مرَّة بالطائف ومرَّة بالشام ومرَّة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعةً وانصارًا فاحيا الله شرفنا وعزَّنا بكم واظهر لنا حقّنا واصار الينا ميراثنا من نبيّنا (صلعم) فقرَّ الحقّ في قراره واظهر الله منارهُ واعزَّ انصارهُ وقطع دابر القوم الذين ظلموا . فلما استقرَّت الامور فينا على قرارها من فضل الله وحكمهِ العدل وثبوا علينا حسدًا منهم وبغيًا لهم بما فضلَنا الله بهِ عليهم . . . فاستحللتُ دماءهم وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج عليَّ . . .

س كيف يثبت الخطيب كون الامر سهلًا ؟

ج ذلك ببيان قرب منالهِ وقلَّة العناء بتحصيلهِ مع وفرة منافعهِ مثالهُ قول حزقيال لبني اسرائيل اذ طيَّب قلوبهم لمحاربة الاشوريين فقال :

تشدَّدوا وتشجَّعوا ولا تجزعوا ولا تفشلوا في وجه ملك اشور ولا في وجه كل الجيش الذي معهُ لأنَّ معنا أكثر ممَّن معهُ انمَّا معهُ ذراعُ بشر ومعنا الربُّ الهنا يعيننا ويحارب حروبنا

س ما المقصود باللذيذ ؟

ج المقصود بهِ كلّ ما يجدي فرحاً للقلب وراحةً للنفس وهناء للعيش . كقول الشاعر يرغّب في طلب العلم بما يحصل لصاحبهِ من اللذَّة :

ما تطعّمتُ لذّةَ العيش حتى صرتُ في وحدتي لكتبي جليسا
ليس عندي شيء ألذّ من العلم فلا ابتغي سواهُ انيسا

ومن هذا الباب وصفُ ايوب لشبابهِ اذ كان في رخاء العيش ونعمة الحياة :

من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايّام التي كان الله فيها حافظي . يوقد مصباحَهُ على رأسي فاسلك الظلمة في نورهِ . على ما كنت ايّام عنفواني والله مجالسي في خبائي . والقدير لم يزل معي وصبيتي يحيطون بي . أغسلُ قدميَّ باللبن . والصخرُ يفيض لي انهارًا من الزيت . أخرجُ الى باب المدينة واتّخذُ في الساحة مجلسي . يراني الشبّان فيتوارون والشيوخ يقفون منتصبين . والامراء يمسكون عن الكلام ويجعلون ايديهم على افواههم . يتخافت منطق العظماء وتلصق ألسنتهم باحناكهم . اذا سمعت بي اذنٌ غبطتني واذا رأتني عين شهدت لي . لاني كنت أنجّي البائس المستغيث واليتيم الذي لا معين لهُ . فتحلُّ عليَّ بركة الهالك وأُجملُ قلب الارملة متهلّلًا . لبستُ العدل فكان كسائي وما برح قضائي حلّتي وتاجي . كنتُ عينًا للأعمى ورجلًا للأعرج . وكنتُ أبًا للمساكين . أستقصي دعوى من لم اعرفهُ . وأُحطّم أنياب الظالم وانزع فريستهُ من بين اسنانهِ . وكنتُ اقول اني سأموت في كنّي وكالرمل ازداد ايّامًا . وعروقي منبسطة على المياه والنّدى يبيت على اغصاني . وقد تجدّد مجدي وازدادت قوسي قوّةً في يدي . يستمعون لي منتظرين وينصتون لمشورتي . وعلى كلامي لا يزيدون واقوالي تقطر عليهم كالندى . ينتظرونني كالغيث ويفتحون افواههم كأني وليُّ المطر . ابتسّم اليهم فلا يصدّقون ولا يطّرحون نور وجهي . اختار طريقهم فاجلس في الصدر واحلُّ محلَّ الملك من الجيش والمعزّي من النائحين

أمّا الان فقد ضحك منّي مَنْ يصغرني في الايّام من كنتُ آنف أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي . . .

ولو اردتَ المنع عن الشيء وجدت الك امثلةً في ما يأتي :

فمن ذلك قول تلامذة بيدبا الفيلسوف يريدون صدَّ استاذهم عن مواجهة الملك دبشليم لاستبدادهِ :

أيّها الفيلسوف الفاضل والحكيم العادل أنتَ المقدَّم فينا والفاضل علينا وما عسى

ان يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك غير أننا نعلم ان السِّباحة في الماء مع التمساح تغريرٌ والذنب فيهِ لمن دخل عليهِ في موضعهِ. والذي يستخرج السمّ من ناب الحيّة فيبتلمهُ فليس الذنبُ للحيَّة. ومن دخل على الاسد في غابتهِ لم يأمن وثبتهُ. وهذا الملك لم تُفزعهُ النوائب ولم تؤدبهُ التجارب. ولسنا نأمَن عليك وعلى انفسنا من سطوته. وانّا نخاف عليك من سورتهِ ومبادرتهِ بسوء إذا لقيتَهُ بغير ما يحبُّ...

ومن ذلك ايضاً ما قال يحيي البرمكي للهادي وكان قد عزم الهادي على ان يخلع اخاهُ هرون من الخلافة ويُبايع لابنهِ جعفر. فصدَّهُ عن ذلك يحيي مبيّناً ضرر فعلهِ:

يا امير المؤمنين إن فعلتَ حملتَ الناس على نكث الأيمان ونقض العهود. وتجرَّأَ الناس على مثل ذلك. ولو تركتَ أخاكَ هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفرٍ بعدهُ كان ذلك أوكد في بيعتهِ. ولو حدث بك حادث الموت وقد خلعت اخاك وبايعت لابنك جعفرٍ وهو صغيرٌ دون البلوغ أفترى كانت خلافتهُ تصحُّ. وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلّمون الخلافة اليهِ. فدعْ هذا الامر حتى تأتيهُ عفوًا. ولو لم يكن المهديُّ بايع لهرون لوجبَ أن تبايع أنت لهُ لئلَّا تخرج الخلافة من بني ابيكَ

ومنهُ قول يهوذا لاخوتهِ مبيّناً لهم عدم النفع من قتل يوسف اخيهم:

ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمهُ. تعالوا نبيعهُ للاسماعيليين ولا تكن ايدينا عليهِ لانهُ اخونا ولحمنا...

ومثلهُ ايضاً قول الفضل بن العباس (في مشاورة المهدي لاهل بيتهِ في حرب خراسان) يصدّ الخليفة عن محاربة تلك البلاد:

ايها المهدي إن وليّ الامور وسائس الحروب ربَّما نحَّى جنودهُ وفرَّق اموالهُ في غير ما ضيقِ امرٍ حزبَهُ ولا ضغطة حالٍ اضطرَّتهُ فيقعُد عند الحاجة اليها وبعد التفرقة لها عديمًا منها فاقدًا لها لا يثق بقوَّة ولا يصول بعدَّة ولا يفزعُ الى ثقة. فالرأي لك ايها المهديُّ وفقَّك الله ان تُعفيَ خزائنك من الإنفاق للاموال وجنودك من مكابدة الاسفار ومقارعة الاخطار وتغرير القتال ولا تسرع للقوم في الاجابة

الى ما يطلبون والعطاء لما يسألون فيفسد عليك ادبهم وتجرّئ من رعيّتك غيرهم . ولكن أغزُهم بالحيلة وقاتلْهم بالمكيدة وصارِعهم باللّين وخاتلهم بالرفق . وابرقْ لهم بالقول وأَرعد نحوهم بالفعل . وابعث البعوث وجنّد الجنود وكتّب الكتائب واعقد الالوية وانصب الرّايات . واظهر انك موجّه اليهم الجيوش مع أحنق قوّادك عليهم واسوئهم اثرًا فيهم . ثم ادسس الرُّسل وابثُث الكتب وضَعْ بعضهم على طمع من وعدك وبعضًا على خوفٍ من وعيدك . وأوقد بذلك وأشباههِ نيران التحاسد فيهم واغرس اشجار التنافس بينهم . حتى تملأ القلوب من الوحشة وتطوي الصدور على البغضة ويدخل كلًّا من كل الحذرُ والهيبة . فان مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمناهبة بالكتب والمكايدة بالرُّسل والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القوي الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحِيَل المبنيّ على اللّين الذي يستميل القلوب ويسترقُّ العقول والاراء ويستميل الاهواء ويستدعي المؤاتاة انفذُ من القتال بظُبات السيوف واسنّة الرماح . كما ان الوالي الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل ويفرّق كلمة عدوّه بالمكايد احكم عملًا والطف منظرًا واحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك الّا بالقتال والإتلاف للاموال والتغرير والخطار . وليعلم المهدي انهُ ان وجّه لقتالهم رجلًا لم يسرْ لقتالهم الّا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتُقدِم على اسفار ضيّقة واموال متفرقة وقوّاد غَشَشة ان ائتمنهم استنفدوا مالهُ وان استنصحهم كانوا عليهِ لا لهُ . . .

س ما هي العواطف التي يحسن بالخطيب المشوريّ ان يحرّكها ؟

ج اخصُّها الامل والثقة بالوصول الى الغاية المرغوبة . ثمّ المحبَّة والشوق الى الحصول عليها بوصف محاسنها وتعظيم قدرها . ثمّ تحريك المنافسة ليجاري السامع من سبقهُ فيباريهم في العمل ويحظى بما اصابوهُ . مثالهُ قول متّتيا المكابي يحثّ بنيهِ ليقتدوا بالآباء والانبياء في الدفاع عن شريعتهم :

لقد اشتدّ التجبُّر والعقاب وزمان الانقلاب ووَغر الحَنَق . فالآن ايُّها البنون غاروا للشريعة وابذلوا نفوسكم دون عهد آبائنا التي صنعوها في اجيالهم فتنالوا

مجداً عظيماً واسماً مخلّداً. الم يكن ابراهيم في التجربة وُجد مؤمناً فحُسب لهُ ذلك برّاً. ويوسف في اوان ضيقهِ حفظ الوصيّة فصار سيّداً على مصر . . .

وحرّكت امّ المكابيين في قلب اصغر بنيها المحبّة والرجاء والرغبة في مجاراة اخوتهِ بمقاساة العذابات فقالت :

يا بُنيَّ ارحمني انا التي حَمَلَتْكَ في جوفها تسعة اشهر وارضعتك ثلاث سنين وعالتكَ وبلّغتك الى هذه السنّ وربّتك . انظر يا ولدي الى السماء والارض واذا رأيت كل ما فيها فاعلم ان الله صنع الجميع من العدَم وكذلك وُجِد جنس البشر . فلا تخف من هذا الجلّاد لكن كُن مستأهلاً لاخوتك واقبل الموت لأتلقّاك مع اخوتك بالرحمة

او تُحرِّك العواطف المخالفة للاهواء المذكورة . كالنفور والخوف كما فعل هولاكو خان المغول اذ دعا الملك الناصر الى طاعتهِ وفتح مدينة حلب لجيشهِ فقال :

يعلم الملك اننا نحن جندُ الله في ارضهِ خلقنا وسلّطنا على من حلَّ عليهِ غضبُهُ . فليكن لكم في مَنْ مضى معتبر ، وبما ذكرناهُ وقلناه مزدجَر ، فالحصون بين ايدينا لا تمنع ، والعساكر المقاتلة لا تضرّ ولا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب ولا يُسمع ، فاتّعظوا بغيركم ، وسلّموا الينا مقاليد امركم ، قبل ان ينكشف الغطاء ، ويحلّ عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من شكا ، ولا نرقّ لمن بكا ، وقد اخربنا البلاد ، وافنينا العباد ، وايتمنا الاولاد ، وتركنا في الارض الفساد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من سهامنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وعقولنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فمن طلب منا الامان سلم ، ومن طلب الحرب ندم ، فان انتم اطعتم امرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وان انتم خالفتم امرنا وفي غيّكم تماديتم فلا تلومونا ولوموا انفسكم ، فالله عليكم يا ظالمون فهيئوا للبلايا جلباباً ، وللرزايا اتراباً ، فقد اعذر من انذر ، وانصف من حذّر ، لانكم اكلتم الحرام وخنتم بالأيمان . . . فابشروا بالذلّ والهوان ، فاليوم تجدون ما كنتم تعملون ، سيعلم الذين ظلموا ايَّ منقلَب ينقلبون ، فقد ثبت عندكم اننا كفَرة ، وثبت عندنا انكم فجَرة ، وسلّطنا عليكم مَن بيده الامور مقدَّرة والاحكام مدبَّرة ، فعزيزكم عندنا ذليل وغنيكم

لدينا فقير، ونحن مالكون الارض شرقاً وغرباً، واصحاب الاموال نهباً وسلباً، واخذنا كل سفينه غصباً، فميّزوا بعقولكم طرق الصواب قبل ان تُضرم الكفَرة بنارها، وتُرمى بشرارها، فلا تبقى منكم باقية، وتبقى الارض منكم خالية، فقد ايقظناكم، حين راسلناكم، فسارعوا الينا بردّ الجواب بتّةً، قبل ان يأتيكم العذاب بغتةً، وانتم تعلمون

البحث الثاني

في الخطبة العسكرية

س ما هي الخطبة العسكريَّة ؟

ج هي الخطبة التي يلقيها قائد الجيش قبل الحرب ليحض جندهُ على مناهضة العدوّ ويدفعهم على محاماة الوطن

س ما هو خطر هذه الخطب ؟

ج لها خطرٌ عظيم لأنَّ كثيراً ما يتوقَّف عليها انتصار الجيش فانَّ الجنديَّ اذا ما تحمَّس بكلام رئيسهِ نشط للقتال وحارب العدوّ محاربة الابطال فيموت شهيد حبّهِ للوطن او يفوز بالظفر

س ما المحور الذي عليهِ تدور الخطب العسكريَّة ؟

ج الخطب العسكرية تدور على محور معلوم ثابت مختلف الاعراض فالواجب على الخطيب من جانب ان يُنهض همَّة الجندي ويُعظِّم في عينهِ الوطن الذي تصدَّى للدفاع عنهُ وما

سينالهُ بحسن بلائهِ من المجد في اعين مواطنيهِ ومن الثواب لدى الله ان مات شريف النفس . ومن جانب آخر ان يبغّض اليهِ العدوّ ويذلّلهُ ببيان جورهِ وضعف قوّتهِ وسهولة الانتصار عليهِ والفوز بعُدَدهِ وذخائرهِ

س ما هي خواصّ الخطب العسكريَّة ؟

ج لهذه الخطب اربع صفات : الاولى ان يلقيها الخطيب بحماسة عظيمة فيجيز في قلوب سامعيهِ ما في قلبهِ من الحميَّة والنشاط

الثانية ان تكون بليغةً متضمّنةً للافكار الشريفة والمعاني المنيفة المهيّجة للعواطف لا سيما الرجاء والثقة

الثالثة ان تكون موضحةً قريبة المنال يدركها الجند دون عناء

الرابعة ان تكون قصيرةً لا يملّ منها الجند فتخرج من فم الخطيب كشهب النار الملتهبة ويتلقَّاها السامعون كالنبال الراشقة فلا يكادون يتمالكون عن نزال العدوّ

س اذكر امثلةً من هذه الخطب ؟

ج من احسن هذه الخطب كلام طارق لجنودهِ قبل فتح الاندلس ومقاتلة ملك القوط لُذْريق قال :

ايها الناس أينَ المفرُّ. البحر من ورائكم والعدوّ من امامكم وليس لكم والله الّا الصدق والصبر. واعلموا انكم في هذه الجزيرة أَضيَعُ من الايتام في مأدبةِ اللئام وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشهِ. واسلحتهُ واقواتهُ موفورةٌ وانتم لا وَزَرَ لكم الّا سيوفكم ولا اقوات الّا ما تستخلصونهُ من ايدي عدوّكم. وان امتدَّت بكم الايام على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم أمرًا ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها عنكم الجرأةَ عليكم. فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية. فقد القتْ بهِ اليكم مدينتهُ الحصينة وان انتهاز الفرصة فيهِ لممكنٌ ان سمحتم لانفسكم بالموت. واني لم احذّركم امرًا انا عنهُ بنجوةٍ ولا حملتُكم على خُطَّةٍ ارخصُ متاعٍ فيها النفوس. ابدأُ بنفسي. واعلموا انَّكم ان صبرتم على الاشقّ قليلًا استمتعتم بالارفهِ الالدّ طويلًا. فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظُّكم فيهِ باوفر من حظّي. وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك اميرُ المؤمنين من الابطال عربانًا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا واختانًا. ثقةً منهُ بارتياحكم للطّعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان. ليكون حظُّهُ منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كلمتهِ واظهار دينهِ بهذه الجزيرة. وليكون مغنمُها خالصةً لكم من دونهِ ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارَين. واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليهِ عند ملتقى الجمعين. حامل بنفسي على طاغية القوم لُذريق فقاتلهُ ان شاء الله تعالى. فاحملوا معي فان هلكتُ بعدهُ فقد كُفيتم امرهُ ولم يعوزكم بطلٌ عاقل تُسندون أُموركم اليهِ. وان هلكت قبل وصولي اليهِ فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليهِ واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتلهِ

ومثلهُ ليهوذا المكابي يحضُّ جيشهُ على الذود عن وطنهم واقداسهم :

تنطَّقوا وكونوا ذوي بأس وتأهبوا للغد لمقاتلة هذه الامم المجتمعة علينا لتبيدنا نحن واقداسنا. فإنّهُ خيرٌ لنا ان نموت في القتال ولا نعاين الشرّ في قومنا واقداسنا. وكما تكون مشيئتهُ في السماء فليصنع بنا

وكقول عليّ لاصحابهِ :

اليوم تُبلى الاخيار فعاجلوا اعداءكم اللقاء. وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة

لن تسلموا من سيف الآخرة وانتم لهاميمُ العرب والسنامُ الاعظم. واعلموا انَّ في الفرار موجدةَ الله والذل اللازمَ والعار الباقي وانَّ الفارّ لا يزيد في عمرهِ ولا يحجوز بينهُ وبين يوم الرائح الى الله كالظمآن يردُ الماء. الجنَّةُ تحت اطراف العوالي واكرمُ الموت القتل. والذي نفسُ ابن ابي طالب بيدهِ لألفُ ضربة بالسيف اهونُ عليَّ من ميتة على الفرش. اللهمَّ افضض جماعتهم وشتّت كلمتهم وأبسلهم بخطاياهم

راجع ايضاً في مجاني الآدب السادس خُطب خالد بن الوليد ومُعاذ وابي سفيان في موقعتي اليرموك واجنادَين (المجاني السادس ص ٤٧–٤٨)

وربَّما كانت هذه الخطب الحماسيَّة قليلة الالفاظ كثيرة المعاني . كقول هاني بن مسعود :

يا قوم جدُّوا فما من الموت بدٌّ. المنيَّة ولا الدنيَّة. واستقبال الموت خير من استدبارهِ. فقدِماً قدماً

وكقول بطل الفرنج وزعيمهم في حرب ڤانداي :

اذا تقدَّمتُ فاتبعوني. واذا أدبرتُ فاقتلوني. واذا متُّ فأثأروا بي

البحث الثالث

في خطب التحريض والتقريع

س ما هي خطبة التحريض ؟

ج هي خطبة حماسيَّة يُقصَد بها تهييج حركات النفس لحمل السامع على مباشرة امر او تركهِ. كما فعل اسمعيل بن عبدالله القشيري اذ ردّ الخليفة مروان عن التجائهِ مع اهلهِ من اعدائهِ الى الروم بدلًا من اجناد العرب :

أُعيذك بالله يا امير المؤمنين من هذا الرأي أن تحكّم آل الشرك في بناتك وحَرَمك وهم الروم لا وفاء لهم ولا تدري ما تأتي بهِ الايّام. وإنتَ إنْ حدث عليك حادث بارض النصرانيّة ولا يحدث عليك إلّا خير ضاعَ من بَعْدَكَ. ولكن اقطع الفرات ثمَّ استنفر اهل الشام جندًا فانك في كنَف وعزَّة ولك في كل جند صنائع يسيرون معك حتى تأتي مصر فانها اكثر ارض الله مالًا وخيلًا ورجالًا ثمَّ الشام امامك وافريقية خلفك فان رأيتَ ما تحبُّ انصرفتَ الى الشام وان كانت الاخرى مشيت الى افريقية

س ما هي خطبة التقريع ؟

ج هي خطبة يلقيها الرجل على سبيل التوبيخ والملامة قاصدًا بها دفع المخاطب الى قصد عظيم كطاعة بعد عصيان وعمل بعد فشل وإنابة بعد ذنب .مثالهُ خطبة الحجّاج لّما دخل الكوفة وصعد المنبر ملثَّماً بعمامة حمراء .فلمَّا اجتمع الناس كشف عن وجههِ فقال من جملة كلام :

اني يا اهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الاخلاق، لا يُغمَز جانبي كتَغماز التنّين ولا يُقعقَع لي بالشِنان. ولقد فررتُ عن ذكاء وقبستُ عن تجربة وأجريت مع الغاية. وان أمير المؤمنين نثر كنانتهُ ثم عجم عقدانها فوجدني أمرَّها عودًا وأشدَّها مكسرًا فوجّهني اليكم ورماكم بي. فانهُ قد طالما أوضعتم في الفتن وسنَنتم سنَن الغيّ. وايم الله لألحونَّكم لَحوَ العصا ولاقرعنَّكم قرع المَروة ولاعصبنَّكم عصب السلَمة ولاضربنَّكم ضرب غرائب الابل. أمَا لا أَعِدُ الّا وفيت ولا أخلق الّا فريت. اياي وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيمَ انتم . . . ولَتستقيمُنَّ على طريق الحق او لأَدَعَنَّ لكل رجل منكم شغلًا في نفسهِ. أما واني لأَحمّل الشرّ بحمله واحذوه بنعلهِ واجزيهِ بمثلهِ. واني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. واني لانظر الدماء بين العمائم واللحى تترقرق. مَن وجدتُهُ بعد ثالثة من بَعْث المهلّب سفكتُ دمهُ وانتهبتُ مالـهُ وهدمتُ منزلهُ. . .

ولهُ ايضاً خطبةٌ بعد وقعة دير الجماجم قرَّع فيها اصحــابهُ تقريعاً لا مزيد عليهِ :

ـ يا اهل العراق . . . قد اتخذتم الشيطان دليلًا تتَّبعونهُ وقائدًا تُطيعونَهُ ومؤَامرًا تستشيرونهُ وكيف تنفعكم تجربة او تعظكم واقعة او يحجزكم إسلامٌ او يردُّكم ايمان . أوَلستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم ان الله يخذُل دينهُ وخلافتــهُ . وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسلَّلون لِوَاذًا وتنهزمون سراعًا يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بهــا كان فشلكم وتنازُعكم وتخاذُلكم وبراءةُ الله منكم ونكوص وليّهِ عنكم إذ ولّيتم كالابل الشوارد الى اوطانها، النوازع الى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن اخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتَّى عضَّكم السلاح وقصمَتكم الرّماح يوم دير الجماجم . وما دير الجماجم ، بهِ كانت المعارك والملاحم، بضرب يُزيل الهام عن مقيلهِ ،ويذهل الخليل عن خليلهِ ، يا أهلَ العراق أهل الكفَرات والفجَرات والغَدرات بعد الخَتَرات والثورة بعد الثورات . إن ابعثكم الى ثغوركم غللتم وخُنتم وان أُمِنتم أَرجفتم . وان خفتم نافقتم . لا تذكرون نقمةً . ولا تشكرون نعمةً . . . يا اهل العراق هل استخفَّكم ناكث او استغواكم غاوٍ او استفزَّكم عاصٍ او استنصركم ظالم او استعضدكم خالع إلَّا وثَّقتموهُ وآويتموهُ وعزَّزتموهُ ونصرتموهُ ورضيتموهُ وارضيتموهُ . يا اهل العراق هل شَغبَ شاغب او نعبَ ناعب او نعق ناعق او زفر زافر إلَّا كنتم اتباعهُ وانصارهُ . يا اهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع . (ثمّ التفتَ الى اهل الشام فقال) يا اهــل الشأم إنما انا لكم كالظليم الذّابّ عن فراخهِ ينفي عنها المَدَر، ويباعد عنها الحجر، ويكنُّها من المطر، ويحميهــا من الضِباب، ويحرسها من الذباب . يا اهل الشأم انتم الجُنَّة والرِداء ،وانتم العُدَّة والحِذاء

ومثله ما قالهُ الامام عليّ بن ابي طالب في ذمّ اصحابهِ :

احمد الله على ما قضى من امر وقدَّر من فعل وعلى ابتلائي بكم ايتها الفرقة التي اذا أَمرتُ لم تُطع . واذا دعوتُ لم تجب . ان أُمهلتم خُنتم . وان حُوربتم خُرتم . وان اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وان اجبتم الى مشاقَّة نكصتم ، لا ابا لغيركم ما تنتظرون بنصركم ربَّكم والجهاد على حقكم . الموت او الذلّ لكم . فوالله لئن جاء يومي وليأتني ليفرّقنَّ بيني وبينكم وانا لكم قالٍ وبكم غير كثيرٍ . لله انتم ألا دينٌ يجمعكم ولا حمية تشحذكم . او ليس عجباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونهُ

على غير معونة ولا عطاء وانا ادعوكم وانتم تريكة الاسلام وبقية الناس الى المعونة وطائفة من العطاء فتفرّقون عني وتختلفون عليّ . انهُ لا يخرج اليكم من امري رضى فترضونهُ ولا سخط فتجتمعون عليـهِ . وان أحبَّ ما انا لاقٍ اليَّ الموتُ . قد دارستُكم الكتاب وفاتحتُكم الحجاج وعرَّفتُكم ما انكرتم . وسوَّغتكم ما مججتم . لو كان الاعمى يلحظ او النائم يستيقظ . وأقرِبْ بقومٍ من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة

ومثلها تقريباً خطبتهُ التي قالها بعد ان اوقع بانصارهِ سفيـانُ بنُ عوف في الانبار (راجع مجاني الادب الخـامس ص ٣٤) . وكذلك راجع (في المجاني السادس ص ٥٠) خطبة ابي حمزة الشاري احد الخوارج يقرّع فيها اهل المدينة

ومن هذا الباب تقريع محمّد بن ابي بـكر الصدّيق لمعاوية اذ طلب الخلافة لنفسـهِ بدلًا من عليّ فقال :

كيف رأيتُك تسامي علياً وانتَ انتَ وهو هو اصدق الناس نيَّةً وافضل الناس ذرّيةً . . الشاهد عليك مَنْ تُدني وتَلجأُ اليهِ من بقيّة الاحزاب ورؤساء النفاق . والشاهد لعليّ مع فضلهِ المبين القديم انصارهُ الذين معـهُ وهم ذكرهم الله بفضلهم واثنى عليهم من المهاجرين والانصار فهم معهُ كتائب وعصائب يرون الحق في اتباعهِ والشقاق في خلافهِ . فكيف لك الويلُ تعدلُ نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيُّهُ وابو ولدهِ اول الناس لهُ اتباعاً واقربهم بهِ عهداً يخبرهُ بسرّهِ ويُطلعهُ على امرهِ وانت عدوُّهُ وابن عدوّه . فتمتّع بدنياك ما استطعتَ بباطلك وليمْدُدْك ابن العاص في غوايتك فكأنَّ أجلَك قد انقضى وكَيْدك قد وهى ثم يتبيَّن لك لمن تكون العاقبة العليا . واعلم انك انّما تُـكايد ربّك الذي أمنتَ كيدَهُ وَيَئستَ من روحهِ فهو لك بالمرصاد وانتَ منهُ في غرور . والسلام على من اتّبع الهدى

البحث الرابع

في خطب الطلب والتوصية

س ما خطبة الطلب وما التوصية ؟

ج خطبة الطلب ما يلتمس بها الخطيب نعمةً لنفسهِ او لغيرهِ والتوصية طلب الخير لثالث ومثلها الشفاعة

س ما هي الطريقة المثلى في خطبة الطلب ؟

ج الطريقة المثلى فيها ان تُعدّ قلب وليّ النعمة لقبول طلبتك باستعطاف خاطرهِ . ثمَّ تعرض المطلوب مبيّنًا اسبابهُ وصلاحيتهُ وقدرة المخاطب على منحهِ . ثمَّ تختم بالشكر للمنعم مع الثناء على اريحيَّتهِ والرجاء من الله إن يكافئهُ على حسن صنيعه (١ . مثالهُ الخطب التي تلقى لمساعدة البؤوسين وافتداء الاسرى والخطوب العموميَّة

ومن امثلة الطلب الحسنة ما قالهُ احد الشيوخ يستعطف بعض الامراء :

اليك يا من استأسر النفوس بكرمهِ واسترقَّ الاحرار بجميل صنعهِ واولى النعم والخيرات وأسدى المعروف والمبرَّات ارفعُ خطابًا تبثهُ الى ناديك عواملُ الحاجة وتُرجيهِ الى ساحتك دواعي الشدَّة . مؤملًا ان يكون تذكرةً بامري والذكرى تنفع المؤمنين وتذكرةً بحالي والله لا يضيع اجر المحسنين . فقد كان سيّدي رفع

١) راجع في الجزء الاوَّل (ص ٢٠٢) ما قيل في رسائل الطلب

الله قدرهُ وأعلى قرنَهُ وعدَني ومثلهُ من يتمسّك من الوفاء بالعروة الوثقى ويقطع حبلَ الإخلاف بسيف الوفاء ويطرّز خامـة الوعد بوشي العطاء ان يرسل لي من خيراته. ويوليَني من آلائهِ وحسَناته . ويضاعف لي مِنَنَهُ ويزيدني من عطائهِ ما اشدُّ بهِ أزري على الزمان، وأطاول بهِ نوائب الحدثان، فقد بارزني الدهرُ بسيوفهِ ورماني بسهامهِ واناخ عليَّ بكلاكلهِ . وقد طال الامد على حاجتي عند سيّدي اطال الله بقاءهُ . فأتيتُ استعجل بوفودي برَّهُ واستدرُّ ضَرْع عطائهِ علماً بانَّ التعجيل يكبّر العطية وان كانت صغيرة ويكثرها وان كانت يسيرة . فعسى ان يكون قد لاح نجمُ النجاح ، وهبَّ نسيمُ الفلاح ، فيرسل سيّدي اليَّ سحاب كرمهِ ويمطرني من غياث فضلهِ فتترفُ غصون آمالي بعد ذبولها وتضحكُ وجوه مطالبي بعد عُبوسها. وأملي في ذلك فسيح فان سيدي من اكرم الناس نسباً واشرفهم حسباً . ومثلهُ جدير بحفظ العهد وانجاز الوعد. فان رأَى سيّدي أن يخفّف ثقل الحاجة عني ويردّ ما سلبهُ الدهر مني بقطرة من بحر عطائهِ ومنَّة من بعض آلائهِ ويجبر ما كسرَهُ الفقر من جناحي ويردُّ عني النوائب التي لا تفتأ تتوالاني عقدتُ لساني على مدحهِ ووقفتُ نفسي على شكرهِ فيحرز من الله اجرًا جزيلًا ومني شكرًا جميلًا ان شاء الله

س ما هو المنهج المفضَّل في خطبة التوصية ؟

ج افضل منهج لذلك وصف خِلال الموصى بهِ التي تؤهلهُ للنعمة المطلوبة لاسيما حسن سيرتهِ وصدق امانتهِ وسابق خطَّتهِ. ثمَّ يبيّن الخطيب احتياج الموصى بهِ الى ان يُلتفت اليهِ وتُمدّ لهُ يدُ المساعدة. ويختم اخيرًا بالشكر الدائم لمعروف المنعم من قِبَلهِ وقبل الموصى بهِ . كقول عبدالله فكري باشا موصياً باحد الشيوخ :

قد رأيتُ السيّد الاستاذ العلَّامة الشيخ فلان عازمًا على قصد الحضرة المنيفة ، والتيمُّن بنور تلك الطلعة الشريفة ، وبودّي من غير حسد لو اتّخذتُ طريقَهُ ، وكنتُ في هذه الرحلة السعيدَة رفيقَهُ ، فاستصحبتهُ هذه الاحرف الودادّية ، لتنوب عني في مصافحة البنان ، وتقوم من جهتي بصفة بعض الشوق وان كان استيفاء الشرح ممَّا ليس في الامكان ، نعم أيّد الله الامير وحيَّاه ، واسعدني بلقياه ورؤية محيَّاه ،

انَّ الشوق يستعصي على القلم واللسان ، وحسبي بضمير أخي عارفًا ، وبنور بصيرته الزَّكيَّة واصفًا ، هذا واني لما علمتُ من مودَّة سيّدي الاخ الشيخ الموما اليهِ وما رأيتُ من تمسّك حضرتهِ بطيب الثناء عليهِ لم اجد حاجة الى التوصية من جهتهِ والتماس مساعدتهِ ، فيما عساهُ يعرض لهُ من الاشغال ومعونتهِ ، لا سيما بما عرفتُ من مزيد احتفالهِ بامثالهِ ، وفرط شغفهِ بأفاضل اهل العلم واماثل رجالهِ ، واحاطة شريف علمهِ بمسرَّة راجيهِ ، في زمرة محبّيهِ . بما يكون منهُ تيسير احوالهِ وتسهيل سبيل آمالهِ ، وانما اردتُ أن اتخذ لي يدًا عند الشيخ بالتماس المزيد في رعايتهِ ، واتوسَّل بهذه الذريعة الى مراسلة سيّدي الامير واستدعاء مكاتبتهِ ، فارجو ان يسرّني ما فيهِ زيادة سرورهِ ، والله تعالى يديم على سيّدي الاخ اشراق نورهِ ، محفوفًا بالعناية والاكرام ، ممتّعًا بغاية المرام

البحث الخامس

في خطب الشفاعة

س ما هي خطب الشفاعة ؟

ج هي التي بها يستعطف الخطيب رضى المخاطب ويسألهُ التجاوز عن ذنب المسيء اليه

س ما الطريقة الموافقة لخطب الشفاعة ؟

ج على الخطيب المستشفع للجاني ان يتخذ كل الوسائل ليخمد غضبَ من حاول استعطافهُ . ويفتتح الخطيب غالباً كلامهُ بالاقرار بالذنب ثمَّ ينتقل بالتدريج الى طلب الصفح عن المسيء امَّا ببيان جهلهِ وغباوتهِ دون تعمُّدهِ للاهانة وامَّا بذكر ما وجدهُ من العقاب بسوء فعلهِ مع ندامتهِ على ما اجترحهُ . ثمَّ يذكر ما في التجاوز عن

اثم المسيء من الكرم وحسن السمعة والثواب في الدارَين .
ويختم بوعد الشكر المؤبد لمن يغفر عن الاساءة مع القصد بالتعويض عنها ما امكن الجاني فضلًا عن الانابة عن ذنبهِ .

ولنا عن ذلك اجود مثال في خطبة القديس يوحنا فم الذهب مستشفعاً لدى ثاودوسيوس في مدينة انطاكية لمّا اراد هذا الملك ان يدمّرها بسبب ثورة اهلها وتحطيمهم لتماثيلهِ فقال :

ان آلاءك ايها السيد وامارات حبك لَمرتسمة داءمًا في ذاكرتنا ولذلك انفسنا متفطّرة حزنًا فلا تضعْ لغضبك العادل لجامًا فان عقاباتك مهما اشتدَّت فلن توازي جسامة ذنوبنا . . لقد امتلأنا كآبةً وهوانًا لأنَّنا اسأنا الى المحسن الينا فما اكفرنا بالجميل . . . لقد اتّشحنا بأطمار الذلّ والعار حتى نكاد لا نستطيع ان نتنفَّس امام العالم كلهِ القائم لنا بالمرصاد لينتقم لك منا . ففي يدك وحدك ايها السيّد حياتنا وموتنا . اذكر ان افظع الاهانات قد يكون وسيلة لنشر اشرف فضيلة . فان الجنس البشري لمَّا اسقطهُ مَلَكُ الظلمة في هوَّة المعصية تنازلت الرحمة الالهيَّة الى هذه الهوَّة لتنهضهُ منها وتعيد لهُ حقوقهُ وتمدّ لهُ مستقبلًا اجلّ وافضل . فهكذا هاجت ارواح الظلمة ايضًا مائجة لتحرم من فضل احساناتك مدينة كانت اعزّ سائر المدن اليك فاضربْها تفرِّحْ الجحيم او بالاحرى اعفُ عنها واجعلْ انطاكية المذنبة في اوَّل مصفّ مدنك العزيزة تخزِ رئيس الجحيم وترد عذابهُ الابدي نكالًا

. . . فاذا شئت ايها الملك المعظم يا قدوة الانسانيَّة والحكمة والتقوى فانت قادرٌ ان تزين رأسك بتاج لا يفنى ابهى جدًّا من تاج سلطنتك لان هذا التاج الارضي قد احرزتَهُ من فضل رجل آخر امَّا مجد الحِلم فلا تحرزهُ الَّا من كرم فضائلك . فان تُغلّب حلمك على غضبك سيخلّد لك ولا شكّ ذكر مجد لا يمحى ابقى من التغلُّب على الاعداء بالسلاح . لقد قلبوا وحطموا واهانوا تماثيلك وصورك الَّا انك تستطيع ان تقيم بدلًا منها ما هو اجمل وابهى لا تماثيل رخام ونحاس وذهب يقرضها الزمان وتتلفها ايدي الحدثان بل تماثيل حيَّة ابدية في قلوب جميع الناس الذين يشيدون بانتصارك العظيم سورة غضبك العادل . . .

الى ان ختمها بقولهِ :

فالعفوَ اذًا ايها السيد العفوَ عن شعبي ولا تخيبنَّ آمالي فان شئتَ ان تصفح عن مدينتنا وتشرّفها ايضاً بدليل جديد عن جودتك الاولى رجعتُ اليها وملءُ الفؤاد سرورٌ وجمعت كل القلوب في تكرار آيات شكرك ابدًا. امّا ان رفضت التماسي ونفيتَ من قلبك ذكر مدينتنا العزيزة فلستُ فقط غير راجع لاراها تنزل الى القبر بل اذهب مفتشاً عن مأوًى آخر. اسير لأموت في ارضٍ غريبة بعيدة عن وطني فلا اعود ارى بعد في هذه الدنيا رعيتي التي لم تستحقّ شفقةَ اعظمِ القياصرة تديّناً وتقىً ولا رحمةَ احلمِ ابناءِ البشر

(راجع في مقالات علم الادب (ج ٢ ص ١٠٨–١٧١) كلام ارسطو في النوع المشوري وما يحتاج اليهِ الخطيب في هذا الباب)

البحث السادس

في انشاء القول المشوري

س اي طبقة من الانشاء أولى بالقول المشوري ؟

ج هذا النوع قابل لكل طبقات الانشاء لأَن الخطيب المشوري يحتاج الى اقناع السامع بالبرهان واستمالة قلبهِ بتحريك الاهواء ليحملهُ على ما يُقصد منهُ من الامور النافعة ويردَّهُ عن الامور الضارّة وهذا لا يتمُّ الّا بافانين الكلام وضروب الانشاء. وما يقال بالاجمال انَّ الخطب السياسيّة تقتضي قوّة ومتانةً وتفنُّناً ليتمكَّن المتكلّم من امتلاك قياد عقل السامعين فيستوقف نظر رصفائهِ ويأسرهم بحجّتهِ ويدفعهم ببلاغتهِ الى ما يريد من الغايات الشريفة

والخطب العسكرية يوافقها الانشاء الاوسط وانمّا تليق بها اشكال البديع المهيّجة للسامع فتارةً يبعثُ على الحرب وأُخرى على السلم وطورًا يثير الخوف وطورًا آخر يحيي الرجاء وحيناً يحرّك المحبَّة وحيناً آخر يوقد نار البغضة. ولا يزال يتصرَّف في وجوه الكلام الى ان يبلغ مرادهُ من الجيش بملاقاة المنايا واستقبال الحتوف

وكذلك خطب التحريض والتقريع فانّها مفتقرة الى تعزيز الكلام بأساليب الانشاء ليكون لها في قلب السامع اشدّ تأثير

امَّا الطلب والتوصية والشفاعة فالاجدر بها ان يتلطَّف الخطيب في كلامهِ ويحلّيهُ بالرقَّة والطلاوة والتعابير المنسجمة ليستميل بها المخاطب ويحظى بالغرض المقصود

وممَّا يستهجن في الخطب المشوريَّة كل لفظ مطروق سخيف وكل معنى مبتذل ثقيل على السمع كريهٍ على الذوق . وكذلك فليعدل الخطيب عن الاسهاب المملّ وحشو الكلام وتكرار المعاني ذاتها دون افادة فينفر عنهُ السامع ويعدل عن اجابة مطلوبهِ

الباب الثالث

في القول المشاجري

س ما هو القول المشاجري ؟

ج القول المشاجري هــو الخصيص بالمحاكم القضائيّة والدعاوي الشرعيّة

س الى كم صنفٍ يقسم ؟

ج الى صنفين امَّا شكاية بجانٍ واماَّ دفاع عن متَّهم

س ما هي الغاية من القول المشاجري ؟

ج الغاية منهُ العدل والجور فيؤخذ بناصر المظلوم ويُرَدّ جور الظالم

البحث الاول

في الخطيب المشاجري

س من هو الخطيب المشاجري ؟

ج هو غالبا المحامي القــانوني الذي يتولَّج اعمال المحاكمات امَّا لتأثيم متَّهم واماّ لتزكيتهِ

س ما هي اخصّ صفات الخطيب المشاجريّ ؟

ج اخصُّ صفاتهِ ثلاث : الاولى النزاهة والاستقامة بحيث يدافع عن الدعوى الموكولة اليهِ بكل غيرة ونشاط اللهمّ اذا رآها عادلةً او رجّح عدلها . امّا اذا عرفها مخالفة للعدل فلا يجوز لهُ ان يحامي عنها

الثانية معرفة اصول الشريعة عمومـا وقوانين العدلية الوطنيـة خصوصاً ليحيد عن الضلال وينقـذ منهُ هيئة المحاكمة

الثالثة حسن الوقوف على الدعوى واسانيدها وتفاصيلها لئلَّا يطوِّح بالتهلكة بارًّا او يبرّر ساحة رجل اثيم

س هل من سعةٍ في الخطبة المشاجريَّة لبلاغة الخطيب ؟

ج انَّ وفرة القوانين الشرعية التي تجري عليها الدول في ايّامنا لا تدع مجالًا كبيرًا لبلاغة الخطيب غير انَّ الخطيب المحنَّك المفوَّه يستطيع في عدَّة دعـاوي ان يؤثّر ببلاغتهِ في عقول القضاة وارباب المحاكمة سواء كان بشرح قانون مبهم او بذكر بعض تلاعب الخصوم في الدعوى وغير ذلك ممَّا يبني عليهِ كلامهُ للدفاع عن المتَّهم وتخفيف ذنبهِ وتذنيب خصمهِ

البحث الثاني

في المواضع الجدلية المشاجرية

س كم هي المواضع الجدليَّة في القول المشاجري ؟

ج المواضع التي يتَّخذ منها الخطيب المشاجري ادلَّتهُ خمسة : الشرائع ثمَّ الشهود ثمَّ الصكوك ثمَّ الشهرة ثمَّ الحلف

س كيف يستخدم الخطيب موضع الشرائع ؟

ج اوَّلًا بان يأتي بنصوصها الواضحة وقوانينها الصَّريحة . وثانيًا بان يُثني على صلاحية الشريعة وحكمة واضعيها . وثالثًا بان يبين ما يلحق من الضرر بالمجتمع الانساني ان خالفها القُضاة او عدلوا عن تنفيذها

(فائدة) اعلم ان الشرائع امَّا الهيَّة مُنزَلة وامَّا بشريَّة وكلتاهما ضروريَّة للهيئة الاجتماعيَّة الَّا ان المرتبة العليا للاولى كما لا يخفى . قال ابن خلدون في مقدَّمتهِ :

ان الاجتماع البشري ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيهِ وانَّهُ لا بدَّ لهم في الاجتماع من وازعٍ وحاكم يرجعون اليهِ . وحكمهُ فيهم تارةً يكون مستندًا الى شرع منزَل من عند الله يوجب انقيادهم اليهِ وايمانهم بالثواب والعقاب الذي جاء بهِ مبلّغهُ وتارةً الى سياسة عقليَّة يوجب انقيادهم الى ما يتوقَّعونهُ من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفتهِ بمصالحهم . . . ثم ان السياسة العقليَّة تكون على وجهين احدهما تُراعي فيهِ المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكهِ على الخصوص . . . والوجه الثاني ان تُراعي فيهِ مصلحة السلطان وكيف يستقيم لهُ الملك مع القهر والاستطالة . . .

وقال ايضاً في اثبات ضرورة هذه الشرائع :

ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر وتمّ عمران العالم لهم فلا بدَّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانيّة من العدوان والظلم. وليست السلاح التي حُملت دافعــةً لعدوان الحيوانات بكافية في دفع العدوان بينهم لأنها موجودة لجميعهم. فلا بدّ من شيءٍ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض. . . فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون لهُ عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك. . . وانَّهُ لا بدَّ للبشر من الحكم الوازع. . . وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي بهِ واحدٌ من البشر يكون متميزًا عنهم بما يودع الله فيهِ من خواصّ هدايتهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتّى يتمَّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تثريب

س وهل يستطيع الخطيب ان يردّ عــلى مُنــاظرهِ اذا اتاهُ بنصّ شرعي مخالف لقضيتهُ ؟

ج نعم يستطيع ذلك. فان كان النصّ من الشرع البشري امكنهُ ان يبين انَّهُ مُلغىً او مُمات بتمادي الزمان او انَّهُ وُضع لاحوال غير الاحوال الحاليَّة او انَّهُ قابل لتفسير يوافق قول الخطيب او انَّ مادَّتهُ نُسخت بمادَّة أُخرى او يقابل بين الشرع الوضعي والشرع الطبيعي . كما فعل شيشرون خطيب الرومان في دفاعهِ عن ميلون لقتلهِ خصمهُ كلوديوس مدافعاً عن نفسه :

ايُّها القُضاة انَّ في الارض شرعاً مقدَّساً غير مكتوب ولكنَّهُ وُلد مع الانسان. شرعاً سبق المشترعين والتقاليد قاطبةً خوَّلَتْناهُ الطبيعة منقوشاً في دستورها الخالد الذي منهُ اخذنا وعنهُ اقتبسنا . شرعاً يُشعَرُ بهِ اكثر ممَّا يُقرأ. مُدرَكاً بالبداهة اكثر منهُ بالتعليم. فهذا الشرع قد حطَّ في قلبنا هذه القاعدة : « تحت الخطر الملمّ الذي أَعدَّهُ اهل المكر والشرّ بل تحت مُدية الطمع والضغينة تُضحي كلّ وسيلة للخلاص والنجاة حلالًا مباحةً حتى بقتل الخصم»

وان كان النصّ من الشرع الالهي امكن الخطيب ايضاً ان يشرحهُ بآية أُخرى خصَّصت معناهُ او استثنت منهُ بعض الوقائع او زادتهُ ايضاحاً . لنا على ذلك مثال حسن في تجربة ابليس للسيّد المسيح لمَّا اقامهُ على جناح الهيكل ودعاهُ الى ان يُلقي بنفسهِ الى اسفل قائلاً : « لانهُ مكتوب انهُ يوصي ملائكتهُ بك لتحفظك » فردّ يسوع قولهُ بآية أُخرى اليق بالمقام فاجابهُ : « وقد كُتب لا تجرّب الرب الهك »

ومثل هذا تفنيدهُ للكتبة والفريسيين اذ بكَّتوا تلاميذهُ على اقتلاعهم السنبل يوم السبت واكلهم لهُ فنقض السيّد المسيح احتجاجهم وابكمهم بمثل داود الملك اذ دخل بيت الله واكل مع رفقتهِ خبز التقدمة الذي لا يحلّ اكلهُ الَّا للكهنة ثم بمثل الكهنة الذين ينقضون يوم السبت في الهيكل (متى ١٢ : ١—٦)

س من هم الشهود وكيف يتصرَّف الخطيب بقبول او رد شهادتهم ؟

ج الشهود هم الذين يخبرون في المحاكم عن حادث رأوهُ بالعين او سمعوا بوقوعهِ من شهود العيان . امَّا تصرُّف الخطيب فيختلف على اختلاف الشهادة فيقبلها او ينقضها على حسب الظروف ومقتضى الحال

س متى يوثَق بشهادة الشهود ومتى تزيَّف تلك الشهادة ؟

ج يوثق بها : اوَّلاً اذا كان الشهود عيانيّين او تلقّوا شهادتهم من عيانيين

ثانياً اذا اشتهروا باستقامتهم وتقاهم
ثالثاً اذا كانوا من وجوه القوم وارباب الفضل

وتُزيّف شهادتهم بان يبيّن الخطيب:

اوّلا انّهم غير محمودي السمعـة ومتّصفين بالطيش وخفّة العقل

ثانياً انَّهم ادَّوا شهـادتهم مدفوعين بعوامل غير مرضية كالرجاء والخوف والحقد والرحمة

ثالثًا انّهم قبلوا رشوةً على شهادتهم. كحَرَس قبر المسيح الذين رشاهم الكهنة فاشاعوا انَّ تلاميذهُ اخذوا جثّتهُ وهم نيام

رابعاً ان الشهود يتناقضون في أداء شهاداتهم. كشيخي بني اسرائيل اللذين تواطآ بشهادة الزور على قتل سوسنَّة البارَّة فبيَّن دانيال تناقضهما في الشهادة (سفر دانيال ف١٣)

خامساً انَّ شهادتهم مبنية عـلى الحدس والتخمين ليست على اليقين. كقول عبد الخالق باشا في محاكمة الورداني قاتل بطرس باشا غالي رئيس نظّار مصر يردّ شهادة الدكتور فرنوف ويثبت شهادة الجرّاح الذي عُني بمعالجتهِ فقال:

كيف يسوغ لنا يا حضرات القضاة ان نضع في صفٍّ واحد طبيبين واحدًا باشر العمليّة وشاهد الجروح واتخذ لها العلاج اللازم بعد بحثها وفحصها فحصاً يمكّنه من الوقوف على حقيقتها وآخرَ لم يتمكّن من رؤية الجروح الّا بارسال نَظَرات الى المصاب من فوق اكتاف الجرّاحين المحيطين بهِ ولم يحضر العمليّة من بدء العمل. ذلك شأن الدكتور فرنوف يا حضرات القضاة. فانّهُ يقرّر بصريح العبارة انّهُ لم يتمكّن من رؤية الاصابات الّا بهذه الكيفية وانّهُ لم يحضر العمليّة

من بدء العمل فيها . . . فهل يمكن ان يقال بمعارضة شهادتهِ لشهادات الشهود الاثبات . . . فانّنا نضطرّ ان نقول مع الاسف ان بعض اقوال المعارضين ظاهر فيها التحكُّم . . .

سادساً انَّ الشاهد هو فردٌ لا يمكن تحقيق شهادتهِ ما لم يكن ذاك الشاهد اعظم من ان تَعلَق بهِ التهمة . مثالهُ ما كتب بديع الزمان الى الشيخ ابي العبّاس يتشكّى من قبولهِ شهادة رجل فرد ليس بثقة :

كتابي اطال الله بقاء الشيخ وقليلٌ في الولاء أن أحتذيَ من العين ، واتخذ نعلَين ، ان يسوقني هذا المساق إلا الشوق المائج ، والوحد اللّاعج ، وانا في هذه الحُرقة كثير الشوق ولكني وردتُ ، لغير ما اردتُ ، إنما ضرَبتُ في جنب ، ما نسبوا اليَّ من الذنب ، وطعنتُ في عين ، ما قُذِفتُ بهِ من المَين ، وخرجتُ على مقام يومين ، وسأردُّ فأُدحضُ التُهمة ، وأمحصُ الخدمة ، وأُجدّد عهدًا بين ذلك . وآخذ موثقًا من اولئك . لئلّا يتّهمني كلَّ ما كذبَ كاذبٌ ، او استحلَّ كاتبٌ ، او شرع حاسدٌ بكفران نعمتهِ . قُلْ لي أَيستحلُّ ان يُسمَع في المحال . ولا يُكشَف فيهِ الحال . وما هذا التصديق لرجل ليس في المروَّة رأساً ولا في الدين ذنَباً . والله يكفي شاهدًا ، وان كان واحدًا ، فامّا غير الله فلا اقلُّ من شاهدين . ولا كلُّ شاهدين حتى يكونا عدلَين

س ما هي الصكوك ؟

ج الصكوك عبارة عن الكتابات الشرعيّة المتضمنة للعقود والوثائق والحجج والوصايا وما اشبهها

س كيف يتّخذ الخطيب الصكوك في احتجاجهِ ؟

ج ان كانت تلك الصكوك مزوَّرة او مشتبَه بها بيَّن زورها او ابدى شكوكهُ في صحَّتها . وان كانت صادقة ثابتة

فإمَّا تُثبت قضيَّتهُ فيؤيدها بالدليل ويقرّر صحَّتها. واماَّ تخالف قضيتهُ فيخرجها على تأويل يوافقهُ او يناقضها بشهادات أُخرى مخالفة لها او يثبت انَّ تلك السندات والوثائق كُتبت قسرًا تحت حكم الخوف فلا يُعمَل بها

س ما هي الشهرة ؟

ج الشهرة ويقال لها السُّمعة ما شاع بين الناس من وقوع امرٍ معلوم او ما يتناقلونهُ بالقال والقيل

س كيف يستطيع الخطيب ان يتخذ السمعة كحجَّة في كلامهِ ؟

ج من السمعة ما يكون صحيحاً مبنيًّا على ادلَّة صادقة. ومنها ما يكون احدوثةً وافتراءً تتناقلهُ الالسنة ولا نصيب لهُ من الصحَّة فعلى الخطيب ان يفرز الغثَّ من السمين والصادق من الكاذب. مثالهُ ان تدافع عن متَّهم بقولك :

ألتمس من مولانا القاضي مثال النصَفة والعدل ان لا يبرز الحكم على فلان الذي وُليتُ المدافعة عنهُ بمجرَّد ما بلغهُ من الاراجيف والاحاديث المفتراة. اذ لا يعزب عن علم مولاي ان ليس كلُّ ما تتناقلهُ الافواه ملابساً للصحة ولا كلُّ ما يسهل انتشارهُ وجريانهُ على الالسنة ناشئاً عن الحق. ومَن كان مثلهُ ينبغي عليهِ ان لا يُعير اذنًا واعية للمرجفين ولا يجعل الابرياء فريسة لمخالب اهل القال والقيل

س ما الحَلِف وكيف يكون الاحتجاج بهِ ؟

ج الحلف إشهاد الله على صحَّة امرٍ او كذبهِ. امّا تصرُّف الخطيب مع الحالف فيكون كمثل تصرُّفهِ مع الشاهد فيستند

الى حلفهِ ويثبتهُ اذا كان الحالف رجلًا فاضلا تقيًا مستقيماً ويردُّهُ اذا عُرف بسوء السمعة وقبح السيرة

(فائدة) كان القدماء يتَّخذون ايضاً لتقرير الجُناة العقوبة كالجوع والعطش والضرب فمنهم من كان يصبر على ذلك ولا يقرّ بالحقّ ومنهم من كان لا يقوى على احتمال العذاب فيقرّ او يزوّر القول . واليوم بطل استعمال العقوبة لوجود طرائق اخرى لمعرفة الحقّ افضل منها

البحث الثالث

في نوعي الخطب المشاجرية

س كم نوعاً للخطب المشاجريَّة ؟

ج لها نوعان بحسب الدعاوي الدائرة عليها : فمنها جنائية مدارها على تأثيم المذنب وطلب معاقبته . ومنها دفاعية يذود فيها الخطيب عن حقوق جماعات او افراد من اهل الرعية

١ً في الدعاوي الجنائيَّة

س كم هم خطباء الدعاوي الجنائيَّة ؟

ج ثلاثة : المدَّعي العمومي او معاونهُ والمحامي ورئيس المحكمة

س ما هو موضوع خطبة للدَّعي العمومي وما هي صفاتها ؟

ج على المدَّعي العمومي ان يقيم الدعوى على المتَّهم

فيوضح الشكوى على موجب الاصول المرعية فتتناول خطبتهُ كل ما يختصّ بالجريمة وسوابقها ولواحقها وجميع احوالها مع بيان عظمها وما تستوجب من العقوبة بقوّة الشرع . فمن خواصها الوضوح والمتانة وبيان الحرص على تنفيذ الشرع بالعدل والانصاف . مثالهُ ما اخبر بهِ سفر الاعمال عن محاكمة بولس الرسول لدى والي اليهوديَّة فيلكس قال :

وبعد خمسة ايام انحدر حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ وخطيب اسمهُ ترتُلُّس وعرضوا لدى الوالي شكواهم على بولس . فلما دُعي طفق ترتلس يشكوهُ قائلًا : قد نلنا بك سلامًا عظيمًا وبعنايتك حصلت مصالح جمَّة لهذه الامَّة . فنتقبَّل ذلك في كل وقت وكل مكان بكل شكر يا فيلكس العزيز . ولكن لكي لا أُعوقك بالإطناب أَسأَلك أن تسمع لنا بحلمك قليلًا . إنَّا قد وجدنا هذا الرجل مُفسدًا ومُثير فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة وإمامًا لشيعة الناصريّين . وقد حاول ايضًا أن ينجّس الهيكل فامسكناهُ وأردنا ان نحاكمهُ بحسب ناموسنا . إلَّا انَّ ليسياس قائد الالف أقبلَ وانتزعَهُ من أيدينا بعنف شديد . وأمر خصومَهُ بأَن يأتوا اليك ومنهُ تستطيع اذا فحصتهُ ان تعرف جميع ما نشكوهُ بهِ . . .

ومن الامثال الحريريَّة في ذلك رفعُ ابي زيد دعواهُ الى قاضٍ يشكو فيها ابنهُ ويرميهِ بالعقوق قال :

فبينما القاضي جالس للإسْجال ، في يوم المحفل والاحتفال ، اذ دخل شيخٌ بالي الرياش ، بادي الارتعاش ، فتبصَّر الحَفْل تبصُّر نقَّاد ، زعم ان لهُ خصمًا غير منقاد ، فلم يكن الَّا كضوء شرارة ، او وحي إشارة ، حتى أُحضر غلام ، كأنهُ ضِرْغام ، فقال الشيخ : أَيَّد الله القاضي ، وعصَمَهُ من التغاضي ، انَّ ابني هذا كالقلم الرديء ، والسيف الصديء ، يجهل اوصاف الإنصاف ، ويرتضع أخلاف الخلاف ، ان اقدمتُ أَحجَمَ ، وإن أعربتُ اعجمَ ، وان اذكيتُ أَخمد ، ومتى شويتُ رمَّد ، مع اني كفلته مذ دبَّ ، الى ان شبَّ ، وكنتُ بهِ الطف مَن ربَّى وربَّ . . .

ومن الامثال المستحدثة دعوى خليل الدهشان المتَّهم بقتل مصطفى بك واصف في مصر سنة ١٣٠٨ وكان المــدَّعي العمومي حشمت بك فقال يعرض الشكوى (عن مجلّة الأحكام):

قد اقدم الدهشان على ارتكاب الجرائم وليست باوَّل مرّة غمس يدهُ في الآثام وقد كانت بينَهُ وبين المتوفَّى منافسات لأخذهِ بناصر خلَف افندي وغيرهِ من ارباب المعاشات المستبدلين معاشهم بأطيان. فحنق من ذلك الدهشان وعاتبهُ كثيرًا وجعل يشنّع على الحكومة كيف تعطي الأطيان لأرباب المعاشات. وما تحاشى انْ يذكر ذلك تصريحًا في حضرتهِ. واستمرَّ حقــد الدهشان حتى كان يومٌ فابتنى المرحوم مصطفى بك انشاء طاحون في خزَّان بحر «ابو المير». فلمَّا بلغ الدهشان هذا الخبر استشاط غضبًا وتقاول مع المتوفَّى فأخشن لهُ القول فلم ينصرف الّا وقد عدل المتوفى عن مشروعهِ ورجع الدهشان وفي النفس حزازات... حتى سوَّلت لهُ نفسهُ الخبيثة ان يفتك بهِ. ولتمام الحيلة وبلوغ المكيدة جعل يتودَّد نفاقًا الى المتوفى ويكثر الوفادة عليهِ تمكينًا للثقة بهِ وما زال حتى دعاهُ الى دوَّارهِ المشؤوم على الوجه المعلوم فقتلهُ على رؤوس الأشهاد... فها قد شرحتُ الحقائق في هذه الواقعة الجنائيَّة وابنتُ ما تمَّ فيها من التحقيق وقد رأيتم ما قام من الخدَع والبدَع وطرائق التغرير والتمويه ابتغاء تغشية الحقّ بالباطل لو تنفع الحيل... فاحكموا ايُّها القضاة بما يستحقّهُ القاتل جزاءً وفاقًا عمَّا جنت يداهُ ليعتبر بامرهِ من غوى وحاد عن سواء السبيل ويعلم من سهى وطغى ان سيف العــدل مسلول فوق هام البغاة العائثين في الارض فسادًا. انَّ خليل الدهشان قتل مصطفى بك واصف عمدًا مع سبق الإصرار فجزاؤهُ الإعدام

س ماذا يتحتَّم على المحامي في خطبتهِ الدفاعيَّة؟

ج يتحتَّم عليهِ احد الامــور الآتية: اوَّلًا ان ينكر الواقع. كما انكر بطرس الرسول على اليهود تُهمتهم للتلاميذ بالسكر يوم حلول الروح القدس فقال في خطابهِ:

أيُّها الرجال اليهود والساكنون في اورشليم أجمعون ليكن هذا معلومًا عندكم وأصغوا لاقوالي فانَّ هؤلاء ليسوا بسكارى كما ظننتم وهي الساعة الثالثة من النهار.

To: www.al-mostafa.com

لكن هذا المقول على لسان يوئيل النبيّ: وسيكون في الايّام الاخيرة يقول الله أني أفيض من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم . . .

ثانيًا بان يسلّم بوقوع الامر لكنهُ ينكر كونهُ وقع تعمّدًا او بمعرفة تامّة او لأسباب مستقبحة . كما دافع محمّد بك ابو نصر المحامي عن الورداني في قضيّة بطرس باشا غالي فقال :

حدث ذلك الحادث الاليم فعمّت البلادَ الدهشة واستحكم الذهول في بعض العقول فتسرَّع من تسرَّع الى اتخاذهِ مثارًا لأحقاد وضغائن يشهد الله أن لا وجود لها الّا في بيداء الخيال والوهم. نعم سمعنا والاسف ملء قلوبنا سمعنا صيحةً كانت اشبه باصوات الانتقام منها بتكييف الحالة الواقعة اوشك الجوّ بهذه الصيحة ان يزداد ظلامًا فتشابه الامر واتّسعت دائرة المسؤولية الجنائيَّة عن مركزها الحقيقي فاستوى البريء بغير البريء على خلاف ما تقتضي بهِ مصلحة العدل . . . واني احلّ ايها القضاة مقامكم الرفيع ونظركم الصحيح عن ان تنظروا الى هذا المتّهم بالعين التي تنظرون بها الى أخسّاء الجناة وقطّاع الطريق. نعم انّ الناس كلهم امام سلطة القانون سواء ولكن ليس معنى هذا ان القانون يسوّي بين الخبيث والطيّب ولا انهُ يضربُ ويرمي الأحساس وقوّة الشعور وشرف الاسباب عرضَ الحائط . كلّا . ان القانون نفسهُ شاهد عدل على وجوب رعاية هذه الاعتبارات . وكلُّ قانون يخرجُ الانسان عن حقوق الانسان او يرمي الى عكس الطبيعة ومنافاة الفطرة يكون هو الاستبداد بعينهِ . . .

وفي هذه القضية لا خلاف بيننا وبين النيابة عن شيء من وقائع الدعوى اللهمّ الّا في سبب الوفاة . وانما الخلاف في تقدير تلك الوقائع وتكييفها قانونًا وبيان اي مواد العقوبات يصحُّ تطبيقهُ عليها . . .

لم يرتكب المتّهم ما ارتكبهُ ملتمسًا لنفسهِ من فعلهِ نفعًا او ساعيًا وراء شيء قلَّ او جلَّ من حطام هذه الدنيا كما تشاهدونهُ فيمن يتقدَّم الى عدلكم كل يوم من أولئك الذين يعيثون في الارض فسادًا ويضربون في عرض البلاد نهبًا وسلبًا وانما ارتكبها مدفوعًا بعوامل اخرى لا يختلف اثنان في مقدار شرفها وقوّة تمكّنها من نفسهِ وشدَّة تأثيرها فيهِ . أشرف المتّهم على وطنهِ المحبوب من سماء معتقدهِ الخاصّ فرآهُ في تيّار الحوادث مضطربًا كسفينة في بحر . رأى الأهواء تتغالب عليهِ والايدي ممتدَّة اليهِ تكاد تختطف منهُ ما بقي من مال واستقلال واعتقد ان المرحوم

بطرس باشا هو صاحب اليد الفعَّالة في جلب هذه الاخطار فاندفع بلا رويَّة ولا تبصُّر الى الايقاع بهِ حبًّا بوطنهِ معتقدًا انَّهُ انَّما كان يؤدّي واجبًا عليهِ هو تضحية كل شيءٍ في سبيل الدفاع عنهُ . . .

ويمكن الخطيب ثالثاً اذا رآهُ مناسباً ان يقرَّ بالواقع مدافعاً عن صوابيَّتهِ. كما فعل آخرًا المحامي اللبناني نجيب افندي خلف في دعوى قتل مبيّناً انَّ القاتل ابراهيم زهرا اضطرَّ الى فعلهِ ليدافع عن حياتهِ وذلك ممَّا يتَّفق في تحليلهِ الطبع والشرع :

اقول انَّ الضرورة الحاصلة في مسألتنا لم يحصل مثلها ضرورة فلاحظوا ايها السادة القضاة جمهورًا من الناس أقبلوا فجأةً متهدّدين متوعدين مدجَّجين بالاسلحة بينهم مرشد امين المقتول يقصدون قتل جماعة موجودين في محل محصور ومنهم موكّلي ، وحالما اطلّوا على البيت الموجود فيهِ موكّلي وهو بيت « يوسف بو رعد » طفقوا يطلقون العيارات الناريَّة دفعات عديدة ابلغها بعض شهود المسألة عدّا. وحالما اطلَّ عليهم يوسف بو رعد قتلوهُ . ثم انقلبوا على ابرهيم موكلي ومن معهُ في ايوان البيت ولا مخرج لهُ منهُ يَصلونهُ نارًا حامية من افواه بنادقهم ومسدساتهم مما تطير لهُ نفس الشجاع شعاعاً ، ويذوب لهُ قلبهُ خوفاً والتياعاً ، فقد كان في خطر القتل وهو في داخل البيت يلوذ بالجدران والزوايا ، والنوافذ حواليهِ مسدودة باوائل القزّ وهو كعصفور في القفص وليس بينهُ وبين الموت الّا قيدُ فترٍ . ولولا عناية الله وحسنة والدهِ هو وحيدٌ لها لكان الآن في عالم الاموات . ولم يكن الخطر محدقاً بهِ في الداخل فقط بل لو خرج لكان لم يزل معرَّضاً لنيران اسلحة الهاجمين فقد اطبقوا عليهِ كل الاطباق ، حتى امسى في حالة من الضيق لا تطاق ، وهل من صورة فجائية اعظم من حالته وهل يُحتمَل بعد ان فتكوا برفيقهِ ان يبقوا عليهِ وعلى اهل رفيقهِ وهم يحسبونهم لهم من الاخصام السياسيين ، وقد ابرزوا قصدهم الشرير الى الوجود وتكلَّموا بألسنة ناريَّة عما كانوا ناوين وقد انطرحت جثة يوسف ابو رعد على الارض . وهل يوجد بعد محلٌّ للشك في وقوع الخطر المحدق بابرهيم ومن معهُ . وهل يكون الاحداق مطبقاً اكثر من هذا الاطباق وقد ازفت الآزفة وحلَّت الكارثة فتلك هي الضرورة التي لا يمكن دفعها بوسيلة اخرى

س ألا يوجد طرائق أُخرى لاستعطاف القضاة عند ثبات الجريمة ؟

ج نعم للخطيب وسائل أُخرى يمكنهُ التوسُّل بها لخلاص الجاني او تخفيف عقوبتهِ . منها نزق الشباب وشدَّة عوامل الهوى التي تُعمي بصر القلب . ومنها ذكر ما للجاني من الفضل السابق الذي يشفع بذنبهِ . كما لو دافعتَ عن رجل عصى دولتهُ بعد ان خدمها خدماً مشكورة فتقول :

لا انكر انَّ فلاناً قد اتى جريمةً كبيرة واقترف ذنباً عظيماً وأعلمُ انَّ سادتَنا القضاة المتولّين امر الاحكام هم رجال عدل لا يخرجون عن جادَّة الانصاف وسبيل الاستقامة . وبالتالي فانَّ الحكم الذي ابرزوهُ في حقّهِ هو عادل من كل وجهٍ مُطابق لاصول الشرع مستوفٍ جميع الشرائط المُقتضاة . . . ولكن ان سمحتم لي قلتُ : ايُنافي العدل ان أُذكركم بسوابق احسانهِ لدولتنا ووطننا . . . ألم تكن الدولة على شرفٍ خطير . . . ألم تُقبل علينا الاعداء بجيوشها الجرَّارة . . . ألم يرَ كُلٌّ منَّا اسباب الموت منتصبةً . . . ألم توشك الدولة ان تنحطّ من رتبتها وتسقط عن درجتها وتلحق بالامم البائدة . هذا نعلمهُ حق العلم ونتذكَّرهُ بالخوف والرعبة بينا انَّا نتذكَّر بالفرح والسرور انهُ هو هو الذي خلَّصنا من جميع هذه المهالك . أَينافي العدل اذاً ان نُعرض عمَّا اتى من الذنب . . . أليس من الانصاف ان نصفح عن جريمتهِ بشفاعات ما سبق لهُ . . . أما احسانهُ هذا الغير المسيّ لا يُنسينا عملَهُ هذا الجزئي . . . ما لي أُطيل مع قُضاةٍ يُغارون على صالح الوطن والدولة ويجازون الاحسان بالاحسان . فمحبَّةً بالدولة والوطن اقضوا بحكمكم على من رفع شأن الدولة وعمَّ فضلُهُ كلًّا من اهل الوطن

س وما هي صفات خطبة رئيس المجلس ؟

ج يجب على رئيس المجلس ان يتبصَّر في الشكوى والمدافعة ويقابل بين حجج الفريقين ويعرض لاعضاء المجلس

خلاصة الدعوى مع ترجيح اسباب الشكوى او ادلّة الدفاع ملتزمًا جادّة العدل و كرامة الوطن فيقضي القضاة بعد ذلك على مُقتضى الذمّة مثالهُ كلام الوالي الروماني فَسْتُس في دعوى بولس الرسول حيث قال امام الملك اغريبا :

أيُّها الملك اغريبا ويا جميع الرجال الحاضرين ممنا انّكم ترون هذا الذي سعى اليَّ بهِ جمهور اليهود كلهُ في أُورشليم وهنا . وهم يصيحون انهُ لا ينبغي ان يحيا من بعدُ . امَّا انا فوجدتُ انهُ لم يصنع شيئًا يوجب الموت ولكن إذْ رفعَ هو دعواه الى اغسطُس قضيت بان أُرسلَهُ ليهِ . ولم إتيقَّن في امرهِ شيئًا أكتبهُ الى السيّد فلهذا احضرتهُ امامكم وخصوصًا امامك ايُّها الملك اغريبا حتَّى انَّهُ بعد الفحص عن قضيَّتهِ يكون لي ما اكتبُ . لأني ارى من الجهل ان ابعث أَسيرًا ولا أُبين الدعاوي

ومثلهُ خاتمة دعوى ابرهيم زهرا حيث قال الوكيل :

ولقد وضح ايها السادة من كل ما جريات التحقيق والمحاكمة صدق حادثة الدفاع بكل وقائعها الى حدّ اليقين . فقد جاءت الادلّة ايجابًا بما ورد في شهادات شهود الادعاء العمومي وشهود الدفاع الذين يوردون الحقائق كما عاينوها وشاهدوها مما يدلّ على تمكنهم في الحق واجماعهم على الصواب لانهم يتكلمون عن اقتناع تام وطمأنينة وجدان . وقد وافقهم عليها المدَّعون الشخصيون وبعض شهودهم حتى اجتمعت الحقيقة في جانب شهودنا ولم تتنكب قيد شعرة عنهم . وقد تعزَّزت هذه الادلّة الايجابية بكشف عياني وتقارير فنّية ، كما جاءت الادلة سلبًا بما ورد في شهادات شهود الخصوم من التناقضات . فلقد تضاربت شهاداتهم في نفسها وتناقض بعضهم مع بعض ومع المدعين واختلفوا في تعيين المواقع والمطارح والابعاد والمسافات ومحالّ انطلاق القواس ومحل الاصابة فلا يمكن ان يؤلف من شهادة اي واحد منهم حقيقة يرتاح لها الضمير ويطمئن الوجدان حتى انَّهُ لا يمكن ان يؤخذ من مجموع شهاداتهم شهادة صحيحة فهي لا تخرج عن حدّ الاضاليل والاوهام وليس للحقيقة فيها من مقام كما يظهر لاقلّ تدقيق . . .

راجع ايضًا في مجاني الادب مقامة الحريري الاسكندريَّة (ج ص ١٢٣) وفيها مخاصمة ابي زيد مع امرأتهِ لدى القاضي بحجّة خداعهِ لها

وبيعهِ لأَثاثها ورحلها وفي آخرها مثال لختام القاضي للدعوى حيث قال :

فلمَا أَحكم ما شادهُ، واكمل انشادهُ، عطف القاضي الى الفتاة، بعد ان شُغف بالابيات، وقال : أَما انَّهُ قد ثبت عند جميع الحكَّام، وولاة الاحكام، انقراض جيل الكرام وميــلُ الأَيَّام الى اللئام، وإني لإخال بعلَكِ صدوقاً في الكلام، بريئاً من الملام، وها هو قد اعترف لك بالقَرْض، وصرَّح عن المحض، وبيَّن مصداق النظم، وتبيَّن انهُ معروق العظم، وإعنات المُعذر ملأَمةٌ، وحبس المعسر مأْلمةٌ، وكتمان الفقر زهادةٌ، وانتظــار الفرج بالصبر عبادةٌ، فارجعي الى خدركِ، واعذري ابا عذركِ، ونهنهي عن غَرْبكِ، وسلّمي لقضاء ربّكِ

٣ً في الدعاوي المدنية

س ما هي الدعاوي المدنيَّة ؟

ج هي كل المحاكمات والمرافعات التي تجري في مجالس القضاء دون المحاكمات الجنائيَّــة وهي تشمل كل الدعاوي التجاريَّة والسندات والعهود والمبايعات والوراثات والشركات وغير ذلك مما يقع فيهِ الخصام بين العموم فيُرفع امرهُ الى المحاكم

س من هم خطباء هذه الدعاوي وما هي صفاتهم ؟

ج هم عين الخطباء المتولّجين في الدعاوي الجنائية اعني المدّعي العمومي او المشتكي ثم المحامي ثم القاضي الحاكم في الدعوى . امَّا صفاتهم فكصفات اولئك اي النزاهة ومعرفة القوانين ومراعاة الحقوق

س ماذا يلحق بهذه الدعاوي المدنيَّة ؟

ج يلحق بها المعاريض المرفوعة الى ارباب السلطة في بيان الوقائع والتقارير في استئناف الاحكام والاعتراضات عليها والفتاوى في الامور القانونية اثباتًا للصحيح الشرعي منها ونفياً للباطل

س اذكر مثلًا على هذه الدعاوي ؟

ج اذا ادَّعى مشتكٍ بصدور حكم لهُ على غريمهِ وطلب تنفيذهُ امكنهُ ان يقول :

اعرض على مسامع اهل المجلس انهُ قد صدر لي حكم من اللجنة الفلانيَّة بتاريخ كذا سنة كذا بالزام فلان بدفع مبلغ كذا ومن حيث انَّهُ لم يدفع حتى الآن فألتمس ان توضع املاكهُ الثابتة بالمزايدة وتُضبط المنقولة وتُباع عن يد مأمور مخصوص وفقاً للقانون – . . .

اما الغريم فيمكن ان يردَّ عليهِ هكذا :

١ً ان الحكم الذي يدَّعي الخصم انَّهُ صادر عليَّ بتاريخ كذا سنة كذا لا علم لي بهِ

٢ً انَّ هذا الحكم على فرض صحَّة صدورهِ فانَّهُ لم يكن من محكمة قانونيَّة وقد صرَّحت المادَّة الفلانيَّة من قانون المحاكمات الموقت ان الدوائر المشكَّلة بغير ارادة سنيَّة لا تُعتبر أحكامها مطلقاً

٣ً اني لم أُبلَّغ هذا الحكم المزعوم صدورهُ وعليهِ فهو غير مرعيّ الاجراء والتنفيذ كما هو منطوق المادَّة الفلانيَّة من قانون الاجراء . ومن ثَمَّ فاني التمس ايقاف كل معاملةٍ اجرائيَّة يطلبها خصمي المحرر مع تضمينهِ كل ما يلحق بي من المصاريف والاضرار

وهذه صورة استدعاء الاستئناف مع بيان الشكوى والدفاع

ان فلاناً العثماني التاجر من البلد الفلاني اقام عليَّ الدعوى في محكمة بداية القضاء الفلانيْ بمبلغ خمسة آلاف قرش بموجب كمبيالة مؤرخة في كذا طالباً مني هذا المبلغ مع فائضهِ واجبتُ ان دعواهُ غير مسموعة لمرور خمس سنين على تركها. وانَّهُ مع افتراض عدم مرور الزمن عليها فالكمبيالة مفتعلة لا علم لي بها والخط والختم اللذان فيها ليسا بخطي ولا ختمي. وبعد التحقيق غير الاصولي الذي جرى حكمت عليَّ المحكمة بعدم مرور الزمان وبأن الخط والختم هما خطي وختمي وبثبوت هذا المبلغ في ذمتي مع فائضهِ وبملغ كذا بدل تعطيل وأضرار ومصاريف خصمي مستندةً في ذلك الى اسبابٍ غير اصولية واصدرتْ في ذلك اعلاماً مؤرَّخاً بكذا بُلِّغ اليَّ في كذا. وحيثُ ان هذا الحكم مغاير الاصول وموقع بحقي الغدورية من جهة عدم مراعاة المحكمة اعتراضي بمرور الزمان حال كون المحكمة ممنوعة قانوناً من سماع الدعوى التي مرّ عليها الزمان جئتُ ملتمساً استئنافهُ ضمن المدَّة القانونيَّة باستدعائي هذا المصحوب بسند الكفالة القانونيَّة الذي يضمن لخصمي المرقوم مصاريف المحاكمة والمصاريف السفرية والعطل والاضرار والخسائر التي تتعين قانوناً اذا ظهرتُ غير مُحقٍّ باستئنافي هذا ملتمساً تبليغ خصمي المرقوم صورة مصدقة عن هذا الاستدعاء وعن اللائحة وعن سند الكفالة المذكورة وجلبهِ للمحاكمة الاستئنافيَّة بموجب بولصة دعوة يتعين فيها يوم المحاكمة لاجل الحكم عليهِ. اوَّلاً بقبول استئنافي وانهُ مقدَّم في مدتهِ موافق لشرائطهِ. ثانياً بفسخ حكم المحكمة المذكور. ثالثاً بالحكم على غريمي المرقوم بمنع دعواهُ وتضمينهِ ما التحق بي من العطل والاضرار والخسائر والمصاريف والرسومات . . .

البحث الرابع

في انشاء الخطب المشاجرية

س ما هي طبقة الانشاء في الخطب المشاجريَّة ؟

ج الخطب المشاجرية تكون عادةً من الانشاء الساذج

س ما هي صفات انشاء هذه الخطب ؟

ج يُستحبُّ فيها الصراحة والوضوح مع حذق الخطيب

في بيان حجّتهِ وتنسيق ادلّتهِ ليكون كلامهُ احسن وقعاً في صدور الحكام . ويجوز لهُ في بعض المواطن ان يطلق العنان لبلاغتهِ في ردّ تهمة واغاثة مظلوم ضعيف ودونك مثالًا على هذا الانشاء من خطبة في محاماة شارِد (عن الحقوق)

ومع ذلك فاننا نتمنّى لو ان حكومتنا الحرَة الدستوريَّة تجمع بين العدل والرحمة ، وشديد القصاص ونافع التعليم ، فتعمد اولًا الى جمع هؤلاء الشرَّد تنذرهم وتعلّمهم تعليماً ، وتشغلهم تشغيلًا مُبقية ايَّاهم تحت المراقبة ، فاذا صَحَوا كان بهِ فتكون الحكومة قد احسنت اليهم والى اهلهم والى الهيئة الجمعية والَّا فتزيد في عقابهم تدريجاً فامَّا ان يصطلح الواحد منهم فتستعملهُ للخير واما ان يبقى فاسدًا فتبترهُ من جسم الهيئة بترًا

ونرجو منها ان تنظر الى بعض من هؤلاء الشرَّد الذين حكمت عليهم العِبَر فكانوا شاردين طريدين بالرغم عن ارادتهم قوم لم يعتادوا التعدّي ولم يجنوا الَّا بعد ان عضَّهم الجوع بنابهِ فهاموا يطلبون الرزق ولو من احرج ابوابهِ وقد سيقوا الى ذلك لا بقصد الشرّ والاضرار مجرَّدًا بل لسدّ جوعهم وستر عريهم وإشباع عيالهم . ولم يتمكنوا من العمل وقد ورَّطهم في ذلك ما في البلاد من قلَّة الاشغال وكساد التجارات وما يلاقي العامل والفلّاح من مطامع اهل السطوة من الامتهان وغمط الحقوق . هؤلاء يجب ان لا يُنظَر اليهم نظرة الغضب والازدراء بل ينبغي ان تُراعى احوالهم وظروفهم ويحتمَ برفعهم من هذه الوهدة بطرُق الإقناع والتعليم والتهذيب لا بطرق التنكيل والارهاب والتعذيب . يجب ان الحكومة تمدّ الى مثل هؤلاء يد المساعدة فاذا اوجدت لهؤلاء القوم عملًا مفيدًا وفتحت لهم ابواباً للارتزاق والكسب تفيدهم بها وتستفيد منهم فلا اظنُّ ان واحدًا منهم لا يرضى العدول عن هذه الطريق الصعبة الى طريق اكثر اماناً واشرف منزلة واسلم عاقبة وهم ليسوا الَّا أُناساً من لحم ودم ولهم نفوس روحانية وعقول قد تصير بالتهذيب من اكبر العقول واذكاها . وليسوا خالين من بعض خصال حميدة خنقتها اشواك الجهل والطيش والفاقة . فمن الحكمة ان يُصرَف ما لديهم من المواهب الى نافع الامور

الباب الرابع

في الوعاظة

س ما هي الوعاظة ؟

ج الوعاظة لفظة مستحدثة يُراد بها فنّ الوعظ وخطابة المنابر

س ما هو الوعظ ؟

ج الوعظ في اللغة النّصح والتذكير بالعواقب وقد يُطلق عموماً على الخطابة الدينية سواء كانت تعليمية تُوضح المعتقدات او ادبية تختص بالتذكير والانذار وإصلاح الآداب

س ما هو شرف فنّ الوعظ ؟

ج شرفهُ في غاية الرفعة وهو يمتاز عن بقية فنون الخطابة: أوّلاً من حيث شخص الخطيب الذي هو نائب الله يتكلّم باسمهِ تعالى ويبلّغ الناس اوامرهُ عزّ وجلّ. وثانياً من حيث موضوع الكلام الذي يتناول اشرف الامور واخطرها اعني الامور الروحية . وثالثاً من حيث الغاية التي يتوخاها الخطيب اي مجد الله وخير النفوس . ورابعاً من حيث الفائدة اي سعادة الحياة بممارسة الفضيلة ثمّ الفوز بالخلاص الابدي

س ما هي صفات الخطيب الدينيّ ؟

ج ينبغي لهُ ان يتَّصف باربع صفات : الاولى ان يعرف الحقائق الدينية معرفةً تامَّة لئلّا يُضلَّ سامعيهِ بتعليمهِ الباطل

والثانيــة ان يتلهَّب غيرةً لخلاص النفــوس التي تولّى ارشادها

والثالثة ان يطبّق كلامهُ على مبلغ فهم السامعين وطبقاتهم وحاجاتهم

والرابعة ان يكون معروفاً بتقاه وبرارة حياتهِ فيعمل ما يدعو اليهِ غيرهُ لان مثل الخطيب يؤثر في القلوب اكثر من كلامهِ

س ما هي صفات الخطب الدينيَّة ؟

ج يحسن بالخطب الدينية ان تُجمَّل بالصفات الآتية :

اوَّلًا ان تكــون سهلة واضحة العبارة ليدركهــا عموم السامعين فيقتبسوا فوائدها لاصلاح سيرتهم

ثانياً ان تكون ساذجة بعيدة عــن كل تصنُّع لئلّا ينشغل السامع بقشرة التراكيب المنمَّقة والزخرف الباطل ويذهل عن لبّ التعليم والقوت المغذي للنفوس

ثالثًا ان تنطبع في عقل السامع وقلبهِ بما يودعها الخطيب من البراهين الدامغة والعواطف المؤثرة

س كم من بحث يشمل باب الوعاظة ؟

ج يشمل ثلاثة ابحاث : مصادر فنّ الوعظ ثمَّ انواعهُ ثم انشاؤهُ

البحث الاول
في مصادر فن الوعظ

س ما هي مصادر فنّ الوعظ ؟

ج هذه المصادر على قسمين منها اوَّلية واصلّية ومنها ثانوية وعرضية

س ما هي مصادر الوعاظة الاصليَّة ؟

ج هي كل العلوم الدينية المبنية على الوحي وتعليم الكنيسة ورسومها

س ما هو الوحي ؟

ج هو كلام الله الذي بلَّغهُ تعالى البشر في العهد العتيق على يد موسى الكليم وانبياء بني اسرائيل وفي العهد الجديد على يد ابنهِ وكلمتهِ السيّد المسيح ثم رسلهِ الكرام

س أالكلام الله قوَّة عظيمة في الوعظ ؟

ج ليس فوقهُ قوّة اعظم لأنَّهُ اسطع من غيرهِ نورًا في

العقول وانفذ عملًا في القلوب . قال بولس الرسول : « انَّ كلام الله حيٌّ عاملٌ امضى من كل سيف ذي حدَّين نافذٌ حتى مفرق النفس والروح ومميّز لأفكار القلب ونيَّاتهِ »

س ما هو تعليم الكنيسة ؟

ج هو التعليم الحي للحقائق التي ورثتها الكنيسة من السيد المسيح وتلاميذهِ فتلقَّنها المؤمنين بواسطة احبارها الاعظمين المعصومين عن الغلط في عقائد الدين والآداب اذا تكلَّموا كرؤساء الكنيسة ونوَّاب المسيح وبواسطة المجامع المسكونية المنعقدة تحت رئاسة الاحبار الرومانيين وبواسطة معلّميها الملافنة القديسين ثم اساقفتها المتحدين مع مركز الوحدة وكرسيّ بطرس الرسول

س بماذا امتازت تعاليم الآباء القديسين معلِّمي الكنيسة ؟

ج قد امتازت بأمرين : الاوَّل بكونها افضل شاهد على التقليد الكنسي لما دوَّنهُ اصحابها من التعاليم الدينيَّة الموروثة من الرسل . والثاني ببلاغة منشئيها الفائقة على معظم الخطباء المدنيين

س ما هي رسوم الكنيسة ؟

ج هي كلّ الفرائض الدينية والطقوس والعبادات

والعادات التي جرت عليها الكنيسة او صادقت عليها تنميةً لروح الدين

س ما هي المصادر الثانويَّة للوعاظة ؟

ج هي كلّ العلوم البشرية التي يستطيع الخطيب ان يتوسّل بها لفائدة سامعيهِ ولاسيما العلوم الفلسفية والتاريخية

س كيف يستعين الخطيب الدينيّ بالفلسفة ؟

ج يستعين بها اذا أيَّد اقوالهُ بالادلّة العقلية خصوصاً في تفسير الحقائق التي يهتدي اليها العقل من نفسهِ كوجود الله وخلود النفس وضرورة الدين . امَّا المعتقدات الفائقة لادراك العقل فيمكنهُ ان يبيّن شرفها وصلاحيتها فضلًا عن كونها ليست بمخالفة للحقائق العقلية

س ما هو التاريخ الذي يفيد الخطيب لارشاد المؤمنين ؟

ج هو على الاخصّ التاريخ الديني والتاريخ الكنائسي اذ يذكر الخطيب من اشتهروا بقداسة حياتهم وشهامة اعمالهم ليدفع السامعين على الاقتفاء بآثارهم. ولا بأس ان يستخدم لتلك الغاية التاريخ الدنيوي ليزيد كلامهُ طلاوةً وقوَّة فيأتي المؤمن حبًّا بالله واكراماً للدين ما أتاهُ العالميّ حبًّا بالوطن او لغاية زمنية

س وهل يستطيع الواعظ ان يستفيد ايضاً من بقيَّة العلوم الدنيويَّة؟

ج نعم لهُ ذلك . فانَّ العلوم كلّها ولاسيما الطبيعية والرياضيَّة بل الصنائع والفنون كالحراثة والملاحة والتجارة لقربها من فهم السامعين تجدي الخطيب تشابيه ومقابلات وامثالًا يتخطَّى منها الى التعاليم الدينية والمغازي الادبية جرياً على عادة السيد المسيح نفسهِ ورسلهِ الكرام وجميع الآباء القديسين الذين استعانوا بهذه الامور المادّية فمهدوا السبيل لأفهام الجمهور ورقّوهم الى ما هو اسمى واشرف

ودونك امثالًا على استعمال هذه المصادر الدينيَّة في الوعظ نقتطفها من كلام ملفان شرقنا العزيز وشرف بلادنا السوريَّة القديس يوحنَّا الذهبيّ الفمّ (راجع كتاب نخبة النخب في ترجمة القديس يوحنا فم الذهب)

فمن اقوالهِ ما خطب بهِ عن موت السيد المسيح وقيامتهِ وقد احسن بايراد آيات الكتاب المقدَّس :

. . . لكن المخلص لم يكتفِ بانتخاب تلاميذهِ ان يقرّر تعليم وتهذيب الشعوب بل اراد ايضاً ان يكفّر عن جرائمهم بآلامهِ ويفتح لهم بموتهِ مقام الغبطة الابدية فجاء بذاتهِ ليقدّم نفسهُ عنهم ذبيحةً . قال اشعيا : « حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة . . . أخذ وحمل اوجاعنا . . . كشاةٍ سيقَ الى الذبح لم يصنع جورًا ولم يوجد في فمهِ مكر كلّنا ضللنا كالغنم . مال كل واحد الى طريقهِ . . . جُرح لاجل مماصينا وسُحق لاجل آثامنا فتأديب سلامنا عليهِ وبشدخهِ شفينا » (الفصل ٥٣) . وقال داود بلسان المخلص : « ثقبوا يديَّ ورجليَّ اني اعدُّ عظامي كلها وهم يتفرَّسون فيَّ . يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون (المزمور ٢١ : ١٧–١٩) . وقال ايضاً : « حرًّا بين الاموات مثل القتلى الرُّقود في القبور . . . جعلتني في الجبّ الاسفل في الظلمات والاعماق » (٨٣ : ٦) . . . وكذلك سبق داود فتنبأ عن قيامة المخلص المجيدة التي هي خاتمة رسالتهِ قائلًا بلسانهِ : « لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فسادًا » (المزمور ١٥ : ١٠) . ولمَّا نزل بعد

قيامتهِ الى الجحيم انزل بهِ الرهبة والخوف وقوّض اركانهُ وقد قال اشعيا : « لأفتح امامهُ المصاريع ولا تُغلق الابواب . اني اسير قدّامك فاحطّم مصاريع النحاس واكسّر مغاليق الحديد وأُعطيك كنوز الظلمة ودفائن المخابئ » . وقد كسّر المسيح قيود الموت لمّا نهض من القبر وصعد الى السماء مجيدًا عزيزًا كما قال داود : «ارفعنَ رؤوسكنَّ ايتها الابواب وارتفعنَ ايتها المداخل الابدية فيدخل ملك المجد » (مز ٢٤ : ٧) . ولما صعد يسوع الى المنازل الابديّة لم يجلس بين الملائكة ولا بين قوّات السماء بل صعد على عرشهِ عرش ملكهِ الالهي كما اعلن النبي داود ايضًا : « قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئًا لقدميك (مز ١٠٩ : ١) » .

وهذه بعض اقوالهِ النفيسة في خلود النفس :

« دفعت الجرأة بعض الناقصي الحجى الذين لا يتّكلون الّا على نور عقلهم الخصوصي المريب الى ان يعلموا بانَّ النفوس ليست الّا فيضًا من جوهر الله غير المتناهي . وأفضت القحة بغيرهم الى تحقيرها ووضع شأنها حتى ساووها بصفّ الطبيعة الحيوانيّة الدنيئة . فما اقبح هذا التعليم المُحاليّ وما اشدّ حماقة اصحابهِ فاعلموا اذًا ان فاطر الطبيعة كما انهُ اراد ان يبدع قوّات غير هيولية كذلك كوّن الانسان من تراب الارض ثم شاء ان يمنحهُ نفسًا متحلّيةً بالعقل تستطيع ان تمارس سلطانها وارادتها على اعضاء الجسم المادّيّة . . . فأنعموا النظر هنا لتتأملوا باصغاء في الهاوية الفاصلة بين الكائن الخالي من النطق وبين حياة الانسان العقلية فانَّ الخالق لمّا اخرج من العدم ساكنات البحار لفظ هذه الكلمات : « لتَفِض المياه زحّافات ذات انفسٍ حيّة » ففاضت البحار بالحيتان لتعيش في الماء . ثم قال الله للارض : « لتخرج الارض ذوات انفسٍ حيّة بحسب اصنافها » فلبّت الارض واخرجتها . لكن لمّا اراد الله ان يخلق الانسان شاور نفسهُ قائلًا : « لنصنع الانسان على صورتنا . فجبل الانسان ترابًا من الارض ونفخ في انفهِ نسمة حياةٍ » . فقد منحهُ اذًا قوّةً حيويّة وهذه القوّة التي هي ينبوع حياةٍ انما هي جوهر النفس جوهر غير هيولي ومخلوق لعدم الموت »

ومثلهُ حسنًا قولهُ في قيامة الموتى :

« سوف يأتي المسيح في ذلك اليوم العظيم فيفتّش عن اخوتهِ ويخرج من الارض اجسادهم فيلبسهم وجودًا جديدًا كما قال اشعيا (٢٦ : ١٩) : « ستحيا

وتاك يا ربّ وتقوم اشلائي. استيقظوا ورنّموا يا سكان التراب. نداكَ ندى النور. . ان الموت لا يُبيد الجسد بل سيقوم هذا الجسد من القبر ببهاء من المجد عظيم لكن هذا البهاء لا يكون حظ جميع الموتى الذين يقومون الى الحياة فان جميع البشر يقومون لكنَّ المجد لا يكون الا نصيب الفضيلة. ان الهنا حسب قول الكتاب اله رحيم رؤوف عادل فاذا كان رحيماً ولا يفتر عن الصفح عن معاصي الخطأة فهو باقوى حجة لن يدع القديسين بلا اكليل ولا مجد . . . وهو ايضاً اله عادل فكل امرئٍ ياخذ من يديهِ جزاءَ اعمالهِ ولو نزل القبر دون نوال هذا الجزاء العادل فلا ريب اذًا في وجود قيامة آتية. وان رأيتم في حوادث البشريّة ان الرذيلة مكتنوفة بالراحة والطمأنينة والفضيلة بالنكال والاضطهاد فأجيبوا اذًا اين تجدون الميزان العادل للرذائل والفضائل ان كان ليس من قيامة تنشر الانسان الى الحياة وتدفعهُ الى يد عدل الله »

البحث الثاني

في انواع الوعاظة

س كم هي انواع الوعاظة ؟

ج هي على نوعين : فمنها للتعليم ومنها للتأديب

١ً في مواعظ التعليم

س ما هي اخصُّ المواعظ التعليميَّة ؟

ج هي الميامر وخطب التأويل والمحاضرات الدينية والخطب الجدلية

س ما هي الميامر وما غايتها ؟

ج هي خطب دينية يلقيها ارباب الكهنوت ليوضحوا فيها للمؤمنين عقائد الدين واسرارهُ وحقائقهُ النظريّة. وغايتها انارة عقول السامعين وتثبيتهم في الايمان

س كيف تُسرَد غالباً هذه الخطب ؟

ج يفتتحها الخطيب بذكر الفضيلة التي يريد ايضاحها وبعد تفسير معانيها واقسامها يعدّد ما ورد عنها في الوحي ثم يبين ما يؤيدها في التقليد الكنائسي كاقوال الآباء وقوانين المجامع والآثار البيعية ويضيف اليها الادلّة العقليّة التي تثبتها او تقرّبها الى الفهم . وكثيرًا ما تُختم هذه الخطب بتحريض السامعين على الاعتصام بحبل الايمان والسَّير في جادَّة الصلاح .

س ما هي خطب التأويل وما هي طريقتها ؟

ج هي الخطب المختصَّة بشرح الكتب المقدَّسة ولاسيما الانجيل الطاهر وكتابات الرسل في العهد الجديد . امَّا طريقتها فبأن يأخذ الخطيب فصلًا من فصول الاسفار الالهية ويشرحهُ آيةً آيةً ثم يبين ما بين الآيات من العلاقة وفوائدها النظريَّة والادبية واذا وجد مشكلًا كتابيـاً فسَّرهُ ويختم كلامهُ بما يوافق الحال كالثناء على كلام الله او بيان شرف الفضيلة او ممارسة الصلاح . مثالهُ شرح القديس يوحنا فم الذهب لآية بولس الرسول الى الرومانيين : «اسألكم ايها الاخوة بمراحم الله ان تقرّبوا اجسادكم ذبيحة حيَّة مقدَّسة عند الله عبادةً منكم عقليَّة » . قال :

بعد ان ذكّرنا الرسول فيما تقدَّم من الآيات بنعم الله التي هي نتيجة مراحم الله عاد الآن يسألنا بنفس تلك المراحم ان نُواجه غرض النعمة . وكيف ذلك ؟ قال : « اسألكم ان تقرّبوا اجسادكم ذبيحة » . ولئلّا يتبادر الذهن الى لزوم

الذبيحة الدمويَّة بقتل الاجساد اضاف اليها قولهُ : « حيَّة » واحترازًا من ان تكون كذبائح الاقدمين قال ايضًا : « مُقدَّسةً مرضيَّة عبادة عقليَّة » — لان ذبائحهم كانت جسديَّة ولم تكن في الاكثر مقبولة . . .
ورُبَّ قائل يقول : كيف أُقدّم الجسد ذبيحة · قُلتُ : ان لا تحوّل عينك الى قبيح . هذا هو الذبيحة . ان لا يتحرَّك لسانك بالدنس هذا هو الذبيحة . . . غير ان هذا كلَّهُ غير كافٍ . اذ لا بدَّ ايضًا ان نعمل الاعمال الصالحة . فالذبيحة الفُضلى اذًا ان تبسُط يدك بالصدقات وان يُبارك لسانُك مُبغضَكَ وان تُعوّد اذنك سماع كلام الله . . . هكذا يمكننًا ان نقرّب اجسادنا ذبيحة حيَّة مُقدَّسة مرضيَّة لله عبادة عقليَّة

س ما هي المحاضرات الدينيَّة ؟

ج هي خطب يُقصَد منها الدفاع عن معتقدات الدين بالبرهان وغايتها بيان صحَّة الدين وتعاليمهِ للاباحيين وَنكَرَة الوحي ثمَّ تعزيز الايمان في قلوب المؤمنين ليقووا على الدفاع عن معتقداتهم

س ما هي الطريقة المتَّبعة في هذه الخطب ؟

ج هي الطريقة النظريَّة بحيث يثبت الخطيب عقلًا ونقلًا الوفاق التامّ بين الدين والعقل ويفنّد سفسطات الملحدين . ولا بأس اذا وجد العقل البشريّ في الدين بعض العقائد التي تعلو فوق طورهِ فلا يدركها فهمهُ فانَّهُ يستطيع ان يتحقَّق كونها من الله الحقّ بالذات الذي لا يمكنهُ ان يخدع او ينخدع

س ما هي الخطب الجدلية ؟

ج هي الخطب التي تُلقى في النوادي الدينيــة ردًّا على

المبتدعين واعداء الدين والغاية منها إلزام الخصم بالبرهان وازالة الشكّ من عقول السامعين

س ما هي صفات هذه الخطب الجدليّة ؟

ج اوّل صفة يجب ان تتحلّى بها هذه الخطب الوضوح ليقف السامعون على اقوال الخصوم دون التباس وتعقيد . ثم استقامة الخطيب لئلَّا ينسب الى الخصم شيئاً لم يَقُلْهُ او يُضعف حجَجَهُ وان وجد في اعتراضهِ دليلًا قويًّا اقرّ بهِ بنزاهة .واخيراً حُسن الردود بالبيّنات والادلَّة التي تُثبت الحقّ وتُزهق الباطل

(تنبيه) اعلم ١ً ان الافضل في هذه الخطب ان تُلقى في نوادٍ خاصَّة لا يحضرها الجمهور بل نخبة من الادباء لقصور الجمهور عن ادراك الغرض منها ما لم يتَّفق واعظان يقوم احدهما مقام المعترض والآخر مقام المحامي فهذه الطريقة الجدليَّة يستحسنها البعض لتفنيد الاعتراضات الجارية بين العموم . ٢ً انَّ الحجج والبراهين في هذه الخطب توْخذ من العقل او من مصادر يرضى بها الخصم ولا يستطيع رفضها

٢ً في مواعظ التأديب

س ما هي مواعظ التأديب ؟

ج هي المواعظ التي يروّض بها الخطيب آداب السامعين

س ما هي الغاية من هذه الخطب ؟

ج الغاية منها ان يردّ الخطيب الاشرار الى التوبة ويزيد الابرار صلاحاً

س باي طريقة يبلغ الخطيب هذه الغاية ؟

ج يدركها خصوصاً بالتذكير والانذار بعواقب الانسان وبوصف الفضيلة واثمارها الطيّبة في هذه الحياة وفي الآخرة وبتقبيح الرذيلة ولواحقها السيّئة في الدارَين ثمّ بذكر الوسائل الكافلة بالسيرة الصالحة كالصلاة والزهد في الدنيا وممارسة اعمال البرّ والمواظبة على الاسرار

س ما هي اخصّ المواضيع الادبيَّة التي يحسن الخطيب ان يتكلّم فيها ؟

ج هي كلّ الواجبات والفرائض التي تربط الانسان بخالقهِ وقريبهِ وطبقات الهيئة الاجتماعية مع رياضة نفسهِ فللخطيب مجال واسع يتناول كلّ آداب الدنيا والدين

س أَورد بعض الامثلة من الخطب التأديبيَّة ؟

ج هذه امثلة نقتطفها ايضاً من اقوال الذهبي الفم . قال في ضرورة الصدقة ولزومها الجميع ثم منافعها الجمَّة :

لا أُوجّهِ الحضَّ على التصدُّق الى الاغنياء فقط بل الى الفقير ايضاً ولا استفزُّ كرم الحرّ فقط بل العبد ايضاً والرجل والمرأة وكل احدٍ بحيث لا تبقى نفسٌ غريبةً عن الخدمة القلبية والثروة السماويّة . فليبذل كلٌّ منكم تقدمتهُ ولا تحتجّوا احتجاجاً كاذباً بالفاقة فلربما انتم فقراء حقّاً ولكن مهما كنتم فلستم افقرُ من تلك

الارملة المذكورة في الانجيل فانها اعطت كل ما لها. العلكم اشدَّ اعوازًا من ارملة صَرْفَنْد التي لم يكن عندها الَّا ملءُ راحةٍ دقيقًا وكانت تعدُّهُ طعامًا أخيرًا لها ولاولادها قبل ان يموتوا. فلما ضافها النبيّ قدَّمت لهُ ليأكل من ذلك اولًا واولادها يبكون حولها جوعًا فلم تكترث اليهم ملتهيةً بما اصابها من الفرح بتشريف رجل الله بيتها. حاشى لستم افقر منها فتعلَّموا اذن من هذا المثل ذي الشهامة ان الافتقار الذي ينزل بكم بسبب عطية الصدقة انما هو كنزٌ بل اعظم الكنوز لانهُ كنز الابديَّة. أَجَل اعطوا ذهب الارض تنالوا ملكوت السما. . . .

فان كنتم لتنجوا من اوجاع جرح او اخطار مرض تبذلون بسرورٍ كل اموالكم حتى ثيابكم فكم أحرى بكم ان تصنعوا الصدقة التي تنجّي نفسكم من قروحها وتشفيها من جراح الخطيئة المريمة. فافرضوا ان نفسكم ملتحفة بشعارٍ اسود من قذارة ذنوبكم فاذا ارتفع صوت صدقاتكم ليدافع عنكم امام الله فلا تخافوا فما من قوَّةٍ اقدر منها في السماء فهي تفي عن دينكم حاملةً بيديها الصكَّ الناطق بحقوقكم التي لا بدَّ من وفائها استنادًا الى كلام الربّ القائل: كلّما فعلتم ذلك باحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموهُ. اذن مهما كانت معاصيكم كثيرة وكبيرة فان صدقتكم تكون دائمًا ارجح منها في ميزان الالهية

ولهُ في الصوم الحقيقي :

من مارس إماتة الصوم وجب ان يجمع اليها سيرةً محتشمة وقلبًا وضيعًا ومنسحقًا ويدهن جبهتهُ بصفاء السلام. فالصوم انما هو دواءٌ يمنح النفس صحَّةً روحية. على انهُ وان كان غايةً في الافادة يتفق غالبًا انهُ لإهمال ممارسهِ لا ينفعهُ شيئًا بل يبقى عقيمًا لان الصوم الحقيقي والفعَّال انَّما هو الذي يؤدّي الى الفرار من الخطيئة. أَتزعم انك صائم فأَثبتْ لي صيامك باعمالك. وما هذه الاعمال ? فان رأيت فقيرًا فتحنَّن عليهِ. وان صادفت عدوًّا فصافحهُ مصالحًا. وان كان صديقك قد اشتهر وفاز من جراء حذاقتهِ فلا ينغّصنَّ الحسد قلبك. وان وقعت عينك على امرأة بارعة الجمال فاهرب. ولتكن اماتتك شاملةً لكلّ حواسّك فلا يكفي ان تميت فمك بحرمانهِ من الاكل بالصيام بل يلزم ان تعمّ الاماتة ايضًا عينيك واذنيك ورجليك ويديك وسائر اعضاء جسمك. . . فالصيام المسيحي انما هو كبح الشهوات والهدوء الصافي للنفس الامينة. هو جمال الشيخوخة وسياج الشباب ومصباح الحكمة والتاج الساطع الذي يكلّل جبهة الانسان في كل اطوار الحياة

ولهُ من خطبة في الاعتراف السرّي للكاهن :

ان سقطتَ في الخطيئة فاحذُ حذوَ المريض الذي يستغيث بالطبيب. اكشف للكاهن جراحات نفسك دون سَتْر شيء لان الرب قد اعلن ان كل ما يربطهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما يحلّهُ في هذا العالم يكون محلولًا الى الابد. لان يسوع عندما يجلس الكاهن على منبر القضاء الرهيب يلتفت الى عبده فكل ما ابرمهُ هذا القاضي في هذه الدنيا يثبتهُ يسوع المسيح في السماء وهكذا الكاهن ينقذنا من يديهِ بعد ان تكون خطايانا قد دفعتنا الى عدلهِ. فادخلوا اذن بيت الله واسجدوا قائلين : خطئنا ألم تروا على الجلجلة مجرماً نال العفو والقداسة بالاعتراف. اشهدتم اذًا ما اهمّ الاعتراف بالخطايا والاقرارِ السرّي بالهفوات البشريّة. فالخاطئ يعترف باثمهِ والفردوس ينفتح لصوتهِ. أجل ان شئنا ان نرشف نفسنا من ينابيع الرحمة الالهيّة فلا يصدّنّنا الخجل موقفاً على شفاهنا الاقرار بخطايانا لان فضيلة الاعتراف هي فضيلة عظيمة وقوّتها لا حدّ لها. وان كان عقلك يتمرّد مستنكفاً عن هذا العمل ذي التواضع فاقمعهُ مكرهاً وأقنعـهُ أنهُ ان كانت كبرياؤهُ لا تنحطّ الى هذا الاقرار على الارض اضطرَّ اليهِ قسرًا في الحياة الاخرى حيث يكون هدفاً للخجل امام خلق كثير جدًّا ولعقابٍ جسيم ذي عذاب شديد اليم. ان ديَنونتك في هذه الدنيا لا شاهد عليها وانت عينك تقوم على نفسك ديّانًا وحكَماً اماّ في الابديّة فان خطاياك كلها تُكشف في يوم الرب العظيم ويصدر الحكم عليك بحضرة العالم كلهِ ان لم تكن قد مُحيت منّا قبلًا على الارض

ودونك مثلًا آخر من خطبة لسّيليون الواعظ الفرنسويّ الشهـير في موت الخاطئ وموت البارّ قال :

اذا نظرتَ الى الاهواءِ البشريّة قضيتَ منها العجب وتحقّقتَ فيها تنافرًا شديدًا. ألا ترى ان الانسان يميل كل الميل الى الحياة ويحسب الموت شرّ الشرور. اهواؤهُ هي التي تُحبّب اليهِ الحياة ولكنّها هي التي تجلب عليهِ وبال الموت فكأني بالانسان لا يحيا الّا ليستعجل الموت

كُلّ انسان يتمنّى بل يودّ ان يموت ميتة رجلٍ صالحٍ وان كان يؤجّل الى آخر ساعة حياتهِ الأمل باصلاح نفسه من الأهواءِ التي تدنّس جماءها. كُلُّ انسان يحسب ان ميتة الشرير شرُّ البليّات وهو مع ذلك يمهّدها لنفسهِ آمنًا مُطمئنًا. يرتجف رُعباً وفرَقاً لمجرّد التفكُّر في ميتة الشرّير وتراهُ مع ذلك يمشي في نفس

الطريقة التي تؤدّي اليها . قُل لهولاء انَّ مماتكم مثل حياتكم وكما عشتم تقضون آجالكم

ثم اخذ الخطيب في وصف ميتة الرجل الشرّير :

ان الماضي والحاضر والمُستقبل كُلٌّ منها يُلقي الرُّعب في قلب المحتضَر الشرير . امّا الماضي فلانّ الشرير يجد فيهِ بُطلان سعيهِ وراء ملاذّهِ ورداءة سلوكهِ وكثرة ما ارتكب من الذنوب والقبائح . . . فيتحسّر على ما فرّط ولاتَ ساعة تحسُّر

امَّا الحاضر فلانَّهُ يُحدث فيهِ حيرةً غريبة . . . يرى يد الله مرفوعةً فوقَهُ . . يرى الدنيا غرّارةً خدّاعةً . . . يرى الفراق قد أَزِف حينـهُ . فراق الأهل والاحبَّاء . . . فراق اللّذات والشهوات . . . فراق نفسهِ من نفسهِ

وامَّا المُستقبل وما ادراك ما المُستقبل : الله من اعلى السماوات قاضٍ عادل مريع مهيب . . . وتحت اقدام الشرير نار غضبٍ لا تنطفئ على توالي الازمان . . .

فالخاطئ المحتضر اذ لا يرى وقتئذٍ في ما مضى عليهِ الّا ما يوجب الاسف ولا ينظر في ما بين يديهِ الّا صُوَرًا تملأُهُ حزنًا ولا يلاقي في المستقبل الّا مخاوف تُشدّد عليهِ الرُّعب ولا يعلَم بِمَن يستعين أَبالخلائق التي تُفارقهُ أَم بالاهل وهم عاجزون عن نجاته أَم بالاله الذي يعتقدهُ عدوًّا لهُ . . . يتقلَّب على فراش المرض فريسةً لاعظم القلاقل وأَشدّها . . . وتراهُ يجهد في الفرار من الموت ولا فرارَ . . . يبدو عليهِ ما يدلّ على اضطراب نفسهِ . . . تسمعهُ يُصعد من اعماق صدرهِ كلمات مُتقطعة بالشهيق والزفير وما يُدريك ان كانت عن ندامة او عن يأْسٍ من رحمة الله . . . يلقي على المصلوب نظرات هائلةً لا تعلم ان كانت عن خوفٍ او رجاءٍ . عن محبةٍ او بغضٍ — . . . تتولَّد منهُ تشنُّجات واضطرابات ولا يُعرف ان كانت من انحلال الجسم او عن شعور النفس بوشك قدوم ديَّانها . . . هذا وتشخص عيناهُ وتتبدَّل هيئتُهُ ويتشنَّج وجههُ وينفتح من نفسهِ ذلك الفم الذي عَلَتْهُ غبرة الموت . . . ويرتجف بدنُهُ . . . وتغادر تلك النفس التعيسة جسمَها الترابي لتَقِف امام وجه ربّها وتُحاسَب حسابها الاخير . . . هذه ميتة الشرّير فتَجنَّبها أَيُّها الخاطئ ان شِئتَ ميتة الصالح

وانتقل الخطيب بعد ذلك الى وصف ميتة البارّ فقابلها بميتة الخاطئ قائلًا :

ان الماضي والحاضر والمُستقبَل كُلٌّ منها يملأ الصالح فرحاً وسلواناً
يرى في الماضي انهُ استراح من اتعابهِ . . .
امَّا في الحاضر فما من شيءٍ الَّا ويفرح به . . . يفرح بقرب الفراق لأَنَّهُ كان متوقعهُ . . وبالاسرار المقدَّسة لانها تفتح لهُ ابواب الفردوس . . .
وما أحلى ذكر المستقبل عندهُ لانَّهُ يرجو ان يجتمع بالهِ يُحبُّهُ فيجازيهِ على حسناتهِ . . .

س ماذا يلحق من الخطب بهذه المواعظ التأديبيَّة ؟

ج يلحق بها مواعظ المدح التي تُقال في اعياد القديسين للثناء عليهم ومواعظ التأبين التي تُلقى في الكنائس ذكرًا لاحد افاضل المؤمنين من الموتى . وقد مرَّ الكلام في هذه الخطب في جملة الخطب التثبيتيَّة

البحث الثالث

في انشاء الوعاظة

س ما هو الانشاء اللائق بالوعاظة ؟

ج لمَّا كانت المواعظ متضمّنة لكلام الله وغايتها فائدة المؤمنين اجمالاً وبنيانهم الروحي تحتَّم على الواعظ ان لا يترفَّع فوق ادراك السامعين ويتجنَّب كل زخرف باطل يعدل بهم عن اجتناء ثمرة الوعظ . وامَّا الانشاء اللائق لهذه الغاية فانَّما هو الانشاء البسيط

س هل تقوم البلاغة الخطابيَّة مع هذا الانشاء ؟

ج نعم لانَّ بلاغة الكلام لا تتوقّف على الرونق الظاهر والبهرجة بل على اختيار المعاني وتنسيقها وشرحها بالتدقيق وتبليغها ذهن السامع وإنفاذها في قلبهِ بالشهادات والتشابيه القريبة والامثال السهلة والنتائج العمليَّة الواضحة مع تحريك الاهواء لمباشرة العمل فينسى السامع مَنْ يقول ليفكّر في ما يقول ويصلح نفسهُ بالتوبة النصوح والسيرة الجميلة

س ما هي اشكال البديع الموافقة للواعظ ؟

ج هي الاشكال البديهية الناجمة عن الموضوع ومقتضى الحال . ومثلها التحسينات اللفظيَّة والعبارات الرائقة التي تنهج للخطيب سبيلًا للوصول الى الأفهام مع الحياد عن التكلُّف والتنميق الزائد بحيث يأنس بها الجميع فلا يستنكرها العالم ولا تستبهم على الجاهل . وعلى كلّ حال يلزم الخطيب الاخذ بالرصانة والوقار متذكّرًا بانهُ ينطق باقوال الله من قبل الله

(تنبيه) سبق لنا القول بانَّ ارسطو قسم الاقوال الخطابيَّة الى ثلثة اقسام : التثبيتي والمشوريّ والمشاجريّ . ويجوز تطبيق الخطابة الدينيَّة على هذه الاقسام بان تُنظم الخطب التعليميَّة مع المدح والتأبين في القول التثبيتي . وتُدرج الخطب التأديبيَّة في المشوريّ . امَّا الخطب الجدليَّة فمرجعها الى القول المشاجري

الباب الخامس

في تاريخ الخطابة

البحث الاول

في اصل الخطابة واقدم آثارها

س ما هو اصل تاريخ الخطابة ؟

ج تاريخ الخطابة عريق في القدم والاحرى ان يقال انَّ هذا الفنَّ غريزيّ نشأ مع تكوين الانسان الناطق الذي لا غنى لهُ عن تبليغ افكارهِ لذوي جنسهِ وعن إقناعهم بصدق آرائهِ

س ما هي اقدم الآثار الخطابيَّة الباقية الى زماننا ؟

ج اقدم ما صبر منها على آفات الزمان الخطب المدوَّنة في اسفار العهد القديم مباشرةً بتوراة موسى الكليم حيث ترى خطباً عديدة وجَّهها هو والانبياء الى بني اسرائيل ليردُّوهم عن المآثم ويحضّوهم على الصلاح والاعمال الشريفة. وكذلك وجدوا في كتابات الاشوريين المسمارية وفي آثار المصريين الهيروغليفية خطباً وعظيـة او تأديبية وردت غالباً عـلى ألسنة آلهتهم او ملوكهم

س الى من يعود الفضل في تحسين هذا الفنّ ؟

ج الى قدماء اليونان والرومان

البحث الثاني

في الخطابة عند اليونان والرومان

س متى نشأت الخطابة بين اليونان ؟

ج نشأت في دولهم الاولى ومنازعاتهم السياسيّة وحروبهم. وفي الياذة هوميروس في القرن العاشر قبل المسيح خُطب عديدة بليغة اوردها عن ألسنة الآلهة والابطال

س من هم الخطباء اليونان الاوَّلون ؟

ج اوَّلهم سولون مشترع اثينا (٦٤٠ — ٥٥٩ ق م) ومصلح آداب اهلها . ثمَّ پيسِستْرات (+٥٢٨) مناظر سولون وابنهُ هيپارك جامع شعر هوميروس . واشتهر بعدهم في الخطب العسكريَّة القائد ثميستوقلس (٥٢٨— ٤٦٤) وفي الخطب السياسية ارستيدس رصيف ثميستوقلس

س متى بلغت الخطابة اليونانيَّة كمالها ؟

ج بلغتهُ في اواخر القرن الخامس قبل المسيح في عصر پريكليس الذهبي (٤٩٩ — ٤٢٩ ق م)وكان پريكليس زعيم

وطنهِ واحد خطبائها المضلّعين . وما لبث ان ظهر بعدهُ بقليل خطباء مصقعون نالوا في فنّهم قصبة السبق على من سواهم . اخصهم ايسوقراطيس (٤٣٦—٣٣٨ ق م) في القول التثبيتي . وديمُسْثينيس (٣٨١—٣٢٢) امير الخطباء في كل اجناس الخطابة ثمَّ مناظرهُ اسخينس (٣٨٧—٣١٢) في القول المشاجري

س متى اشتهر الرومان بالخطابة ومن هم اشهر خطائهم ؟

ج لم يشتهر الرومان بفنّ الخطابة الّا بعد اليونان بمدَّة طويلة لانصراف همَّتهم الى الحروب . وممَّن يستحقون ذكرًا خاصًا كاتون المعروف بالنقَّاد (٢٣٢—١٧٤ ق م) في خطبةِ على قرطجنَّة . ثمّ يوليوس قيصر (١٠٠—٤٤ ق م) القائد الروماني الشهير . ثمَّ إمام الخطابة اللاتينية شيشرون (١٠٦—٤٣ ق م) الذي اضحى اسمهُ مرادفاً للبلاغة

س من هم اوَّل الذين دوَّنوا قوانين فنّ الخطابة ؟

ج اوَّلهم ثلثة من خطباء اليونان ازهروا في ختام القرن الخامس قبل المسيح والقسم الاوَّل من القرن الرابع اعني پروديكوس القوسي (المتوفَّى نحو السنة ٤٣٠ ق م)وبروتاغوراس معاصرهُ ثم غورجياس(+٣٨٠ ق م).الى ان ظهر ارسطوطاليس (٣٨٤—٣٢٢ ق م) استاذ الاسكندر وزعيم الفلاسفة فلم

يدع كبيرًا او صغيرًا من قوانين هذا الفن حتى دوَّنهُ ونشرهُ في كتابهِ المعنون بالخطابة. وقد اشتهر بعدهُ عند الرومان شيشرون السابق ذكرهُ في عدَّة تآليف عن فنّ الخطابة ثم كُوَنتيليان المعلّم (٤٢—٩٥ م) في كتابهِ المعروف بتهذيب الخطيب. واخيرًا لُنجينوس الحمصي (٢٤٠—٢٧٣ م) نديم زينوبيا (الزبَّاء) ملكة تدمر في كتابهِ المعنون بالمُفلق

البحث الثالث

في تاريخ الخطابة النصرانية

س من كان اوَّل خطباء النصرانيَّة ؟

ج اوَّلهم السيد المسيح الذي لخطبهِ في الانجيل احسن موقع في القلوب لجمعها بين السذاجة والبلاغة السامية. ثمَّ تلاميذهُ الكرام ولاسيما هامتي الرسل القدّيسين بطرس وبولس في خطبهما الحسنة المدوَّنة في سفر اعمال الرسل وفي رسائلهما

س من هم ائمّة الخطابة النصرانيَّة بين كتبة اليونان ؟

ج لا يُحصى عدد الكتبة اليونان الذين اشتهروا ببلاغتهم في انواع الخطب. واوَّلهم الذين اثبتوا الدين النصراني بتآليفهم او دافعوا عنهُ امام القياصرة بكُتُبهم في النصرانية. نخصّ منهم بالذكر القديس اقليميس (+٩١) البابا تلميذ

بطرس الرسول في رسالتَيهِ الى اهل قورنتية . واغناطيوس الانطاكيّ الشهيد (+١٠٧ م) في رسائلهِ السبع . ويُستينوس النابلسي (١٠٣—١٦٧ م) في دفاعهِ عن النصرانية ورسالتهِ الى الامم وردّه على اليهودي تريفون والوثني ديوغنات . وايريناوس الاسقف (١٤٠—٢٠٢ م) في تفنيد المبتدعين . واقليميس الاسكندري (+٢١٧ م) في تزييف اضاليل الوثنيين وفي كتابهِ المسمَّى برشد الاحداث وغير ذلك . وتلميذهُ اوريجانوس (١٨٥—٢٥٣ م) في عدَّة تآليف نفيسة وخصوصاً في ردّهِ على قِلسوس الفيلسوف

ثم ظهر في القرن الرابع والخامس اولئك الآباء اليونان الذين لا تزال مصنَّفاتهم العجيبة ناطقة ببلاغتهم الالهية كاثناسيوس الاسكندري (٢٩٦—٣٧٣) في خطبهِ الدفاعية وردودهِ على آريوس . وكيرلُّس الاورشليمي (٣١٥—٣٨٦) في شروحهِ التعليمية . ثم الثلثة الاقمار اليونانية البهية اعني غريغوريوس النزينزي (٣٢٨—٣٩٨) المعروف باللاهوتي وباسيليوس القيسري (٣٢٩—٣٧٩) ولكليهما الخطب الآخذة بمجامع القلوب. ولاسيما يوحنا فم الذهب الانطاكي (٣٤٤—٤٠٧) وبطريرك القسطنطينية الذي لم يدع باباً من البلاغة الّا طرقهُ فاستحقَّ ان يُدعى نابغة الخطابة المسيحيَّة . ثم تبعهُ كيرلُّس

الاسكندري (+٤٤٤ م) في ردوده على نسطور وخطبه الانيقة . وتاودوريطس القورشي (٣٨٧—٤٥٨) وغيرهم كثيرون دون السابقين تتابعوا الى ان ذوت زهرة البلاغة بانفصال الكنيسة الشرقية عن مركز الايمان في القرن التاسع

س اذكر ائمّة الخطباء في الكنيسة اللاتينيَّة ؟

ج برّز في الخطابة النصرانية بين اللاتين المعلّم ترتوليان (١٦٠—٢٤٥) في تآليف جمَّة تشهد لهُ بذلاقة اللسان وقوّة الجدال اخصُّها دفاعهُ عن الدين المسيحي . ثمَّ قبريانوس اسقف قرطجانّة الشهيد (+٢٥٨) في مقالات تتدفَّق بلاغةً شبَّهوها بالبحور الزاخرة والسيول الجارفة . ثم قام في القرن الرابع والخامس آباء ومعلِّمون جارَوْا في بلاغتهم الخطباء اليونان كهيلاريوس اسقف پواتيه في فرنسة (+٣٧٠) وامبروسيوس الميلاني (٣٤٠ — ٣٩٧) وايرونيموس الدلماطي حبيس مغارة بيت لحم (٣٣١ — ٤٢٠) واوغسطينوس نابغة النصرانية عموماً (٣٥٤ — ٤٣٠) ولاون الكبير بابا رومية (+٤٦١) وخطيبها المِلْسان وغريغوريوس الكبير (٥٤٠ — ٦٠٤) خاتمة البلاغة اللاتينية قبل هجوم البرابرة على الرومانية ولكلّهم في الخطابة الآثار المخلَّدة

س وهل اشتهر بعض الخطباء بين نصارى السريان ؟

ج نعم قد اشتهروا بالخطابة منذ القرن الرابع الى التاسع. واوّلهم افرهاط الفارسي (نحو+٣٥٠) في مقالاتهِ الدينية . ثم تبعهُ الملفان القديس افرام (+٣٧٣) الملقَّب بشمس السريان وكنّارة الروح القدس لهُ ما عدا شروح الكتب المقدَّسة ميامر اي مواعظ معظمها بالشعر اعرب فيها عن مقدرة عجيبة في البلاغة وطول باع في فنون الخطابة.وخلَّف بعدهُ عدَّة تلامذة اشتهر بعضهم بالخطابة الدينيَّة منهم اسحاق الكبير الانطاكي مؤلف ميامر شعريَّة جميلة . ومن مشاهير خطباء السريان ربُّولا الرهاوي (+٤٣٥) ويعقوب السروجي المعروف بالملفان (+٥٢١) الذي جارى مار افرام بميامرهِ الشعريَّة والنثريَّة في كل الآداب الدينية . ومن معاصريهِ فيلُكسان اسقف منبج (+٥٢٣) صاحب المقالات والمواعظ البليغة التي شوَّه بعضَها باضاليله اليعقوبية. واشهر منهُ في القرن السابع يعقوب الرهاوي (+٧٨٠) الكاتب المتفنن ومن جملة تآليفهِ ميامر نثريَّة وشعريَّة في اسرار البيعة وتعاليمها . ثمَّ طيموثاوس الاوَّل المعروف بالكبير (+٨٢٣) لهُ خطب عيديَّة بليغة

س من هم اشهر خطباء الفرنج في القرون الاخيرة ؟

وخطباء علمانيون كمونتالمبار وشاتلون ودي مون . وقد جُمعت اعمالهم في مجلّدات ضخمة يجد فيها القرّاء كنوزًا من المآثر الخطابيَّة تخلّد ذكر اصحابها . امَّا بقية الدول فلم تبلغ الخطابة عندهم مبلغهـا عند الفرنسويين الَّا بعض الافراد كبولس سينيري اليسوعي الايطالي (١٦٢٤— ١٦٩٤) وڤيايرا اليسوعي البرتغـالي (١٦٠٨ — ١٦٩٧) ودونوزو قورتيس (١٨٠٩ — ١٨٥٣) الاسباني الشهير ووِنْدتورست الخطيب السياسي الالماني (+١٨٩١) واوكونل الارلندي (١٧٧٥ — ١٨٤٧)

البحث الرابع

في الخطابة العربية

س الى كم تقسم الخطابة العربيَّة ؟

ج الخطابة العربية قسمان نصرانية واسلامية

س ما هي اقدم آثار الخطابة العربيَّة النصرانيَّة ؟

ج اقدم هذه الآثار سبقت الاسلام فترُوى لقُسّ بن ساعدة اسقف نجران الذي ضُرب المثل في بلاغتهِ ولأكثم بن صيفي التميمي افصح خطباء العرب ولسحبان وائل من قبيلة باهلة النصرانية الذي ادرك الاسلام فأسلم

س ما قولك في هذه الخطب القديمة ؟

ج انَّ ما بقي منهــا لا يجدي نفعاً كبيرًا وانّما يدلُّ على بلاغةٍ ولَسَنٍ في قائليهــا . وهي غالبًا معانٍ متفرّقة وحكم وامثال اكثر منها خطب قانونية مبنية على اصول ثابتة

س ما هي آثار الخطابة النصرانيَّة بعد الاسلام ؟

ج معظمها مقالات وميامر وخطب كنسيَّــة واقوال جدلية تُرى متفرّقةً في الاديرة القديمة والمكاتب الحافلة . فمنها ما كُتب توًّا بالعربيَّة ومنها ما نُقل اليها من اليونانيَّة والسريانيّة والقبطيَّة

س هل نُشر منها شيء بالطبع ؟

ج نعم قد نُشرت مواعظ القديس يوحنا فم الذهب معرَّبة بقلم ابي الفضل الانطاكي المتوفّى سنــة ١٠٥٢ للمسيح وميامر ثاودورس ابي قرَّة اسقف حرَّان في القرن التاسع وهي اقدم الآثار النصرانيَّة العربيّة . وكذلك طُبعت التراجيم السَّنية للاعياد المارانيَّة وهي خُطب للبطريرك الكلداني النسطوري اليَّا الثالث المعروف بابي الحليم ابن الحديثي المتوفّى سنة ١١٩٠م جرى فيها على طريقة خطباء المسلمين فحلَّاها بالسجع واشكال البديع وضروب التحسينات اللفظيَّة والمعنويّة

س وهل عُني النصارى في عهدنا بفنّ الخطابة وما هي آثارهم ؟

ج أجل وقد تقفّوا في ذلـك غالباً آثار الفرنج فجروا على طريقتهم الخطابيَّة وان لم يبلغوا شأوهم . ولم يُنشر من هذه الآثار سوى الخطب الدينيَّـة فنشر الموارنة خطب ومواعظ السيّـد يوسف الدبس . ومواعظ السيد جرمانوس الشمالي والخوري استفان الشمالي (لمحة العين) . ونشر الروم الكاثوليك مواعظ السيّد جرمانس معقَّد (سبيل الصلاح والكلام الحيّ وحسن الختـام) . ونشر السريان الكاثوليك مواعظ السيِّد انطون قندلفت (عقود الجمان) والخورفسقفس افرام ابيض (دليل الفردوس) . ونشر الروم الارثدكس مواعظ اثناسيوس البطريرك الاورشليمي وخطباً في الاعياد وتفسير اناجيـل الآحاد معرَّبة عن اليونانيَّة (بهجة الفؤاد والبوق الانجيلي) وخطب الخوري اسبيرديون صرّوف (الروض الداني القطوف). هذا فضلًا عن بعض الآثار العصريّة صنَّفهـا افاضل الكهنة ممَّن لم يزالوا في قيد الحياة

٢ً في الخطابة الاسلاميَّة

س كم قسمًا الخطابة الاسلاميَّة ؟

ج الخطابة الاسلامية قسمان : منها مدنية ومنها دينية

س من هم الذين برعوا في الخطابة المدنيَّة ؟

ج هم قليلون اخصُّهم علي بن ابي طالب وقد جمع خطبهُ المدنيَّة والدينيَّـة السيد المرتضي في القرن الرابع للهجرة في كتاب نهج البلاغة وهي غالبًا نُتَفٌ من خُطَب ليست خطباً مستوية التقسيم منظَّمة الابواب . ثم بعض الخلفـاء وعمَّالهم كمعاوية ويزيد ابنهِ والمنصور العبَّاسي وزياد ابن أَبيـهِ عامل معاوية على البصرة وعُتْبة بن ابي سفيـان عاملهِ على البصرة والحجَّاج بن يوسف عامل عبد الملـك بن مروان على العراق وقُتَيبة بن مسلم عـامل يزيد بن مروان على خراسان وبعض الخوارج كقَطَري بن الفُجـاءة وابي حمزة الشاري . ولكلّهم خطب قليلة تُروى متفرّقةً في كتب الأُدباء وقد ألقاها اصحابها بداهةً فهيَّجوا فيهـا بعض الاهواء لا سيما الغضب والانفـة والخوف لكنَّها بعيدة عن الفنّ الخطابي لكونها لم تقيّد عقول السامعين تحت حكم الخطيب فتجذب اليـهِ بالاقناع الى ما يريد منها المتكلّم وتنقاد اليهِ عفوًا . وقد اخذ المسلمون في عصرنا يدرسون فنّ الخطابة درساً محكماً ويلقون في نواديهم خطباً مدنيَّة ضافية كخطب الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمَّد عبده ومصطفى كامل وغيرهم قليلين

س من هم مشاهير الخطباء المسلمين ؟

ج اشهرهم ابو يحيي عبد الرحيم الشهير بان نُباتة (٣٣٥—٣٧٤ = ٩٤٦ — ٩٨٤ م) لهُ ديوان خطب عُني بشرحهُ كثيرون. واشتهر بعدهُ ابو القسم محمود الزمخشري (٤٦٧ — ٥٣٨ = ١٠٧٥ —١١٤٤) في كتاب اطواق الذهب في المواعظ والخطب وتبعها كثيرون في خطتها . ومن مشاهير العهد الاخير الشيخ نعمان الألوسي موألف غالية المواعظ والشيخ شعيب حُرَيفيش موألف الروض الفائق في المواعظ والرقائق

س ما قولك في الخطابة الدينيَة الاسلاميَّة ؟

ج هي كلُّها على وتيرة واحدة ذات دائرة ضيّقة معلومة لا تكاد تخرج منها فتُفتَتح بالحمدلة وتُشفَع بالصلاة على الانبياء وتُعقَّب بالتزهيد في الدنيا وذكر الآخرة وتُختم بالدعاء. واصحابها في الغالب على الكلام المنمَّق احرصُ منهم على تحريك القلوب ودونك ما كتبهُ الشيخ حسن المَرْصفي مدرّس علوم الادب بدار العلوم الخديويَّة في هذا الشأن قال:

ان خطباء المنابر في امّتنا قد تميّزوا عن آخر طبقة من طبقات العامّة بتمكُّنهم من قراءة نوع من انواع الخطّ. فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطب صنَّفهُ بعض اسلافهِ كما تخيّل مناسباً للشهور والمواسم فيتحفَّظ ما تعطيهِ تلك النقوش من موادّ الالفاظ وينسخ صورةً خطيَّة ليخفّ حملها عليهِ اذا قام بها خطيباً يسرد الفاظاً حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها. ثم اذا لم يكن

الديوان مشكولًا ولم يقرأ الخطبة على ذي دراية سمعتَ منهُ المُعجب والمُطرِب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح. فان منهم من يخاف على نفسهِ انتقاد السامعين فيقرأ الخطبة في اثناء الاسبوع مرارًا على بعض اهل المعرفة حتى يقف على صحة النطق بها . . . وربَّما قرأها على رجل يقيمهُ لهُ ضعيف بصناعة النحو فيضلّان جميعًا . . .

فان قلتَ : انما اردتَ خطباء الاسلاف . قلتُ لك : تجاوَزْ عصر النبي (صلعم) وعصر اصحابهِ ثم اقرأ خطب الخلفاء ونوّابهم في النوّاحي ثم امضِ في ذلك طبقةً بعد طبقة وعصرًا خلف عصرٍ حتى تنتهي الى وقتك هذا تجد ان جميع الخطب يدور امرها على معان واحدة والفاظ معيّنة لا تجاوزها وهي الترهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وتبشير المطيع وانذار العاصي يكررون ذلك كل جمعة وكل موسم حتى لم يبق لهُ تأثير والتحقَ بالامور المعتادة . انما يسمع الناس اصواتًا ذات كيفيات مختلفة اقامة لذلك الرسم حسبما يصل اليهِ فهم العامة من ان تلك الصورة هي اقامة الدين . وفي صفة خطباء العصر الثاني بعد عصر النبي واصحابهِ يقول شاعره :

وذمّوا لنا الدنيا وهم يرضعونها افاويقَ حتى ما يدرُّ انا تَعَلْ

ولا تظنّ اني انتقص بذلك خطباء العصور الأُولى فانهم كانوا يرون كفاية ذلك لكثرة اهل المعرفة حين ذاك . وبالجملة فكيفما كان الحال في الخطابة فهي غير كافية في تحقُّق الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تكون تلك الامة متحققة بخطباء المنابر . . . وقد كانت الوعاظة حرفةً شائعة وصناعة فاشية كان اهلها يتنافسونها وكثير منهم اخذ عليها الرواتب من بيوت الاموال واكثرهم كان يلمُّ بها القِطَع من العامّة الذين يحضرون مجالسهم . فكان الواعظ إذا فرغ من كلامهِ الذي اعدّه لذلك المجلس بسط منديلهُ فطرح فيهِ كلٌّ ما سمحَتْ بهِ نفسهُ . . .

ومعلوم ان من نصب نفسهُ لوظيفة الهدى ودعاء الناس الى الخير يجب ان يكون ابعدهم من التصنُّع واحرصهم على الكمال فانَّ ادنى هفوة منهُ تُسقط اعتبارهُ وتسهّل التهاون بهِ فلا يكون لكلامهِ تأثير في القلوب ويصير مجلسهُ مسلاةً يتَلهَّى بحضوره . . . والمحتوم على الخطباء ان يكونوا من الفطنة والذكاء وبراعة المنطق وبلاغة العبارة بمكان رفيع . وكثيرًا ما كانت مجالسهم مواعد لاهل الخلاعات والمجون . . .

هذا ما قالهُ الشيخ حسين المَرْصفي المتوفى سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م)

في كتابهِ رسالة الكلم الثمان التي نعتها بعض العارفين بلسان حال الأمّة المصريّة . وقد كنّا تحققنا مرارًا صدق مقالهِ بمطالعة دواوين خطب المنابر الدينيَّة فيأخذنا العجب من عُقمها وقلّة فائدتها سواء كان لإنارة الاذهان في الحقائق الدينيَّة أم لتحريك القلوب وبَعْثها على الصلاح والكمال . فهيهات ان تُقاس بالخطب الدينيَّة الرائجة في الدول المتمدّنة البالغة الآلاف المؤلفة فلا تكاد خطب العرب بالنسبة اليها تُعدّ خطباً بل هي كتمارين يحرّرها طلبة المدارس لا تخرج عن نطاق عقولهم الضيّقة . وقد بيَّن المرصفي بوصفه الشائق سبب سقوط ذاك الفنّ الجليل في الاسلام . وانما الامل معقود بانَّ خطباءهم العصريين يسدُّون هذا الخلل بدرسهم اصول الخطابة وبالنظر في خطب ارباب الوعاظة الذين سبق لنا ذكرهم . والله الهادي الى الصواب

تمّ بحولهِ تعالى قسم الخطابة

ويليهِ قسم الشعر

فهرس

القسم الاول من علمَي الخطابة والشعر

صفحة

To: www.al-mostafa.com